تاريخ مصر الاسلامية

من

الفتح العربي سنة ٦٤٠ م

الى

الفتح العثماني سنة ١٥١٧ م

تأليف المرحوم الاستاذ

الياس الأيوبي

دولة العرب في مصر

من سنة ٢٠ هـ

الى

سنة ٢٥٤ هـ

م. الرغايب بمصر



المؤلف

المرحوم الاستاذ الياس الأيوبي

كلمة للناشرين

شاء القدر أخيرا، أن يظهر هذا الكتاب للجمهور كما كان قد أعده للطبع المرحوم والدنا منذ أكثر من خمس سنين.

ولقد كانت هذه أمنيتنا جميعا التي طالما ملأت أحلامنا، الى أن هدانا الله الى حضرة صاحب العزة الاستاذ الجليل محمد كامل مرسى بك عميد كلية الحقوق، فقد فتح لنا صدره وأظلنا من قلبه بذلك العطف الذى كنا قد فقدناه منذ تلك السنين الطويلة، وتولى عنا مفاوضة حضرة الاستاذ الشيخ عبد الرحيم بدوى صاحب مطبعة الرغائب وأوصاه بنا خيراً، واهتم بالكتاب أيما اهتمام.

ولهذا نحن نعترف هنا بعجزنا عن شكره، وبعجزنا عن وصف شعورنا نحو شخصيته الفاضلة. واننا نرجو أن ننوب عن المرحوم والدنا فى تقديم الشكر لتقديره مؤلفاته التى خلفها.

ونرجو من حضرات القراء أن يقبلوا هذا الكتاب كما هو فاننا فضلنا أن نطبعه دون ادخال أى تغيير عليه حتى ولو كان طفيفا.

ونسأل الله أن يوفقنا الى اظهار بقية المؤلفات المشار الى بعضها فى مقدمة هذا الجزء فهى وديعة مقدسة لابد بمشيئة الله، من أدائها، وعليه نعتمد؟

صلاح وبسيم ونعيم ومنير ديسرى

القاهرة فى أول ديسمبر سنة ١٩٣٢

مقدمة

كنت ، منذ نيف واثنتي عشرة سنة ، أشتغل بكتابة موجز للتاريخ العام . فلما عرضت بوضع ما يختص منه بمصر ناهذه فى العصور الوسطى ، وقع فى خلدى أن أنقطع ، متى فرغت من العمل الذى بين يدي ، الى كتابة تاريخها كله : قديمه ، ومتوسطه ، وحديثه ، كتابة أعمل بها ، ما استطعت ، على احياء الشعور القومى فى القلوب ، مظهراً مفاخر مصر السنية ، وعزها الأقعس ، وحضارتها البديعة ، فى عهد الفراعنة والبطالسة ، ففى عهد الطولونيين ، والاخشيديين ، والفاطميين ، والأيوبيين ، والسلاطين المماليك من بحريين وبرجيين ؛ ومظهراً بؤسها وذلها وآلامها وانحطاطها كلما أضاعت سيادتها وذاتيتها ، وباتت جزءا من جسم أجنبى ، وولاية من ولايات سلطنة خارجية : أى فى عهد خضوعها لفارس ، فلروما ، فللقسطنطينية ، فللمدينة ، فلدمشق ، فلبغداد فللاستانة ، مرة اخرى .

وكنت ، كلما أتصور تمكنى من انجاز فكرتى ، واتخيل عملى أمامى تاما : فأرانى أصبحت أول مؤرخ لمصر جدير بهذا الاسم ، وأرانى قد انشأت ، حقيقة ، فى احضان قومى ، روحا مصرية بحتة — لا عربية ، ولا تركية ، لا مسيحية ولا يهودية ولا اسلامية — روحا مصرية متشبعة بالمبادىء القومية العصرية ، ومتثقفة بالثقافة العصرية الحقة التى تستمد منها الحضارة العصرية قوتها وجمالها ؛ وأرانى ، بالتالى ، قد

أصبحت من بناة مجد المستقبل وعظمته وعزه ؛ ومن العاملين على الرقى العام وعلى الاخاء العام ، بما يبذلون من جهود فى سبيل رفع مستوى الأمم ، أمة أمة ، فى سبيل توحيد عقليتها وميولها ومظاهر حياتها ، لتكون منها جميعها ، وحدة عظيمة لا يتنافس أعضاؤها الا فى الصاعد من الأمور ، والنبيل من المقاصد والأعمال . كنت كلما أتصور ذلك ، أشعر بلذة تملأ نفسى ليس فى مقدورى وصفها ؛ وأشعر بهناء يستقر فى فؤادى ، كأنه السكينة التى ينزلها الله على قلوب عباده الصالحين ؛ وأحس أن حياتى باتت ملأى ؛ أنى قد قمت بدورى فيها قياما محمودا ؛ وأنى، أذن ، لنازل الى رمسى ، قرير العين ، هادىء البال ، وأنا مطمئن على خلودى فى ذكر قومى وغيرهم ، خلود من اذا ذكروا ، استمطرت على اجداثهم سحائب الرضوان . فما فرغت ، اذن ، من العمل الذى كان بين يدى ، الا وأقبلت على تنفيذ الفكرة التى وقعت فى خلدى، فوضعت كتابا فى مصر الفرعونية ، وكتابا فى مصر تحت حكم فارس ، وفيما بذلته من جهود عنيفة لتتخلص من ذلك النير الأجنبي الذى كان ثقيلا على نفسها بقدر انحطاط فارس عنها فى العلوم والمعارف والحضارة ، والذى لم يكن ليبرره البتة تفوق فارس عليها فى القوة البهيمية البحتة ؛ وكتابا فى مصر البطليمية أو البطليموسية ؛ وآخر فى مصر الرومانية ؛ وآخر فى عهد استتباب الحكم البيزنطى عليها ، سميته « تاريخ مصر المسيحية » ، حتى اذا جئت الى مدخل « العصور الوسطى » وشرعت فى كتابة « تاريخ مصر الاسلامية » ، رأيت أن العمل هنا لا يكون كاملا ، بل قد لا يكون مفهوما ، اذا لم يسبقه كتاب فى « تاريخ النبى

وقيام الاسلام » ؛ فوقفت فى سبيلى ، وشرعت آخذ أهبتى لانجاز هذا المؤلف الخطير . واذا بى أراه من أشق ما يمكن لقلم أن يخوضه من المواضيع التاريخية لا سيما متى كان قلم مسلم يكتب فى بلاد اسلامية ، وذلك لأن المتقدمين ، اما لجهلهم حقيقة الواقع ، اما رغبة منهم فى تغيير معالم التاريخ ليجعلوه موافقا لاهوائهم أو لتصوراتهم أو لأغراضهم ، واما لتغلب الخيال الشعرى فيهم على الروح الفلسفية ، التى اذا أعوزت المؤرخ فقد أعوزه النور ، قد جعلوا فيما كتبوه من سير للنبى ، الغلبة للخرافة على الحقيقة ، مقلدين فى ذلك المتقدمين من مؤلفى المصريين والكلدانيين واليونان والرومان ، الذين رووا حوادث تأسيس الدولة المصرية والكلدانية واليونانية والرومانية ، ومحتذين فى ذلك كتاب الكتب المقدسة عند اتباع موسى وزارادشتوا وساكياموني والمسيح .

فأجفلت وأحجمت ؛ ثم أقدمت فحررت جزئين ؛ ثم أجفلت وأحجمت مرة أخرى لما رأيت الأرض تتذلق بقدمى تارة ، وتارة تتحرق تحتهما . وبعد لأى طويل قطعت الرأى على ترك « تاريخ النبى وقيام الاسلام » مؤقتاً ، حيثما بلغت به ، وعلى الرجوع الى « تاريخ مصر » لاتمام تنفيذ فكرتى فيه ؛ حتى اذ تسنى لي ذلك ، استأنفت العمل المتروك .

فوضعت فى « تاريخ مصر الاسلامية » كتابين عن « دولة العرب فى مصر » ؛ وكتابا عن « الدولتين الطولونية والاخشيدية » ؛ وثلاثة كتب عن « الدولة الفاطمية » ؛ وكتابين عن « الدولة الأيوبية » ؛ وثلاثة كتب عن « دولة السلاطين المماليك » ؛ وبينما أنا أجد فى

تهذيب كل هذه الكتب، لاعطائها شكلها النهائي، أشار على صديق عزيز على نفسي أن أدخل في المباراة التي وضعها جلالة الملك أيام أن كان «الأمير فؤاداً»، لكتابة تاريخ مصر في عهد أبيه اسماعيل الفخيم. فدخلتها وأنا أرى أن العمل قد يكون جزءاً من المهمة التي وطنت نفسي على القيام بها، وقصر عملي التحريري عليها، حتى أفرغ منها. فوفق الله مجهودي، وأحرز كتابي قصب السبق في تلك المباراة. غير أنه أخرج للجمهور، وقد قطعت أو شذبت منه أجزاء ربما كان وضعها أو شذبها في مصلحة رواجه، ووفقاً للصلاحية النسبية: لأنه طبع على نفقة صاحب الجلالة، ومن فيض مكارمه السنية براً بوعد وعده، وربما أدى، من جهة أخرى، الى اختفاء روح المؤلف الحقيقية بما يتبع اختفاءها من قفل أبواب الانتقاد العنيف في وجوه من يختلف نظرهم الى الأمور عن نظر المؤلف اليها. وهو قفل قد يفيد، اذا كان من المفيد في نظام الطبيعة أن لا تقوم الزعازع والأعاصير؛ وقد يكون ضاراً، اذا كان قيام الزعازع والأعاصير في نظام الطبيعة، ضروريا، أحياناً، لتنظيف الجو وجعله صحياً.

وقد رأيت بعد أن أخرج تاريخ «مصر في عهد الخديو اسماعيل باشا» الى الجمهور، أن أكمل سلسلة مجهودي، فأضع كتابا عن «مصر في عهد الدولة العثمانية»، أي من الفتح العثماني الى الحملة الفرنساوية؛ أعقبه بكتاب عن «مصر بين يدي هذه الحملة»؛ فبكتاب عن «الفوضى التي تلت انسحاب هذه الحملة من مصر»؛ فبأربعة كتب عن «مصر تحت حكم محمد علي الكبير وخلفائه الثلاثة ابراهيم وعباس وسعيد»؛

فبكتابين عن « مصر فى عهد الخديو توفيق باشا » يكونان خاتمة جهودى . وفيما أنا أنفذ ما رأيت ، عنّ لى ، بمناسبة الطور الذى تجتازه البلاد ، أن أنقل الى العربية ، بتصرف المؤلف لا بتصرف المترجم ، كتابا نفيسا ، وضعه أحد أعلام اللغة الفرنسية فى القرن الماضى. فأنجزت منه جانبا يذكر ؛ ثم عرضت على حضرة صديقى الفاضل ، الكاتب القدير ، احمد بك حافظ عوض ، صاحب جريدة كوكب الشرق الغراء ومؤلف التاريخ القيم المشهور فى « فتح مصر الحديث أو نابليون فى مصر » الاشتراك معى فى نشره . فأشار علىّ بالامتناع ، ريثما تستقر الأمور فى نصابها المرغوب فيه ، وحضنى على نشر ما هو يعرف أنى كتبت فى تاريخ « مصر الاسلامية » ، وقد كان فى عزمى ألا أنشر شيئا منه ، حتى أفرغ من عملى كله .

فانقياداً الى حضه ، ها أنا أقدم الى الطبع الجزء الأول من « تاريخ مصر الاسلامية » ، وهو الجزء الخاص « بدوله العرب فى مصر » ؛ ويقع ، كما قلت ، فى كتابين ، كان جل اعتمادى في وضعها ، على المقريزى من المتقدمين ، وعلى تاريخ التمدن الاسلامى لجورجى زيدان من المتأخرين ، وعلى الكندى فيما كتبت عن ولاة مصر فيهما .

وقد توخيت فى وضعهما طريقة غير مألوفة قد تثير علىّ انتقاد البعض ، وقد يستحسنها الكثيرون . وانما توخيتها لأنى قصدت الى كتابة تاريخ المصريين لا تاريخ حكام مصر أو تاريخ الدولة العربية الحاكمة على مصر . لهذا السبب عينه ضربت صفحا عن ذكر الغزوات التى قام بها أمراء الدولة العربية خارج الحدود المصرية بجنود من الأجناد العربية

الضاربة بمصر . وترددت كثيرا في تخصيص فصل لذكر أولئك الأمراء، لاعتقادى بأن التاريخ انما يجب أن يكون تاريخ الأمم لا تاريخ الملوك أو الأمراء الذين يحكمونها والذين كثيرا ما يكونون غير جديرين بان يخلد ذكرهم ، بل جديرين ، على العكس ، بالنسيان التام .

وانى أقدمه ، مؤكدا لمن يتكرم بقراءته بأنى اذا كنت لم أرنى مضطرا الى تقديس ما أجمع على تقديسه من سبقنى فى هذا المضمار ، وأنى اذا كنت ، على عكس ذلك ، رأيت نفسى مضطرا ، أحيانا ، الى حرق ما قد قدسته أنا نفسى زمنا طويلا ، فيما مضى ، فذلك لأنى انما رميت بكتابتى الى أحياء الشعور القومى المصرى البحت فى نفوس قرائى ، كما قدمت ، وكما هو كل قصدى ومناى ، لا لأنى أرغب فى جرح شعور أحد أو احساس أحد أو فكر أحد . ولئن كتبت ، فيما كتبت ، شيئا قد يعده المتدينون أو حضرات أسيادى علماء الدين وأحباره ، أو سادتى المؤرخين مخالفا للمعتقد العام وللأجماع العام — فانى أرجو ، بكل خشوع ، أن لا يحملوه منى الا محمل خالص النية فى أفكاره ، متحرى الحقيقة المحضة فى أقواله : فاما أنهم يفسحون صدورهم للتسامح والعفو ؛ واما أنهم يتفضلون بتقويم ، من واسع علمهم ، ما قد أكون اخطأت فى ادراكه . والله يوفقنى واياهم الى أقوم سبيل .

واذا ما شجعنى عطف الجمهور على ابراز باقى أجزاء هذا التاريخ المصرى الى نور العلانية ، أقدمت على طبعها ، وأنا شاكر حامد كمن يسدى اليه جميل . والا فانى سأستمر على انجاز ما وطنت نفسى على انجازه ، تاركا لأولادى مهمة نشره وللمستقبل مهمة انصافى : فاما أنه

يثيلني ما أبتغي من حسن تحدث مواطني المحبوبين بذكرى ؛ واما أنه ، لأي سبب من الأسباب ، وقد يكون للقدر فيها النصيب الأكبر ، يراني جديرا بالنسيان ، فيطرح اسمي ومؤلفاتي في سلة مهملات الأجيال. ولن تجد روحي في ذلك غضاضة ، لأني ممن يعتقدون بحقيقة ما وصف به دانتي ، شاعر الايطاليين الأسمى ، المجد البشري ، من أنه مجرد دخان يذهب تارة وجهة وطوراً وجهة أخرى ، ويغير اسمه بتغير جانب اتجاهه !

مصر في ١٨ مارس سنة ١٩٢٦



البـــــاب الأول

اجمال عام

الفصل الأول

نهاية حكم البيزنطيين فى مصر

لما انقسمت السلطنة الرومانية ، بعد (ثأودوسيس) الى غربية وشرقية ، وقعت مصر فى نصيب الدولة الامبراطورية الشرقية

وكانت المسيحية قد انتشرت فى الأقطار المصرية انتشاراً عاماً ، لما بين الدين المسيحى والدين المصرى الكهنوتى القديم من الشبه الكثير ؛ وأنجبت فيها الحركة التنسكية الرهبنية التى تكلمنا عنها فى غير هذا المكان [١] والتى لاتزال آثارها باقية الى يومنا هذا فى الأديرة القبطية الأرثوذكسية المتعددة المنتشرة فى أنحاء الوجهين البحرى والقبلى، عامرة كانت أو متخربة ، من أديرة وادى النطرون فى البحيرة الى دير الأنبا هيدرا باسوان

***

ولكن الروح الدينية وقد كانت فى تاريخ مصر الفرعونية السبب فى معظم الثورات الأهلية التى اتقدت نيرانها فى القطر والعلة فى الفوضى التى كثيراً ما خيمت سحبها عليه ، ففصلت ما بين مواقف الحوادث وسقطات السلطنات والدول وقيام غيرها — تلك الروح عينها لم تفارق المصريين بعد اعتناقهم الديانة المسيحية ؛ بل زاد اتقادها ضراما . وكما أنه

(١) أنظر مؤلفنا مصر المسيحية

حملهم ، فى بادئ الأمر ، على تأسيس الرهبنات التنسكية الصحراوية ، التى سبق لنا الكلام عنها [١] ، هكذا حملهم فيما بعد على تأسيس المذاهب اللاهوتية الكنسية التى كانت ، مع تمادى الأيام ، السبب فى تغيير شكل القطر السياسى .

***

وليس ثمة محل للعود الى تفصيل تاريخ حركات تلك المذاهب : لأن الأطلاع عليها ميسور فى غير هذا المكان .

ولكننا نقول بايجاز ان أهم المباحث التى أنتجت أكثر العواقب خطورة ، كانت المسائل التى قامت أسسها على « هل المسيح كون مماثل أو مساو لله ؟ » « وهل يجب أن يعترف له بطبيعتين ومشيئتين : الهيتين وبشريتين ، أو بطبيعة واحدة الهية ؟ »

فذهب (أوطيخا) — وكان رئيس دير فى القسطنطينيـة — الى وحدة الطبيعة الالهيـة والمشيئـة الالهيـة فى المسيح . واعتنق (ديوسفرس) بطريرك الاسكندرية ، هو وقومه مذهبه ، لا سيما أنه كان مذهب كيرلس الأكبر ، البطريرك السالف المجيد الذكر الداوى الشهرة . ولكن مجمع (خلقيدونيا) رفضه ورذله واعتبره مذهباً هرطوقياً ، أى ضالاً ، وانصاع امبراطرة القسطنطينية الى أوامر المجمع الخلقيدونى . ثم أرادوا أن يلزموا المصريين باعتناق المعتقد الذى قرره ذلك المجمع وترك مذهب كيرلس وأوطيخا . فأخذوا يضطهدون كل من أبى اتباع رأيهم والقول به .

(١) أنظر كتابنا المعنون « مصر الرومانية والمسيحية » .

ولكن المصريين ثبتوا على أفكارهم، ولم يزدهم الاضطهاد الا رسوخاً فى ايمانهم. ولبيان احتقارهم لكل من انقاد الى مؤثرات السلطة الزمنية ورجع عن (مذهب الوحدة)، أطلقوا على أتباع المجمع الخلقيدونى من مصريين وغيرهم لقب (الملكيين)، أى خدام الملك، بينما عرفوا أنفسهم على مثال كثيرين من المذهبيين الذين سبقوهم، وكما اقتدى بهم كثيرون من المذهبيين الذين أتوا بعدهم — بأنهم خدام الله.

فاشتد بذلك الخصام بين الفريقين. وشرع موظفو الحكومة واجناد الجيش المرابط فى مصر يسيئون معاملة الرعايا (الموحدين)، لا سيما المعارضين منهم فى تغيير الأساقفة (الموحدين) بأساقفة خلقيدونيين سواهم:

فكنت ترى يومياً الشوارع فى المدن والأزقة فى القرى دامية على أثر التقاتل المستمر بين أتباع المذهبين. واذ كان النصر لا يبارح المذهب الذى كانت تنتصر له الأجناد فان الفناء أناخ بكلكله على المصريين (الموحدين). فتضاءلت صفوفهم، وأحاط بهم الشقاء، وعدمت الأرض من جراء ذلك، أذرعة تعمل على فلاحتها وغراستها؛ والمصانع أيدى تشتغل فيها. فبارت بالتالى التجارة؛ وأقبل القحط على البلاد بجيشه الفظيع الذي يسير الطاعون فى مقدمته، والثورات الأهلية فى مؤخرته.

واعتقد (الموحدون) أن تلك المصائب الطبيعية انما يصيب الله القطر بها بسبب آثام (الملكيين) ومكابرتهم فى الحق وسوء تصرفهم

نحو (خدام الله) . واعتقد (الخلقيدونيون) أن تلك المصائب عينها انما هى عقاب من عند الله للمنشقين عن الكنيسة العامة . ولم يقع فى خلد أحد لا من هؤلاء ولا من هؤلاء أن فى قيامهم بعضهم على بعض بسبب اختلافهم على نظريات قلما كانوا يفهمون فيها شيئاً ، دخلا فى تلك المصائب .

فتضاعفت بذلك كراهات الفريقين المتبادلة بعضهما لبعض، واندلع لهيبها اندلاعاً مريعاً تناول البلاد برمتها وجعلها خراباً. ولم يوجد الغزو الفارسى الذى اجتاح القطر ولا الاحتلال الفارسى الذى أرهقه ما بين سنتي ٦١٦ و ٦٢٢ ميلادية ، الا هدنة مؤقتة بين الفريقين ذاقا فيها ، على يد الأجانب ، من الويل أمرّه ومن المصائب أشدها . وما انجلى ذلك الاحتلال وعادت البلاد الى قبضة القسطنطينية الا وعاد النزاع بين الفريقين الى أشد مما كان عليه ، وعاد اضطهاد الملكيين للموحدين الى أفظع مما كان ، يزيده حدة وعنفاً ما اتهم به آل مذهب خلقيدونيا (الموحدين) من التحيز لأعداء الدولة والبلاد وممالئتهم عليها .

***

وانهم لكذلك واذا بدوىّ بعيد بلغ آذان (الموحدين) ، آت من جهة بلاد العرب ، يبشر بقيام (موحدين) فيها ينصرون دين الحق ويرغبون فى اعلائه على الدين كله .

فهلعت القلوب للنبأ السار ، وباتت الأفكار المضطربة تبغى حدثاً وتترقب وقوعه .

ثم ما لبثت الأيام المتمخضة أن وضعت وضعها ، واجتاز جيش عربى

يقوده عمرو بن العاص الحدود المصرية ، وتقدم يدعو الى (التوحيد) . فالتبس فى الكلمة على قوم (الموحدين) فى مصر لاختلاف لغتهم عن لغة القادمين ؛ وظنوا المسلمين المغيرين على القطر اخوانا لهم فى المذهب، لا سيما وأنهم علموا أنهم اخوان لهم فى سنة الختان .

ففتحوا لهم أذرعتهم وقلوبهم ؛ وقاموا — اقتداء ببنيامين، بطريركهم الاسكندرى ، والمقوقس عظيمهم — يمهدون لهم سبل الفتح، وانضموا اليهم أفواجاً أفواجاً بمؤن وأسلحة ، وأبرموا معهم معاهدة سرية ، وهم يحاصرون مدينة (منف) ؛ وساعدوهم خير مساعدة على البطش بأعوان الحكم البيزنطى المقوت ،وبالجنود البيزنطية الملعونة ألف لعنة.

ولما استتب للعرب الحكم وعاهدهم المقوقس على أن تكون الجزية عن كل مصرى — ماعدا النساء والأطفال والشيوخ والرهبان— دينارين سنوياً ، استوثق من عمرو لضمانة اخلاد قومه الى السكينة ، ألا يفاتح البيزنطيين فى أمر صلح مطلقاً حتى يمحقوا محقا ، أو يستعبدوا عن آخرهم استعباداً ، وتبيت أموالهم غنيمة (للموحدين) فى كلا معنى هذه الكلمة .

فوعده عمرو بذلك ، وأرسل يستدعى الأنبا بنيامين بطريركهم من صومعته فى البرية . ولما حضر اليه ، حادثه ملياً ، ثم أعلن على رؤوس الاشهاد أنه لم يحادث فى حياته ، كاهناً مسيحيا أطهر ذيلاً وأنقى صحيفة وأجلّ منظراً منه . فكان مثله فى معاملته لبنيامين هذا مثل اسكندر المكدونى فى معاملته لاحبار قدماء المصريين . وكما أن اسكندر المكدونى استمال اليه بلطف سياسته هذه قلوب المصريين

النافرين من الفرس – عبدة النار وهادمى المعابد الفرعونية القديمة – هكذا استمالت سياسة عمرو الحكيمة قلوب (موحدى) المصريين. فقاموا يمهدون له طريق السير من (منف) الى الاسكندرية ، معمرين السبل، مرممين القناطر والجسور ، آتين بالمؤن المطلوبة وبالأنباء المفيدة ، ناهضين لحصار القلاع النازلة فيها الحاميات البيزنطية ما بين العاصمتين، وقاطعين عنها سبل الانضمام الى بعضها لمقاومة الفاتحين ، وسبل التموين، ومضطريها بذلك ، الى التسليم .

فتمكن عمرو – بمساعدتهم – من تشديد حملاته على الروم ، ومن زعزعتهم عن حصونهم من مكان الى مكان . الى أن حصرهم فى الاسكندرية ؛ وبعد أن حاصرهم فيها أربعة عشر شهراً استولى عليها فى نهاية الأمر فى ٢٢ ديسمبر سنة ٦٤١ م الموافق أول المحرم سنة ٢٠ هـ؛ ولكن بعد أن سفر الروم منها الى القسطنطينية كنوزها المادية والأدبية ، بما فيها ما أحبوه من كتب مكتبتها الشهيرة ، التى أبقت عليها نيران الحريق المشتعل فيها ، عفواً ، لما أراد (يوليوس قيصر) أن يدافع عن نفسه فى الاسكندرية ، والمشتعل فيها عمداً لما عمد متعصبو الجهل – فى غباوة أفكارهم اللاهوتية العقيمة – الى القضاء على كتب فلاسفة الوثنية القديمة ونوابغها . وسيأتى الكلام عن تلك المكتبة مفصلا فى غير هذا المكان من هذا الكتاب

* * *

هكذا تقلص ظل حكم الامبراطورية الرومية البيزنطية عن مصر ، وقام مقامه فيها ظل الحكم العربى الاسلامى .

الفصل الثانى

نظرة عامة عن حكم العرب فى مصر

غير أن المصريين مالبثوا أن أدركوا أن (توحيد) الفاتحين غير توحيدهم ، وأن الفرق بين دين العرب ودينهم الأكبر بكثير من الفرق بين مذهب (الخلقيدونيين) ومذهبهم . فندموا علي مافرط منهم ؛ لا سيما بعد أن رأوا الجزية يرتفع سعرها ارتفاعا متواصلا — على حسب مقتضيات الجهاد والحرب ، وسمعوا كبيراً من كبرائهم — وكان لاشك ممن يسرهم تعكير الصفاء لغرض فى نفوسهم : شأن بعض الكبراء فى جميع الأجيال والقرون — يقول لهم انه سأل عمراً عند أى حدّ يقف ذلك الصعود ، فأجابه بما معناه : « لو أنكم قدمتم لى من الذهب جبلا يدانى ارتفاعه ارتفاع كنيستكم تلك لما قلت كفى ، لأنكم بمالكم ملك لنا وخزانة ، نأخذ منكم الكثير اذا احتجنا الى الكثير . ونأخذ قليلا اذا كان القليل كافياً » (١) وانتشرت فى أحضانهم حكايات عن تعقب عمرو المثرين منهم ومصادرته لهم فى أموالهم ، من أشكال الحكايات التى رواها (ابراهيم بن رصيف شاه) فى كتابه (أخبار مصر) ، وذكرها نقلا عنه (ابن اياس) فى المجلد الأول من تاريخه المشهور (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) ص ٢٤ ، والمقريزى جزء أول ص ٧٦ ، وما هي فى اعتقادنا الآخرافات فى تخريفات ؛ وأرسلوا يستدعون الروم مرة أخرى.

---

(١) المقريزى جزء أول ص ٧٧

فكان الأمر عليهم وبالا ، لأن العرب ردوا الروم ولم يعودوا بعدئذ يعاملون القبط برفق أيام الفتح الأولى واحترامها .

هكذا كانت حادثة (النزاع على العقبة) فى أوائل هذا القرن سبباً فى تغير خاطر الاحتلال الانجليزى على المصريين ، وتحوله عن خطته الأولى فى معاملته لهم . على أن ذلك لم يمنع الحكم العربى فى أيام الخلفاء الراشدين ومعاوية بن أبى سفيان من احياء القطر احياء جعله يدر الخير أبحراً كما كان فى أحسن أيامه الماضية . وذلك لأن عمراً والأفاضل من خلفائه على ولاية مصر عملوا بالنصيحة التى ألقاها المقوقس على أولهم لما سأله ذلك الامير ، قائلا : « ياعظيم القبط ، أنت أدرى بأحوال هذا البلد من كل أحد سواك ، فاخبرنى بما يكون فيه عمارة أراضى مصر » ؛ فأجاب المقوقس : « أن مايقوم بعمارة مصر حفر خلجانها واصلاح جسورها وسد ترعها ، وألا يؤخذ خراجها الامن غلالها ؛ ويحجر على عمالها من المطل ، ويمنعون من الرشا ، وترفع عن أهلها المعاون والهدايا ، ليكون ذلك قوة على وزن الخراج » .

ولعل هذا كلام بعض المتأخرين من الكتاب وضعه ليروع به بعض أمراء مصر فى أيامه عن مظالم كانوا مغرقين فيها ، أو لينبهم الى تهاون كانوا ساهين عنه وتتألم من سهوهم عنه البلاد .

مهما يكن من الأمر فان عمراً سار على النمط المرسوم فى هذا الكلام . فخصص ثلث الجزية المضروبة لترميم الجسور وتطهير الترع سنوياً . فعم الرخاء وأنقذت مصر بخصبها بلاد العرب المجدبة فى سنوات القحط ؛ وأصبح القطر السعيد مخزن غلال الدولة العربية

الراشدة ، كما كان مخزن غلال الدولة الرومانية فى أيام صولتها الأولى ، والدولة البيزنطية الى أن انتزعه العرب من أيديها .

فكنت ترى صفاً غير منقطع من الجمال يسير بالغلة والبر والغذاء من (منف) الى (المدينـة) . وما لبث عمرو أن أعاد حفر الترعة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر التى كان الفراعنة احتفروها فى ماضى الأيام وحافظ البطالسة على معالمها وسلموها زاهرة الى الرومان ، فضيعها سوء حكم البيزنطيين وأفقدوا جودها .

على أن هذه الترعة ، التى أوشكت أن تكون حلقة الاتصال بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندى ، ومثال ترعة السويس الحالية، عبثت بها ، بعد حين ، المخاوف من بحرية الروم . فأهملها حكام مصر التالون ، وتركوا الرياح تطمرها ، لئلا يتسني لمراكب البيزنطيين العبور الى البحر الأحمر والبلوغ بأذى الى حرمي الأسلام المقدسين .

وابتني عمرو الفسطاط ، وجعلها عاصمة البلاد ، مستعيضاً بها عن الاسكندرية . فلم تمض سنوات قليلة الا وأصبحت المدينة الجديدة زاهرة بكل ما يجعل شأن العواصم كبيراً .

وبالرغم من أن حكم الولاة الذين خلفوا عمرو بن العاص على زمام الأمور في مصر ، ابتداء من عبد الله بن ابى السرح أخى عثمان بن عفان من الرضاع ، وفى مدة الدولتين الأموية والعباسية ، كان معظم همه سلب الأهالى وانماء ثروة الولاة الشخصية ؛ بالرغم من أن مصر فى أواخر حكم عثمان بن عثمان وفى مدة النزاع على الخلافة الذى قام بين علي بن أبى طالب ومعاوية بن ابى سفيان ، باتت مسرحاً للحروب والمنافسات

الأهلية الدموية ، الا أن الرفاه والرخاء ، بوجه عام ، استمرا سائدين على القطر المصرى ، ولكن بتناقص مطرد حتى نهاية حكم المأمون.

على أنه يجب أن لا يفوتنا ذكر التغير السريع الذى أخذ يكيف القطر تكييفاً جعله فى مدة وجيزة لا يعرف أنه هو القطر الذى كان يدعى (مصر) لمّا دخله العرب الفاتحون ، فان رجال السياسة عند هؤلاء لم يكونوا فى مبدئهم وفى ميدانهم — أقل تفوقاً من رجالهم الحربيين . فسلكوا مع المصريين ، تارة ، المسلك الذى سلكه يوليانس الفيلسوف كما يدعوه التاريخ ، والجاحد ، كما يدعوه كارهوه ، مع النصارى لحملهم على ترك المسيحية والعودة الى الوثنية القديمة : وهو أنه ضايقهم فى مظهر حياتهم الأدبية ، فأغلق مدارسهم ، وأوصد دونهم أبواب الترقى لاسيما أبواب الدخول فى الوظائف العمومية ، وأبواب المدارس ، بحجة أن المسيح قال : « طوبى للفقراء فى الروح » ! أى ، فى عرفه « للجهلاء » ؛ وثقل عليهم الضرائب ، الى غير ذلك من الأمور التي تجعل الحياة سقيمة مكروهة ؛ وسلكوا معهم ، تارة أخرى ، مسلك الغلظة والعنف والاضطهاد .

فكانت النتيجة — اذا أضفنا الى ما تقدم ما يلاقيه اتباع الدين المسيحى ، فى تعاليمه وقوانينه من العسر فى وجه مبتغيات النفس ، لاسيما فى مسألة التخلص من زوجة كريهة — انه لم يمض قرنان على دخول العرب فى مصر الا وأضاع المصريون دينهم ولغتهم وجنسيتهم ، واندمجوا اندماجاً كلياً فى جسم الامة الفاتحة : فاصبحوا جزءاً منها أكثر التصاقاً بهيكلها من أجزائها الاصلية ، وحل منهم الاسلام وحلت منهم اللغة

والجنسية العربيتان محل الروح من الجسد . وهكذا تم لفتح عمرو بن العاص ما لم يتم في قديم الزمان للفتح الهكسوسى .

ومن جملة الأسباب الكبرى التى زادت فى سرعة حركة ذلك الاندماج الوحيد فى بابه ، كثرة تغيير الولاة ذوى المطامع الأشعبية ، من جهة ، ومن جهة أخرى ، رغبة المصريين المسيحيين الأصليين فى التخلص من مظالمهم الاقتصادية ، لما أعيتهم الوسائل الأخرى . فالولاة بلغ عددهم فى عهد الأمويين واحداً وثلاثين ، أى بنسبة وال كل ثلاث سنين ، تقريبا ؛ وبلغ عددهم ، فى عهد العباسيين ، حتى احمد بن طولون ، أربعة وسبعين أى بنسبة عامل كل سنة ونصف ، وبما أن كلاً من هؤلاء الامراء المتولين على مصر ، أو معظمهم ، كان أكبر همه أن يثرى فى أقل ما يمكن من الزمان ، لعلمه بأنه مهدد بالعزل فى كل حين ؛ وبما أنه لم يكن يمكنه أن يثرى بسرعة — في غير خوف من أن يطالبه أحد بالحساب على تلك الثروة — الا من أموال الذميين ، لتعلية مربوط الجزية عليهم ، فان كل واحد من أولئك الأمراء كان لا يألو جهداً فى استنباط طرق تبرر امتصاصه أموال الذميين . لان الأقدام على ابتزاز أموال المسلمين كان محفوفا بمخاطر جمة ، أقلها الثورات الداخلية ، بانتقاض أهل الديوان. لذلك لم يقدم على مضايقة المسلمين فى موارد أرزاقهم الا السادس والسبعون من ولاة الدولة العباسية ، واسمه الامير (احمد بن المدبر) : فانه حجز على الأطرون ، بعد ما كان مباحا للناس ؛ وقرر على الرعاة قدراً معلوماً على ما كانوا يرعونه من المراعى فى الفلاه ؛ وقرر كذلك على صيادي الأسماك ضريبة معلومة ؛ وأحدث اشياء كثيرة من هذا

القبيل ، نفر بها الأهالى من الحكم العباسى وجعلهم لا يبالون بخروج مصر من حوزته الى يدى احمد بن طولون.

وبما أنه لم يكن أمام الذميين من سبيل للتخلص من تلك المظالم الاقتصادية سوى الثورة على الفاتحين او الانضواء الى لواء دينهم ،

وبما أنهم جربوا الثورة مراراً فى عهد الأمويين وفى عهد العباسيين — كما سنذكر ذلك فيما يلى ، ولا سيما فى عهد المأمون ، أيام أن كان والياً على مصر (عيسى بن منصور المرافق) ، إذ قاموا قومة واحدة وامتنعوا عن وزن الخراج ، وطردوا العمال من البلاد ، وكادوا يعيدون مع الحكم العباسى شأن الامراء القبليين الأقدمين الذين أنجبوا الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية المجيدة مع الحكم الهكسوسى — ولكن ثوراتهم لم تجد فى نهاية أمرها نفعاً ، حتى الأخيرة منها : لأن المأمون قدم بنفسه الى وادى النيل ، وأخمد الفتنة فى دماء القائمين بها . فكانت آخر مجهود بذله أقباط مصر فى سبيل استرداد استقلال بلادهم القديم ، لذلك أخذت أقوامهم تقبل أفواجاً افواجاً على اعتناق الدين الاسلامى ، وعلى تعلم اللغة العربية .

وبلغ من اندفاعهم فى هذا السبيل الهين على نفوسهم المذلولة أن الأمير (بشر بن صفوان) ، عامل الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز على مصر ، استعظم تناقص أموال الخراج بسبب كثرة الفارين من النصرانية الى الاسلام ، وهالته عاقبته الاقتصادية ، فأراد أن يضع حداً

لدخول الذميين فى الاسلام ، وانبأ الخليفة بذلك ، ولـكن عمر زجره على عمله ، وأدبه بالسياط على رأسه .

فلا غرابة ، والحالة هـذه ، اذا كان المصريون قد أصبح أغلبهم مندمجاً اندماجاً تاماً فى جسم العالم الاسلامى ، لما انتزع احمد بن طولون زمام الحكم عليهم من أيدى العباسيين الضعفاء ، وقبض ، هو ، عليـه بيده القديرة سنة ٨٦٨ ميلادية .

الباب الثانى

كيف فتح العرب مصر

الفصل الأول

— ما يروى —

اختلف مؤرخو العرب فى سنة الفتح . فمنهم من وضعه فى السنة السادسة عشرة للهجرة ، ومنهم من وضعه فى السنة الثامنة عشرة . ومنهم من قال : بل كان فى السنة العشرين ؛ ووضعه غيرهم فى السنة الحادية والعشرين ؛ وابتعد آخرون بالتاريخ حتى وضعوه فى السنة السادسة والعشرين .

واختلفوا كذلك فى الحامل على الفتح ، فقال بعضهم : إن النبي (صلعم) وعد العرب به ، فأحبَّ خلفاؤه تحقيق نبوءته ، وقال آخرون: بل استدعى الأقباط العرب اليه ليخلصوا من ذل البيزنطيين .

وقال غيرهم ان عمرو بن العاص — لما كان شاباً أغاث راهباً فى برية ونجاه من الهلاك ؛ فأحب الراهب أن يكافئه ؛ فجاء به الى الاسكندرية حيث أغدق عليه ، هو ورؤساؤه ، عطايا سنية . وأنه بينما كان عمرو فى هذه المدينة حضر ، مع ذلك الراهب ، حفلة ألعاب عمومية كانوا يقذفون فيها بكرة ، ويعتقدون أن من وقعت تلك الكرة فى حجره تكتب له الأقدار أن يصبح ذات يوم حاكم المدينة . فاتفق أنها وقعت فى حجر عمرو وهو بلباسه البدوى ؛ فأجفلته ؛ فأضحك الأمر الحاضرين وحملهم على الاقلاع عن اعتقادهم لاستبعادهم أن يصبح

ذلك الجلف أميراً عليهم . وأن عمراً استفسر من الراهب عما يضحك القوم ، فأفاده ؛ فهز عمرو كتفيه استهزاءً منه ،هو أيضاً ، بذلك الفال .

ولكنه عاد فتذكره ، بعد ما انتشرت الدعوة الاسلامية في شبه الجزيرة العربية ، واستتبت فيها استتباباً حمل قبائلها على الخروج ، بقلوب متحدة ، الى فتوحات خارجية ، كان عمرو أحد كبار قوادها اليها .

فتولدت في قلبه الأماني البعيدة ، لا سيما بعد فتح فلسطين وبيت المقدس وعسكرت الجيوش العربية على حدود الصحراء التي تفصل القطر السوري عن القطر المصري . فأقبل يحبب أمر فتح هذا القطر الأخير الى الخليفة عمر بن الخطاب بجميع وسائل الاقناع ، فتارة يذكره بنبوءة النبي الخاصة بالفتح ، وطوراً يذكر له أن مصر ، على كونها أعجز أقاليم العالم عن القتال ، أكثر الأرض أموالا ؛ وأن فتحها — والحالة هذه — على ما فيه من السهولة ، يزيد قوة المسلمين ، ويأتيهم بعون عظيم ؛ حتى حمله على الرضاء به .

***

ثم اختلف ، أيضا ، المؤرخون في كيفية الاقدام على الفتح ، فقال بعضهم : كان عمرو في جنده على قيساريه ، مع من كان بها من اجناد المسلمين ، وعمر بن الخطاب اذ ذاك بالجابية ، فكاتبه عمرو سراً مستأذنا أن يسير الى مصر ، وأمر أصحابه ، فتنحوا كقوم يتنحون من منزل الى منزل قريب . ثم سار بهم ليلا . فلما فقده امراء الاجناد ، استنكروا الذى فعل وعدوه غدراً ، فعرفوا ذلك الى عمر بن الخطاب ، فكتب

عمر الى عمرو : « الى العاصى ابن العاصى : أما بعد فانك قد غرّرت بمن معك . فان أدركك كتابى ولم تدخل مصر ، فارجع ؛ وان أدركك وقد دخلت ، فامض ، واعلم أنى ممدّك ! »

وقال غيرهم : ان عمر بن الخطاب كتب الى عمرو بن العاص ، بعد ما فتح الشام ، « أن أندب الناس الى المسير معك الى مصر : فمن خفّ معك ، فسرْ به . » وبعث بالكتاب مع شريك بن عبدة . فندبهم عمرو ؛ فاسرعوا الى الخروج معه ثم ان عثمان بن عفان دخل على عمر بن الخطاب ، فقال عمر له : « كتبت الى عمرو بن العاص يسير الى مصر من الشام » . فقال عثمان : « يا أمير المؤمنين ان عمراً لجرىء ، وفيه اقدام وحب للأمارة ؛ فأخشى أن يخرج فى غير ثقة ولا جماعة ؛ فيعرّض المسلمين للهلكة ، رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا » . فندم عمر على كتابه الى عمرو وأشفق مما قال عثمان ، فكتب الى ابن العاص مرة أخرى وقال : « ان أدركك كتابى قبل أن تدخل الى مصر ، فارجع الى موضعك ؛ وان كنت دخلت فامض لوجهك ! »

وقال آخرون : ان عمر ، لما أقنعه عمرو بصوابية الفتح ، قال له : « سر ، وأنا مستخير الله فى مسيرك وسيأتيك كتابى سريعاً ، ان شاء الله تعالى . فان أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها ، فانصرف . وان أنت دخلتها قبل ان يأتيك كتابى فامض لوجهك ، واستعين بالله ، واستنصره ! » ، فسار عمرو من جوف الليل دون أن يشعر به أحد من الناس ؛ واستخار عمر الله : فكأنه تخوف على المسلمين فى وجههم ذلك : فكتب الى عمرو بن العاص

أن ينصرف بمن معه . فأدرك الكتاب عمراً اذ هو برفح . فتخوف ، اذا هو أخذ الكتاب وفتحه ، أن يجد فيه الانصراف فلم يأخذه من الرسول ، ودافعه ، وسار كما هو حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش. فسأل عنها ، فقيل انها من مصر . فدعا بالكتاب ، فقرأه على المسلمين، ثم قال لمن معه : « ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر ؟ » قالوا . « بلى » فأخبرهم بما دار بينه وبين أمير المؤمنين من الاتفاق قبل قيامه ؛ ثم قال لهم : « أنتم شهود على أن كتابه لم يلحقني إلا وقد دخلنا أرض مصر . فسيروا ، اذن ، بنا ، وامضوا على بركة الله ! »

ومن المؤرخين من قال أيضاً : ان عمراً كان بفلسطين فتقدم بأصحابه الى مصر بغير إذن فكتب فيه الى عمر . فكتب عمر ، وهو دون العريش فحبس عمرو الكتاب ، ولم يقرأه حتى بلغ العريش . فقرأه حينذاك واذا فيه : « من عمر بن الخطاب الى العاصي ابن العاصي، أما بعد فانك سرت الى مصر ومن معك وبها جموع الروم ، وانما معك نفر يسير ولعمرى لو نكل بك ما سرت بهم فان لم تكن قد بلغت مصر، فارجع » . فقال عمرو : « الحمد لله ! أية أرض هذه ؟ » . قالوا « من مصر » ، فتقدم ولم يبال . وهو كما هو .

* * *

وقد اختلف المؤرخون ، كذلك ، فى عدد الجيش العربى الذى سار الى فتح مصر . فمنهم من قال أنه كان مؤلفاً من أربعة آلاف رجل ، ما لبث أن انضمت اليهم القبائل البدوية التى مروا بها .

ومنهم من قال أنه كان مؤلفاً من ثمانية آلاف مقاتل ، غير من انضم اليه من تلك القبائل .

ومنهم ايضاً من قال : بل كان ذلك الجيش مؤلفاً من اثنى عشر ألف رجل ، خلاف من انضم اليه من القبائل البدوية الضاربة فى شبه جزيرة سيناء . غير أن الكل أجمعوا على أن الخليفة أمدّ عمراً فيما بعد. ولكنهم هنا ، أيضاً اختلفوا ، ، فى عدد رجال المدد ، وجعلوه يتراوح ما بين أربعة الآف واثنى عشر الفاً .

***

واختلفوا ، اخيراً فى كيفية الفتح ذاته .

فمع اتفاق الجميع على أن أول ما قاتل عمرو الروم ، فى الفرما — جهة بورت سعيد الحالية — وأنه تقدم منها الى القواصر ، فالى بلبيس ، حيث قاتل الروم ، مرة اخرى ، اختلفوا فيما يلى :

قال بعضهم ان عمراً سار من الفرما الى يساره ، فاجتاز الصحراء حتى بلغ أقصى نقطة شرق مصبات النيل السبعة ، ثم تقدم محاذيا النهر ، فمر ببوبسطى — وهى الزقازيق الحاليـة — وقصد منها مصر العليـا ، حيث كان المقوقس حاكما ، فقابلته فى سيره عدة فرق من الاعداء ، خرجت لتصد غزوته ، فدحرها كلها ، واستمر متقدما ، وهو يتباطأ ، حتى أدركته الأمداد المرسلة اليـه من الخليفـة ، وعلى رأسها الزبير بن العوام .

فزحف حينئذ بكل قوته زحفاً متواصلا حتى أشرف على السهل

المنتشرة فيه مسلات عين شمس وهيا كلها المتخربة ، بالقرب من مدينة (منف) العظيمة ، وهم بمباشرة القتال . ولـكن (الـكاثوليكس)، أى الأسقف ، توسط بينه وبين المقوقس بهدنة أربعة ايام ، لعل الفريقين يهتديان فيها الى صلح ، بدون سفك دماء .

فلما انقضت ، وهما لم يتفقا على شيء ، اشـتبك القتال بينهما . فاسفر عن انسحاب المصريين الى داخل اسوار مدينتهم ، حيث حاصرهم العرب حصارا كان فى وقت من الاوقات ، شديداً على المحاصرين بقدر اشتداده على المحـاصرين . لانه اتفق ان بعض الفرق اليمانيـة ولت مدبرة . فوبخها عمرو على جبنها . فقال أحد رجالها له : « إنما نحن بشر لا حديد ولا حجر ! » فزجره عمرو قائلا : « صـه . أيها الـكلب النابح ! » فقال الرجل غاضباً : « لئن كنا كلابا ، فهل أنت إذن الا أمير كلاب ؟ » فما اجاب عمرو بشيء ؛ ولـكنه استدعى فى الحال ، جحفلا من جنوده المجربين ، وقذف به على المصريين المشتدين . فما احتملوا صدمته ، وارتدوا على اعقابهم منهزمين .

على أن أفراد الجيش الوطنى المحارب ، بالرغم من قتالهم بشجاعة فى بادئ الامر ، لم يكونوا واثقين بالنصر ، وكانوا يقولون بعضهم لبعض : « كيف عسانا نقاوم رجالاً هزموا كسرى والقيصر ؟ » فلم تطل ، اذن ، مـدة الحصار ، لان المقوقس ما كاد يرى المدينة تهاجم هجوماً عاماً ، والزبير يتسلق أسوارها بشجاعة المستبسل ، والعرب

يوشكون أن يستولوا على حصونها ، إلا وأرسل وفداً الى عمرو يعرض عليه طلب التسليم .

فقبله عمرو واحتلّ المدينة بسلام ، على قاعدة الشروط التى أبرمت بينهما . غير أنه لم يطل المكث فيها ، وسار تواً الى الاسكندرية ليبلغها قبل أن تصل اليها الحاميات الرومية المنتشرة فى داخلية البلاد ، والتى استدعاها اليه رئيس الدفاع عن ذلك الثغر .

فدحر فى طريقه عدة فيالق عدوّة ، حاولت إيقاف سيره وبلغ فى آخر أمره ، أمام أسوار تلك المدينة العظمى التى كانت تستطيع المقاومة مدة طويلة ، وبعنف ، لضيق جبهتها المواجهة البر ، ولتمكن البلاط القسطنطينى ، من ارسال النجدات المتوالية اليها عن طريق البر المفتوح بينها وبين عاصمة الدولة البيزنطية .

ولكن هرقليس مات فى تلك الاثناء ، وتهاون خليفته فى إرسال تلك النجدات فى الوقت المناسب .

فاستولى عمرو عنوة على جميع الحصون الخارجية ، ولما طال الامد على المحاصرين ، ولم يروا قوة يونانية تأتيهم لتنجدهم ، سقطت نفوسهم وخارت ، لا سيما بعد ان التجأ الروم الموجودون فى المدينة المحاصرة الى المراكب ، وتركوا الدفاع عنها .

وكان المقوقس قد انسحب الى الاسكندرية بعد كسرته بعنف . فرأى أن يفاتح عمراً فى امر التسليم على قاعدة الشروط السابقة . فخابر عمرو الخليفة . فأجابه عمر : « للجزية أفضل من السلب ، لانها تدوم ، وأما السلب فلا يلبث ان يكون كانه لم يكن ! »

فسلمت ، على ذلك الاسكندرية ؛ ونجت من النهب ، مقابل رضاها بدفع الجزية التي رُبطت عليها

***

ونسج آخرون ، لاسيما المتأخرون ، نسيج روايات جميلة ، حول كيفية الفتح – والمتأخرون من مؤرخي العرب ورواتهم اشتهروا بنسج برد الروايات العجيبة بكثرة عجيبة – ؛ » فقالوا :

لما علم أسقف ، للقبط يقال له ابو ميامين ، كان بالاسكندرية ، بقدوم عمرو الى مصر ، كتب الى شعبه يعلمهم انه لايكون للروم دولة ، وان ملكهم قد انقطع ؛ ويأمرهم بتلقي الفاتحين بالترحيب .

فكان من ذلك الاقباط الذين كانوا بالفرما والقواصر كانوا لعمرو اعواناً ؛ وأن نفراً منهم في القواصر قال لبعض اصحابه : « الا تعجبون من هؤلاء القوم ؟ يقدمون على جميع الروم ، وإنما هم في قلة من الناس ! » فأجابه رجل منهم ، وكان مقتنعاً بما قاله ابو ميامين ، : « إن هؤلاء القوم لا يتوجهون الي احد الا ظهروا عليه ، حتى يقتلوا خيرهم » – اي علياً (١)

ولما فتح عمرو بلبيس ، بعد ان اقام حولها شهراً يقاتلها ، كانت فيها الاميرة ارمانوسة بنت المقوقس . فأحب عمرو ملاطفة ابيها . فاتخذ ما كان من (شيبيو) الروماني في مثل هذا الموقف قدوة ، لا ما كان من (خالد بن الوليد) مع ليلى ابنة امير (دومة الجندل) ؟

(١) — لا شك في أن راوي هذه الرواية كان رجلا من المتشيعين لعلي.

وسيرها الى ابيها مكرمة فى جميع مالها، على خلاف عادات العرب فى تلك الايام .

ثم مضى، لا يدافع الا بالأمر الخفيف، حتي مر بجانب الجبل المقطم، واشرف على حصن بابل او بابليون القائم على ضفة النيل الشرقية — مقابل الاهرام الهرمة . فقاتله الروم عنده قتالاً شديداً، وابطأ عليه الفتح . فاستمد عمر . فأمده، تباعاً، اربعة آلاف فأربعة آلاف فأربعة آلاف، عليهم الزبير والمقداد وابن الصامت وابن مخلد، وقيل ابن حذافة ؛ وكلٌ من هؤلاء الاربعة مقام الف رجل . وقال له عمر : اعلم أن معك اثنى عشر ألفا، ولا تغلب إثنا عشر الفاً من قلة ! —

وكان الروم قد خندقوا خندقاً، وجعلوا له أبواباً بنوا فى أفنيتها حسك الحديد — ولعلها الاسلاك الشائكة — . فجاء رجل الى عمرو، وقال له « أندب معي خيلا حتي آتى من ديارات القوم عند القتال » فأخرج عمرو معه خمسمائة فارس، عليهم ابن حذافة .

فساروا من وراء الجبل، حتي دخلوا مغار بني وائل، قبل الصبح، وكمنوا فيها (١) . فلما انبلج النهار برذ العدوان لبعضهما وتقاتلا . فخرج خارجة من وراء الروم، ودهمهم على غرة ؛ فانهزموا حتي دخلوا الحصن، وكانوا قد خندقوا حوله .

فنزل عمرو على الحصن وأحاط به، وقاتلهم قتالا شديداً يصبحهم ويمسيهم . وكان أمير الحصن يومئذ المندقور (كذا)، الذى يقال له الأعيرج، من قبل المقوقس بن قرقب — وكان المقوقس ينزل

---

(١) الرواية غير مفهومة، واسم (بنى وائل) وهو اسم عربى . مستغرب فى هذه النقطة

الاسكندرية ، وهو فى سلطان هرقل ، غير أنه كان حاضراً الحصار —

وألحّ عمرو على الحصن ، ووضع عليه المنجنيق . فطلب الأعيرج اليه أن يأتيه ، ليناظره فى شيء مما هم فيه . فدخل عمرو وناظره . فلم يتفقا ؛ ولكن عمراً تظاهر بالرضا . على أن يستشير أولا أصحابه ، وذلك لكي يتمكن من الخروج — ولست أدرى لماذا زج بنفسه فى ذلك الفخ وهو المشهور بدهائه — وكان المندقور أوصى الذى على باب الحصن ، اذا مر به عمرو وهو عائد الى أصحابه . أن يلقي عليه صخرة فيقتله .

فمرّ عمرو — وهو يريد الخروج — برجل من العرب . (ماذا جاء به هناك ؟) فقال الرجل له : « قد دخلت فانظر كيف تخرج ! » (ما الذى أعلم ذلك العربى بأمر المندقور ؟) فرجع عمرو الى صاحب الحصن ، وقال له : « أفضل أن آتيك هنا بأصحابي ، حتى يسمعوا منك الذى سمعت » . فقال العلج فى نفسه : قتل جماعة أحب إلىّ من قتل واحد ! » وأرسل الى الذى كان أمره بما أمره به من قتل عمرو أن لا يتعرض له ، رجاء أن يأتيه بأصحابه ، فيقتلهم جميعاً . فتمكن عمرو بذلك من الخروج سالماً .

وكان عبادة بن الصامت ، فى تلك الاثناء ، مختلياً فى ناحية يصلى ، وفرسه عنده . فرآه قوم من الروم فخرجوا اليه ، وعليهم حلية وبزة . فلما دنوا منه . سلم عبادة من صلاته ، ووثب على فرسه ، ثم حمل عليهم — وكان من الأربعة الذين كل واحد منهم بأربعة آلاف —

فلما رآه الروم — وكان أسود اللون ، ضخم الجثة ، وطوله عشرة

أشبار . انذعروا وولوا راجعين . فاتبعهم . فجعلوا يلقون مناطقهم ومتاعهم ، ليشغلوه بذلك عن طلبهم — كأنهم الروس الهاربون ، وهو زمرة الذئاب المطاردة ! (وما كان أغناهم عن الخروج اليه !) ؛ وهو — بخلاف الذئاب — لا يلتفت الى مايلقون ، حتى دخلوا الحصن ، وأخذ من فيه يرمون عليه الحجارة من فوقه . فرجع ، ولم يتعرض لشيء ، مما طرحوا من متاعهم ، حتى أتى الموضع الذى كان به . فاستقبل الصلاة . وخرج الروم الى متاعهم يجمعونه .

فلما أبطأ الفتح على عمرو ، قال الزبير بن العوام : « انى أهب الله نفسي وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين ! » كأنه (كورس) اللاتينى أو (دتشيس) الرومانى ! —

وهب من ساعته وتدجج بسلاحه ووضع سلماً الى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام أى من ناحية ما صار بعد ذلك ، فى الفسطاط وسوق الحمام — وصعد عليه ، وقد أمر قومه ، اذا سمعوا تكبيره ، أن يجيبوه جميعاً .

وكان ذلك فى السحر ، أول ما يمكن أن يتبين الخيط الابيض من الخيط الأسود !

فتسلق الزبير السلم بسكوت ، وما شعروا إلا وهو على رأس الحصن يكبر ، والسيف فى يده مشهر . فتحامل الناس على السلم حتى كادوا يكسرونه . فنهاهم عمرو ، وأمر باحضار غيره وغيره . فتسلق المسلمون عليها وهم يكبرون ويجيبهم فى التكبير من لم يتسلق .

فلم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموه جميعاً . وإنهم باتوا

له مالــكين ، فهربوا . فعمد الزبير وأصحابه الى باب الحصن ، ففتحوه . فتدفقت جموع العرب مقتحمه .

فخاف المقوقس ومن معه على أنفسهم ، وسألوا عمراً الصلح على أن يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون . فأجابه عمرو الي ذلك . وبذا تم فتح حصن بابليون ، بعد أن مكث العرب عليه سبعة شهور » .

***

وذهب مؤرخون آخرون ، أكثر ميلا الي التزويق والتنميق ؛ الي أن فتح ذلك الحصن كان على وجه آخر . فقالوا :

« لما حاصر المسلمون بابليون ، كان به جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤسائهم ، وعليهم المقوقس . فقاتلوهم شهراً . »

فلما رأى القوم الجد من العرب على فتحه ، والحرص ، ورأوا من صبرهم على القتال ورغبتهم فيه ، خافوا أن يظهروا عليهم . فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط ، وخرجوا من باب القصر القبلى ، ودونهم جماعة يقاتلون العرب . فلحقوا بالجزيرة — وهى جزيرة الروضة — وأمروا بقطع الجسر .

وتخلف الأعيرج فى الحصن . ولــكنه لما خاف — هو أيضاً — فتحه — وركب هو وأهل القوة والشرف سفنهم — وكانت ملصقة بالحصن — ولحقوا بالمقوقس فى الجزيرة . فتعقبهم العرب اليها : لأنه فاتهم أن يقطعوا الجسر الذى بين الحصن وبينها . فأخلاها القبط والروم ، وعبروا الي (منف) عاصمة ولايتهم ؛ ورفعوا الجسر الذى بينها وبين الجزيرة فأصبح النيل يحيط بالعرب من كل جانب .

فارسل المقوقس ، حينئذ ، الى عمرو كتابا يقول له فيه : « انكم قد ولجتم فى بلادنا والححتم على قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا . وأنما أنتم عصبة يسيرة . وقد أظلتكم الروم ، وجهزوا اليكم ، ومعهم من العدّة والسلاح ؛ وقد أحاط بكم هذا النيل ، وأنما أنتم أسارى فى أيدينا . فابعثوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم . فلعلّ أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم علي ما تحبون ونحب ، وتقطع عنا وعنكم القتال ، قبل أن تغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولا تقدر عليه . ولعلكم أن تندموا أن كان الأمر مخالفاً لطلبتكم ورجائكم . فابعثو الينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء .

فلماً أتت عمراً الرسل حبسهم عنده يومين وليلتين ، حتى خاف عليهم المقوقس ، وقال لأصحابه : « أترون انهم يقتلون الرسل ويستحلون ذلك فى دينهم ؟ » وأنما أراد عمرو بذلك أن يروا حال العرب فلما تيقن انهم امتلأوا بتلك الحال تأثراً ، ردهم الى صاحبهم وكتب اليه » « أنه ليس بيني وبينكم ألا أحدى ثلاث خصال . أما أن دخلتم فى الأسلام ، فكنتم أخواننا وكان لكم ما لنا . وأن أبيتم ، فاعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ؛ وأما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتي يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ! »

فلما جاءت رسل المقوقس اليه ، سألهم : « كيف رأيتم هؤلاء ؟ » قالوا : « رأينا قوما الموت أحبّ الى أحدهم من الحياة ، والتواضع من الرفعة . ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ؛ وأنما جلوسهم على

التراب وأكلهم على ركبهم ؛ وأميرهم كواحد منهم . لا يُعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد منهم من العبد . وأذا حضرت الصلاة لا يتخلف عنها منهم أحد ! »

فقال عند ذلك المقوقس : « والذي يحلف به ، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ؛ ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد . ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم ، وهم محصورون بهذا النيل ، لن يجيبوا بعد اليوم أذا أمكنتهم الأرض ، وقووا على الخروج من موضعهم » فاقتنع كبار القوم بوجوب المبادرة الى طلب الصلح . فكتب المقوقس الي عمرو : « أبعثوا الينا رسلا منكم نعاملهم ، ونتداعى نحن وهم الي ما عساه أن يكون فيه صلاح لنا ولكم ! »

فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر ، أحدهم عبادة بن الصامت ، وأمره أن يكون متكلم القوم ، ولا يجيبهم الى شيء دعوه اليه ألاّ أحدى هذه الخصال .

فركبوا السفن الي المقوقس ودخلوا عليه . فتقدم عبادة فى صدر أصحابه للكلام . فهابه المقوقس لسواده وعظم جثته ، وقال : نحوا عنى هذا الاسود وقدموا غيره يكلمنى ! » فأجابوا « انه أفضلنا رأيا وعلماً . وهو المقدم علينا . وأنما نرجع جميعاً الي قوله ورأيه ! » ولسنا ندرى من أين آتى عبادة بن الصامت العلم .

فقال المقوقس . « وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وأنما ينبغي أن يكون هو دونكم ؟

قالوا . لأنه أفضلنا موضعاً . وأفضلنا سابقة . وليس ينكر السواد فينا ! »[1]

فقال المقوقس لعبادة . (وكأن الطفل قد تغلب فيه على الرجل) تقدم ، يا أسود ، وكلمني برفق . فانى أهاب سوادك . وأن اشتد كلامك عليّ ازددت لك هيبة (كذا)

فتقدم عليه عبادة ، وأسمعه من المقال ما يذكّر قارئه بما قاله الوفد العربى فى بلاط كسرى قبل واقعة القادسية ؛ وقد ورد ، مفصلا فى (تاريخ مصر الحديث للعلامة المرحوم جورجى زيدان ج. ١ ص ٨١ ، نقلا عن المقريزى ج ٣ . ص ٢٩١ وغيره) ، مما يحمل على الظن بان رواية وقائع الفتوح الاسلامية قد تكون مفتعلة ، ولدتها مخيلة واحدة ، أو على الاعتقاد بأن الروح النافخ فى الصدور والمشكل للعقلية ، كان ، حقيقة واحداً فى ذلك العصر عند العرب أجمعين . والعقل أميل الي هذا الأعتقاد ، لا سيما وقد رأينا أن روحاً واحدة كانت تكيف عقلية فرنساوى الثورة الكبرى ما بين سنة ١٧٨٩ وسنة ١٨٠٠ وكلامهم .

ويزعم المؤرخون المتأخرون الذين نروى عنهم أن المقوقس ، لما سمع ذلك المقال من عبادة ، قال لمن حوله : « هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ؟ لقد هبت منظره ، وأن قوله لأهيب عندى من منظره . أن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض . ما أظن ملكهم ألا سيغلب علي الأرض كلها ! »

ثم أقبل على عبادة بن الصامت ، فقال : « أيها الرجل الصالح ،

---

(١) ألا يظن أن هذا وما يليه كتب تملقاً لكافور الأخشيدى ؟

قد سمعت مقالتك ، وما ذكرت عنك وعن أصحابك . ولعمري ما بلغتم ما بلغتم ألا بما ذكرت ؛ وما ظهرتم على من ظهرتم عليه ألا لحبهم الدنيا ورغبهم فيها . وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده . قوم معروفون بالنجدة والشدة . لا يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل . وأنا لنعلم انكم لن تقدروا عليهم ، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم . وقد أقمتم بين أظهرنا أشهراً ، وأنتم فى ضيق وشدة من معاشكم وحالكم به ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بين أيديكم . ونحن نطيّب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ، ولأميركم ماية دينار ؛ ولخليفتكم الف دينار . فتقبضونها وتنصرفون الي بلادكم ، قبل ان يغشاكم ما لا قوام لكم به ؛ » فاجابه عبادة بخطاب طويل تجد نصه في الموضعين السابق بيانهما من الكتابين الآنف ذكرهما ، يُخيّل الي قارئة أن روح أبطال (ايليازة) (هوميرس) ، أو أبطال (طيطس ليفيس) الروماني كان ينفخ فى صدر واضعه . فعرض على المقوقس فيه احدى خصلتي المصالحة المشهورتين وهما الاسلام أو الجزية عن يد صاغرة ، وختمه قائلا : « فان أبيتم ، فليس بيننا وبينكم الا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا ، او نصيب ما نريد منكم . هذا ديننا الذى ندين الله تعالي به ، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره فانظروا لأنفسكم ! »

وقائل هذا القول كان رسول جيش محصور فى جزيرة يحيط به النيل والهلاك من كل ناحية ! —

فقال المقوقس : «هذا ما لا يكون أبداً . ما تريدون الا أن تتخذونا

عبيداً ما كانت الدنيا ! »

فقال له عبادة — وكأنه يتكلم بلسان أيام المتوكل العباسي : « هو ذاك . فاختر لنفسك ما شئت ! : »

فقال المقوقس : « أفلا تجيبونا الي خصله غير هذه الثلاث خصال ؟ »

فرفع عبادة يدية الي السماء وقال : لا ، ورب هذه السماء ، ورب هذه الأرض ، ورب كل شيء ؛ ما لكم عندنا خصلة غيرها . فاختاروا لأنفسكم! » فالتفت أذ ذاك المقوقس الي أرباب مجلسه ، وقال : « لقد فرغ القوم . فما ترون ؟ »

فقالوا أو يرضى أحد بهذا الذل ؟ أما ما أرادوا من دخولنا فى دينهم ، فهذا لا يكون أبداً ، أن نترك دين المسيح وندخل فى دين غيره لا نعرفه . وأما ما أرادوا ان يسبونا ويجعلونا عبيداً ، فالموت أيسر من ذلك . ولو رضوا منا أن نضعّف لهم ما أعطيناهم مراراً كان أهون علينا . »

فقال المقوقس لعبادة : « قد أبى القوم ؛ فما ترى ؟ فراجع صاحبك على أن نعطيكم فى مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون ! »

فأبى عبادة وأبى اصحابه

فقال المقوقس : عند ذلك لرجال مجلسه ، . وكان ميالا فى سره الى الفاتحين ، أطيعونى ، وأجيبونى الى خصلة من هذه الثلاث . فوالله ! ما لكم بهم طاقة ولئن لم تجيبوا اليها طائعين لتجيبنهم الى ما هو أعظم كارهين .

فقالوا : « أفنكون لهم عبيداً أبداً ؟ »

قال : « نعم . تكونون عبيداً مسلطين فى بلادكم ، آمنين علي انفسكم واموالكم وذراريكم خير لكم من ان تموتوا عن آخركم وتكونوا عبيداً تباعون وتمزقون فى البلاد ، مستعبدين ابداً ، انتم واهلوكم وذراريكم ! »

قالوا : « بل الموت اهون علينا ! » وابوا .

فأقام المسلمون — حينئذ — جسراً على النهر ، وعبروا الى برّ منف ، المدينة العظيمة . والحوا على القوم بالقتال ، حتي قتلوا منهم خلقاً كثيراً وأنهكوهم .

فقال المقوقس لهم — إذ ذاك « ألم أعلمكم ، وأخافه عليكم ؟ ماذا تنتظرون ؟ فوالله لتجيبنهم الى ما أرادوا طوعا أو لتجيبنهم الى ما هو أعظم منه كرهاً . فأطيعونى من قبل أن تندموا . »

فلما رأوا منهم ما رأوا أذعنوا بالجزية ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يعرفونه .

فارسل المقوقس الى عمرو بن العاص : « انى لم أزل حريصاً على إجابتكم الى خصلة من تلك الخصال التى أرسلت الىّ بها . فاعطنى أمانا اجتمع بك أنا فى نفر من اصحابى وانت فى نفر من اصحابك . فان استقام الأمر بيننا تمّ ذلك جميعاً ؛ وان لم يتم رجعنا الى ما كنا عليه . »

فاستشار عمرو أصحابه فقالوا : « لا نجيبهم الى شىء ؛ حتي يفتح الله علينا وتصير الأرض كلها لنا فيئاً وغنيمة ، كما صار لنا القصر والجزيرة ! »

فقال عمرو : « قد علمتم ما عهد الىّ أمير المؤمنين فى عهده . فأن

أجابوا الى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد الىّ فيها ، أجبتهم اليها وقبلت منهم ! » فوافقوا .

فاجتمع عمرو والمقوقس ، واصطلحا على أن يفرض على جميع من بمصر ، أعلاها واسفلها ، من القبط دينارين . ليس علي الشيخ الفانى ، ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ، ولا على النساء شيء . وعلى أن للمسلمين عليهم النزل بجماعتهم حيث نزلوا . ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو اكثر من ذلك . كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام مفترضة عليهم . وأن لهم أرضهم وأموالهم لا تعرض لهم فى شيء منها »

فلما حاز المسلمون بابليون ومنف اجمع عمرو على المسير الى الاسكندرية . فبعث اليها هو على عين شمس عوف بن مالك . فنزل عليها وبعث يقول لأهلها : « أن شئتم ان تنزلوا فلكم الامان . »

وكان المقوقس قد سبق العرب اليها ليقنع الروم أهلها بتسليمها ، ويخبرهم من قبل عمرو .

فمن أحب منهم أن يقيم على مثل ما أقام عليه القبط ، أقام عليه لازماً له ، مفترضاً عليه . ومن أراد الخروج منها الى أرض الروم خرج . فأبى الروم الا القتال . فقاتلهم عوف وألحّ عليهم ثلاثة أشهر . فهادنه المقوقس على ان يستنظر رأى الملك .

ولما بلغ هرقل ما كان من امر صلح القبط ، كتب الى المقوقس يقبح رأيه ، ويعجزه ويرد عليه ما فعل ، قائلا . انما اتاك من العرب اثنا عشر الفاً ، وبمصر من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى . فان كان القبط كرهوا القتال ، واحبوا أداء الجزية الى العرب واختاروهم

علينا ، فان عندك بمصر (؟) من الروم وبالاسكندرية ومن معك اكثر من مائة الف ، معهم العدة والقوة ، والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت . فعجزت عن قتالهم ، ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم فى حال القبط ، أذلاء ؟ فقاتلهم انت ومن معك من الروم حتى تموت او تظهر عليهم ! فانهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم . وعلى قدر قلتهم وضعفهم كأكلة . ناهضهم القتال ، ولا يكن لك رأى غير ذلك ! »

وكتب ملك الروم بمثل هذا المعنى كتابا الى جماعة الروم ورؤسائهم

فقال المقوقس لما أتاه كتاب ملك الروم : « علم الله انهم ، على قلتهم وضعفهم ، أقوى وأشد منا على قوتنا وكثرتنا ! إن الرجل الواحد منهم ليعادل مائة رجل منا . وذلك لأنهم قوم الموت أحب الى أحدهم من الحياة . يقاتل الرجل منهم ، وهو مستقبل يتمنى أن لا يرجع الى أهله ولا بلده ولا ولده ، ويرون أن لهم أجراً عظيما فيمن قتلوه منا . ويقولون أنهم ان قتلوا دخلوا الجنة . وليس لهم رغبة فى الدنيا ولا لذة الا على قدر بُلغة عيش من الطعام واللباس . ونحن قوم نكره الموت ونحب الحياة ولذتها . فكيف نستقيم نحن وهؤلاء ؟ وكيف صبرنا معهم ! (١)

اعلموا — معشر الروم — والله إنى لا أخرج مما دخلت فيه وصالحت العرب عليه . وانى لأعلم انكم سترجعون غداً الى قولى ورأيى ، وتتمنون ان لو كنتم أطعتمونى . فأنى قد عاينت ورأيت

(١) قد يكون هذا كلام المؤرخين أكثر منه كلام المقوقس .

وعرفت ما لم يعاين الملك ولم يره ولم يعرفه ! »

(يظهر من أقوال هؤلاء المؤرخين ان هرقليس كان قد نسى أجنادين واليرموك وباقى وقائع سوريا ؛ وأن المقوقس لم يكن يحيط علماً بشيء من حروب الروم والعرب فى سوريا وفلسطين أو من هرب هرقليس امام موجة الفتح المتدفقة . مودعا تلك البلاد وداعاً أبديا) « أما يرضى أحدكم أن يكون آمناً فى دهره على نفسه وماله وولده بدينارين فى السنة ؟ »

فلم يسمع الروم له مقالا : وأصروا على الدفاع عن الاسكندرية ؛ وقدمت عليهم المراكب من القسطنطينية ، فيها جمع عظيم من الجند بالعدة والسلاح .

فخرج المقوقس من المدينة وسار الي عمرو ، وقال : « لا تبذل للروم ما بذلت لى . فأنى قد نصحت لهم : فاستغشونى ؛ ولا تنقض القبط فأن النقض لم يأت من قبلهم ! »

فطيب عمرو خاطره ، وطلب اليه ان يحمل القبط على معونته فى حملته على الاسكندرية . ثم خرج بالمسلمين حين أمكنهم الخروج . ورافقه جماعة من رؤساء القبط ليحملوا قومهم على أن يصلحوا له الطرق ، ويقيموا الجسور والاسواق ، ويعينوه على ما أراد من قتال الروم .

فما زال عمرو سائراً لا يرى عدواً حتي بلغ مريوط . فلقى فيها طائفة من الروم . فقاتلهم قتالا خفيفاً : فهزمهم الله . ومضى عمرو بمن معه ، حتى لقى جمع الروم بكوم شريك . فاقتتلوا ثلاثة أيام ؛ ثم فتح

الله على المسلمين ، وولى الروم اكتافهم .

وقال بعض المؤرخين : بل أرسل عمرو بن العاص (شريك بن سمىّ) فى آثارهم فأدركهم عند الكوم الذى سمى فيما بعد باسمه فقيل له (كوم شريك) ؛ فهزمهم ؛ وقال غيرهم : « بل كان (شريك) على مقدمة عمرو ، وعمرو بمريوط . فألجأه الروم الى الكوم ؛ فاعتصم به ، فاجتمع حوله الاعداء من كل جانب . فارسل (شريك)أبا ناعمة مالك بن ناعمة صاحب الفرس الأشقر الذى لم يكن ليجارى الى عمرو يعلمه بالضيق الذى هو فيه . فانحط ابو ناعمة من الكوم على الروم . فطلبوه . فلم يدركوه فأتى عمراً وأخبره بما كان من أمر شريك . فأسرع عمرو الي نجدته بفرقة من جيشه ؛ فسمع الروم بمقدمه : فخافوا وانصرفوا .

ثم التقى الفريقان بسلطيس ، واقتتلا قتالا شديداً . فهزم الله الروم. ثم التقوا بالكريون . فاقتتلوا بها بضعة عشر يوماً . وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة ؛ وكان حامل اللواء ، يومئذ ، وردان مولى عمرو . فأصابت عبد الله بن عمرو جراحات كثيرة . فقال لحامل اللواء : « ياوردان ، لو تقهقرت قليلا نصيب الروح ! » فقال وردان : «الروح تريد ؟ الروح أمامك وليس خلفك ! » فتقدم عبد الله . فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه ؛ فقال :

أقول لها اذا جشأت وجاشت * رويدك تحمدى أو تستريحى

فرجع الرسول الى عمرو وأخبره بما قال ابنه . فقال عمرو : « هو ابنى حقاً ! »

ثم صلى بالمسلمين صلاة الخوف . ففتح الله لهم ؛ وقتلوا من الروم

مقتلة عظيمة . واتبعوهم حتى بلغوا الاسكندرية . فتحصن بها الروم ، وكان عليها حصون متينة لاترام ؛ حصن دون حصن ؛ .

فنزل المسلمون ، ومعهم رؤساء الأقباط يمدونهم بما يحتاجون اليه من الأطعمة والعلوفة . فأقاموا شهرين ، يقاتلون من فى المدينة ومن يأتيها من ناحية البحيرة ، مستتراً بالحصون . والمراكب فى هذه المدة تختلف الى الاسكندرية بمادة الروم ؛ وهرقل يعبئ ويجهز للخروج اليها ، ليباشر القتال بنفسه ، ويقول : « لئن ظهرت العرب على الاسكندرية ، ففى ذلك انقطاع الروم وهلاكهم ، لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الاسكندرية » (كذا) أو : «لئن غلبونا على الاسكندرية هلكت الروم وانقطع ملكها ! »

فلما فرغ من جهازه ، صرعه الله عز وجل ، فأماته وكفى المسلمين مؤنته ، وكسر بموته شوكة الروم . فرجع جمع كثير مما كان قد توجه ، واستأسدت العرب عند ذلك وألحت بالقتال على أهل الاسكندرية . فقاتلوهم قتالا شديداً .

وخرج طرف من الروم من باب حصن الاسكندرية ، وحملوا على العرب . فقتلوا رجلا من مهرة — وهى قبيلة بدوية من حدود مصر — واحتزوا رأسه ومضوا به . فجعل المهريون يتغضبون ويقولون: « لاندفنه إلا برأسه ! » فقال عمرو: « تتغضبون كأنكم تتغضبون علي من يبالى بغضبكم ! واحملوا على القوم اذا خرجوا مرة أخرى : فاقتلوا منهم رجلا ، ثم ارموا برأسه يرموكم برأس صاحبكم ! »

فما لبث الروم أن خرجوا اليهم وقاتلوهم . فقتل من الروم رجل

من بطريقيهم . فاحتز المهريون رأسه ورموا به أصحابه . فرمت الروم برأس المهرىّ اليهم .

فقال عمرو : « دونكم الآن ، فادفنوا صاحبكم ! »

ولما استمر القتال، بارز رجل من الروم (مسلمة بن مخلد) — وكان ممن يعدون بمقام ألف رجل — فصرعه الرومى ، وألقاه عن فرسه ، وهوى اليه ليقتله ، فحماه رجل من أصحابه .

ويقول هنا المؤرخ الذى ننقل كلامه : « وكان مسلمة لايقاوم ، ولكنها مقادير ! » ففرحت بذلك الروم ، وشق على المسلمين — وكان مسلمة كثير اللحم ، ثقيل البدن — فقال عمرو بن العاص غاضبا : « ما بال الرجل الذى باسته يشبه النساء يتعرض مداخل الرجال ويتشبه بهم ؟ »

فأغضب كلامه مسلمة ، ولكنه لم يراجعه ، وأقام يتربص فرصة يغسل فيها مالحقه من العار . فلم تبعدها الأقدار عنه ، فان القتال مالبث أن اشتد بين الفريقين ، واقتحم العرب حصن الاسكندرية الأكبر ، ودخلوه ، وقاتلوا الروم فيه . ولكن الروم عادوا فجاشوا عليهم ، وأخرجوهم جميعا من الحصن الا أربعة نفر تفرقوا فيه ، أحدهم عمرو ابن العاص والآخر مسلمة ، ولم نحفظ اسمى الآخرين . فأغلق الروم عليهم الباب ، وحالوا بينهم وبين أصحابهم ، وهم لايدرون من هم . فلما رأى ذلك عمرو بن العاص وأصحابه التجأوا الى ديماس من حماماتهم ، فدخلوا فيه واحترزوا به .

فتقدم اليهم رومى يتكلم بالعربية بأمر كبير الحصن ، وقال لهم :

« انكم قد صرتم بأيدينا أسارى . فاستأسروا ولا تقتلوا أنفسكم ! » فامتنعوا عليه . فقال لهم : « ان في أيدى أصحابكم منا رجالا أسروهم ؛ ونحن نعطيكم العهود أن نفادى بكم أصحابنا ولا نقتلكم ! » فأبوا عليه أيضا .

فلما رأى الرومى ذلك منهم ، قال لهم : « هل لكم الى خصلة وهى : نصف : فان غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وأمكنتمونا من أنفسكم ؛ وان غلب صاحبكم صاحبنا ، خلينا سبيلكم الى أصحابكم ! »

فرضوا بذلك وتعاهدوا عليه .

فتداعوا الى البراز . فبرز رجل من الروم وثق أصحابه بنجدته وشدته ، وأراد عمرو أن يبرز له . فمنعه مسلمة وقال : « ماهذا ؟ أتخطئ مرتين ؟ تشذ من أصحابك وأنت أمير ، وانما قوامهم بك ، وقلوبهم معلقة نحوك ، لا يدرون ما أمرك ؛ ولا ترضى حتى تبارز وتتعرض للقتل ! فان قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك . مكانك ! وانا أكفيك ان شاء الله تعالى ! »

فقال عمرو : « دونك ! فربما فرجها الله بك ! »

فبرز مسلمة للرومى . فتجاولا ساعة ؛ ثم أعانه الله عليه ، فقتله . فكبر مسلمة وأصحابه ، ووفى لهم الروم بما عاهدوهم عليه : ففتحوا لهم باب الحصن . فخرجوا ؛ والروم لا يدرون أن أمير القوم فيهم ، حتى بلغهم بعد ذلك ، فأسفوا على مافرط منهم ، وأكلوا أيديهم تغيظا .

فلما خرج أولئك الأربعة استحيى عمرو مما كان قال لمسلمة حين غضب . فأتاه وقال له : « استغفر لى ما كنت قلت لك ! » فاستغفر

له . وقال عمرو : « ماأفحشت قط الا ثلاث مرار : مرتين فى الجاهلية ، وهذه الثالثة . وما منهن مرة الا وقد ندمت ؛ وما استحييت من واحدة منهن أشد مما استحييت مما قلت لك ووالله ! انى لأرجو أن لا أعود الى الرابعة ما بقيت ! »

***

غير أن هذه الرواية ، التي أوردناها عن لسان بعض المؤرخين عما وقع لعمرو فى حصن الاسكندرية الأكبر ، لم ترق — وبحق — فى نظر مؤرخين آخرين . فخالفوا سابقيهم فى التفاصيل وقالوا :

لما طال الحصار ، رغم الوسائل التى اتخذها العرب ، ضجر عمرو . فجمع اليه رجاله وخطب فيهم . فهاجموا الأسوار وهو فى مقدمتهم ؛ فخرقوها ؛ ودخل عمرو واثنان من قواده — هما مسلمة بن مخلد ، ووردان — الا أنهم لم يكادوا يطأونها حتى أقفلت الأسوار وراءهم ، وألقى القبض عليهم ، وأحضروا أمام البطريق ، حاكم المدينة .

فخاطبهم قائلا : « هو ذا أنتم أسرى فى أيدينا . فاخبرونا ما الذى جاء بكم الينا ، وما الذى حملكم على قتالنا ؟ »

فأجابه عمرو بقلب لا يهاب الموت : « قد أتيناكم ندعوكم الى الاسلام ، فيكون لكم ما لنا ؛ أو تؤدون الجزية عن يد وأنتم صاغرون ؛ والا فاننا نقاتلكم الى أن تفىء لأمر الله ! »

فبهت الحاكم وداخله الريب . فقال لمن فى مجلسه من الروم باللغة اليونانية : « يظهر أن هذا الرجل من وجوه العرب ؛ ولعله أمير القوم ، فينبغى أن نضرب عنقه ! » . وكان وردان عارفا باللغة اليونانية ، ففهم

ما قال البطريق . ولكي يطلع عمرا على ذلك ، لكمه مستهزئا وناداه منتهرا : « مالك ولهذا القول ، وأنت أدنى من فى الجماعة وأقل ؟ فاترك غيرك يتكلم ! »

فاختلف ظن البطريق ، وقال : « لو كان هذا أمير القوم ما كان يفعل به هكذا » فقال مسلمة : « ان أميرنا كان عازما على الانصراف عنكم ، وأراد أن يسيرّ من أكابر القوم من يتفق معكم على شيء تتراضون عليه . فان أطلقتمونا مضينا وعرفناه ما صنعتم بنا من الجميل ويتفق الأمر بينكم ، وننصرف عنكم ! »

فتوهم البطريق أن الامر كذلك ، وأطلقهم . فلما خرجوا قال مسلمة لعمرو : «قد خلصتك كلمة وردان ! » فوصلوا الى المعسكر وهم على نية تشديد الحصار الى أن يقضى الله بما يشاء .

غير أنهم بالرغم من كل تشديد أقاموا عدة شهور وهم لا ينالون من المدينة وطرا .

فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب — الخليفة العظيم — قال : ما « ابطأوا بالفتح ألا لما أحدثوا » وكتب الى قائده أمام أسوار الاسكندرية : « أما بعد ، فقد عجبت لابطائكم عن فتح مصر . انكم تقاتلونهم منذ سنين (؟) وما ذاك الا لما أحدثتم ، (ماذا ياترى كانوا أحدثوا ؟) وأحببتم من الدنيا ما أحب منها عدوكم . فان الله تبارك وتعالى لاينصر قوما الا بصدق نياتهم . فاذا أتاك كتابى هذا فاخطب الناس وحضهم على القتال ، ورغبهم فى الصبر والنية ؛ وقدّم فى صدورهم أولئك الأربعة الذين اعلمتك عنهم أن الرجل منهم مقاوم الف رجل ، على ما كنت أعرف ،

الا أن يكون غيرهم ما غيرّ غيرهم . وُمر الناس جميعا أن يكونوا لهم صدمة واحدة كصدمة رجل واحد . وليكن ذلك عند زوال يوم جمعة : فانها ساعة تنزّل الرحمة ووقت الاجابة . وليعجّ الناس الى الله ، ويسألوه النصر على عدوهم ! »

وهـذا كلام رئيس دين أكثر منه رئيس دنيا وقائد جيوش فى ساحات الوغى ! — فلما أتى هذا الكتاب عمرو بن العاص ، جمع جنوده ، وتلاه عليهم . فأثر فيهم تأثيرا بليغا .

ثم دعا عمرو أولئك النفر الذين كلمه عنهم الخليفة . فأتوه وهم راكبون على جيادهم . فلما دنوا منه أرادوا الترجل . فقال لهم عمرو : « عزمت عليكم ان نزلتم ليناولنى كل منكم سنان رمحه ! » ففعلوا . فعقد عمرو لكل منهم وقدمهم أمام الناس . ثم أمر الناس أن يتطهروا ، ويصلوا ركعتين ، ويرغبوا الى الله تعالى ، ويسألوه النصر . ففعلوا — كأنهم اسرائيليو يشوع بن نون حول أسوار أريحا !

ففتح الله عليهم . وسقطت الاسكندرية على أيدى أولئك الأربعة .

فدخلها عمرو منصورا يوم الجمعة ، غرة المحرم سنة ٢٠ هـ ، وهرب الروم فى البر والبحر .

فخلف عمرو فى المدينة ألف رجل من أصحابه ، ومضى بمن تبقى فى طلب من هرب من الروم فى البر ، فرجع هؤلاء — بحرا — الى الاسكندرية ، وقتلوا من كان فيها من المسلمين الا من هرب منهم .

فبلغ ذلك عمرا . فكرّ راجعا ، وفتح المدينة فتحا ثانيا كان سببه ، على مايقال ، أن رجلا يدعى (ابن بسامة) ، وكان بوابا على أحد أبوابها ،

سأل عمرا أن يؤمنه على نفسه وأرضه وأهل بيته، ويفتح له الباب . فأجابه عمرو الى ذلك .

ففتح ابن بسامة الباب . فدخل عمرو ، وأمعن فيمن لم ينجُ بنفسه من الروم قتلا .

وما أشبه حكاية ابن بسامة هذا بحكاية تربيئا التى فتحت أبواب روما للصابينيين ، لولا أن تلك الفتاة فعلت ما فعلت طمعا فى أساور الصابينيين ، فأصابت حتفا ، وأن ابن بسامه طمع فيما يطمع فيه كل انسان ضعيف القلب فى ساعة الخطر ، فنجا وعاش .

وكان عدة من بالاسكندرية من الروم مائتى الف رجل . فلحق أهل القوة منهم بأرضهم على ظهور السفن . وكان فى مينائها مائة مركب من المراكب الكبيرة . فحمّل فيها ثلاثون الفا ما قدروا عليه من المال والمتاع والأهل . وبقى من بقى من الأسرى . وقُتل من المسلمين ، من حين أن كان من أمر الاسكندرية ما كان الى أن فتحت اثنان ، وعشرون رجلا (كذا) .

الفصل الثاني

ما ربما كان الواقع

تلك هى روايات المؤرخين المتقدمين والمتأخرين من العرب عن فتح مصر . ولم يخف ، طبعا ، على فطنة القارىء اللبيب ، الذى طالعها ، أن معظمها الى الخرافة أقرب منه الى حقيقة التاريخ ، وأن القصد الذى رمى اليه واضعوها انما هو احاطة ذلك الفتح بهالة من الشعر تزيد مجد الفاتحين سنا فى الوقت عينه الذى تزداد معها فيه وضاعة نفوس اصحاب البلاد المفتوحة وحقارتها .

وبما أن قلوب البشر أكثر ميلا الى خرافية الشعر منها الى حقائق التاريخ ، التى كثيرا ما تكون جافة جدباء ، فما من مسلم مطلع على تاريخ الصدر الاسلامى الا وهو يعتقد أن كل ما أوردناه من الأحاديث عن الفتح سمين لا غث فيه . وقد يميل ذات غير المسلم ، للسبب عينه ، الى اعتقاد ذلك الاعتقاد أيضا .

وفى الواقع ، أى مسلم لا ينشرح صدره الى أن الفتح كان تنفيذا لنبوءة صدرت عن نبيه فى أيام حياته المباركة الأخيرة ؟

أية مخيلة لا تنشرح الى الغرابة التي تحف بقدم عمرو بن العاص الى مصر مع الراهب اليونانى الذى أنقذ ذلك البدوى حياته فى الصحراء وبما وقع له فى ملعب الاسكندرية العمومى ؟

أي قارىء لا يرتاح الى الشعر المنثور بكاتا الراحتين ، حول مسير عمرو بن العاص الى ذلك الفتح سرا ، تحت أجنحة الليل ، وحول ما دار بين عثمان وعمر من المحادثة الخطيرة ؛ وحول اقدام عمر على استخارة الله في التصريح لعمرو بالمسير من عدمه ؛ وحول ما دار بين عمر وعمرو من المكاتبات ؛ وأخيرا حول تباطؤ عمرو فى قراءة كتاب أميره ، حتى تأكد من أنه أصبح فى أرض مصر ؟

وأى مسلم لا يتهلل وجهه اذ يقرأ أن الفاتحين لم يزيدوا ، فى بادىء أمرهم ، على الأربعة آلاف ؛ ولم يزيدوا ، فى آخر أمرهم على الاثنى عشر ألفا ؟ وأن الأقباط أسقطوا فى أيديهم لدى تصورهم اقدامهم على مقاومة من هزموا (كسرى) و (قيصر) ؟ وأن أباميامين ، أسقف الأقباط الاسكندرى قال ما قال فى انقطاع ملك الروم ؟ وأن أحد الأقباط قال ما قال في ظهور العرب على كل من توجهوا اليه ؟

وأية مخيلة لا ترتاح الى ما روى عن وقوع أرمانوسة المصرية بنت عظيم قبط مصر فى أيدى عمرو بن العاص ، واطلاق عمرو سراحها ، وارساله اياها مكرمة الى أبيها ؟

وأى فؤاد لا يهتز طربا لدى قراءة أن كلا من الأربعة الذين أرسلهم عمر الى عمرو على رأس المدد الذى بعث به اليه ، يُقوَّم بألف رجل ، وأحد أولئك الأربعة الزبير بن العوام ابن عمة النبى وأحد كبار أبطال غزواته ؟

ولكن من لا يبتسم ، أيضا ، اذ يسمع عمر يقول لعمرو ان اثنى عشر ألفا لا تغلب من قلة ، وعمر أدرى الناس بما احتاج العرب اليه من

عدد فى واقعة اليرموك للتغلب على الروم ؟

ومن لا يبتسم اذ يقرأ كيف نجّى عمرو نفسه من مكيدة الأعيرج ؟ أية مخيلة لا تُحضر أمام ذاتها صور أبطال هوميرس فى تقاتلهم ، تحت أسوار أيليون ، لدى قراءة ماوقع لعبادة بن الصامت مع ذوى الحلية والبزّة من الروم ؛ وكيف أنه ، بعد أن هزمهم ، رجع الى صلاته التى كان انقطع منها ؟

ومن لا يهتز لتكبير الزبير فى السحر على رأس الحصن المقتحم ، ولتدفق العرب على السلالم ، شاهرين سيوفهم ، ومكبرين ، هم أيضا ، تكبير النصر ؟

وكيف لا يرتاح المرء الى مادار بين المقوقس وعمرو من المخابرات التي تتجلى فيها بأكمل المعانى مزايا رجولة مسلمى الصدر الأول وتقشفهم وزهدهم وشجاعتهم الفائقة ، ويتجلى فيها ارتعاد فرائص أعدائهم منهم ، واعجابهم ، المالئ عليهم مشاعرهم ، منهم ؟

ولكن كيف لا يرى القارئ الفطن أن الغرض من تقديم عبادة ابن الصامت على رجال وفده العشرة انما هو تعظيم الاسلام — وبحق — الذى جعل الفضل معترفا به بدون التفات الى لون البشرة ، وجعل السواد لا يستنكرُ فى المسلمين — وفى ذلك من المبادئ الأدبية والانسانية ما فيه ؟

وكيف لا يبتسم القارئ عند ما يسمع المقوقس يقول لعبادة : « كلمنى برفق ، يا أسود ، فانى أهاب سوادك الخ » ؟ أو كيف لا يرى فى ما تبودل بين الرجلين من كلام أن راويه انما قصد منه ، بترديده

أقوال رجال الوفد العربى لكبار بلاط كسرى ، أن يقدم للعصور التالية ، صورة جديدة من الأخلاق المروى وجودها فى العرب ، الذين هبوا — بعد ما اعتنقوا الاسلام — الى الغزو والفتح ، جهادا فى سبيل الله ؟

وكيف لا يرى أن المؤرخ انما جعل النيل يحف بالعرب من كل جانب ، فى جزيرة الروضة ، ليزيد فى حرج مركزهم ، فيظهر بكيفية أجلى قوة تلك الأخلاق ومقدار ثباتهم عليها ، بالرغم من اشتداد الشدائد حولهم ، فيزيد فى اعجاب قارئها بهم ؟

والا فان العرب ، بعد استيلائهم على حصن بابليون وتعقبهم أعدائهم الى جزيرة الروضة انما مروا ، الى هذه الجزيرة ، على الجسر الذى كان بينها وبين الحصن ، ولا يعقل أنهم قطعوه بعد ذلك ، أو أن المصريين والروم دمروه بأن قذفوه بقوارب أو مراكب مملوءة ترابا وحجارة ، كما فعل الأرشيدوق شارل بالجسر الذى أقامه نابوليون الأول سنة ١٨٠٩ بين جزيرة (لوبُو) وشاطئ نهر (الطونة) الأيسر ابان واقعة (اسلنج) . لأنه لو فعل المصريون والروم ذلك ، لاضطررنا الى الاعتراف بان حالتهم النفسية والمعنوية كانت عكس الحالة التى يريد المؤرخ أن نعتقدها فيهم .

ولا يسع القارئ المفكر تصديق وقوع عمرو وأصحابه فى الأسر ، عقب هجوم العرب على حصن الاسكندرية الأكبر ، الا بكل صعوبة — مع امكان حدوث مثل هذا الأمر — ولكنه لن يسعه ،

مطلقا ، تصديق شيء من تفاصيل رواية خلاصه الأولى ، ولا تصديق رواية خلاصه الثانية ، الا بكل تحفظ .

وماذا يقول هذا القارئ في قلة عدد من قُتل من المسلمين في فتح الاسكندرية ، وهو الذى ما فتئ يسخر بما كان يُردَّد من الأقوال المماثلة في تقارير الأعداء المتحاربين الرسمية ، من أيام عُرابى الى آخر الحرب العالمية الكبرى ؟

***

فما كان — والحالة هذه — الواقع ؟ وكيف تم — في الحقيقة — فتح مصر ؟ لا ريب في أن تاريخ عموم الفتوح العربية لا يزال تحريره بكيفية يرتاح العقل اليها أمرا لازما : لأن كل ما بلغنا عنها من مؤرخى العرب مفتقر الى من والى ما يضمنان صحته . وذلك لأن أول من كتب عنها كان عائشا بعد وقوعها بثمانين سنة على الأقل ، ولأن من كتب عنها بعده تعمّد ادخال الغريب والعجيب في روايته أكثر مما تعمد استقصاء الحقائق ، مدفوعا الى عمله هذا بعامل لا يصح أن يغيب عن عقلية أحد ، لا سيما عن عقلية من يعلم حقيقة ما قاله (شاتوبريان) الكاتب الفرنسي العظيم في نابوليون الأول ، وهو : « رجل ملأ العالم بطنطنة اسمه . أما حظّه فزال ، وأما مجده فباق . ومع أن هذا الرجل هو عُنق بن عون العظمة البشرية ، فانه يزداد عظمة ويكبر في نظر الناس كلما بعدت الأيام بقرنه عنهم ! »

ولئن كان هذا الكلام حقيقيا في نابوليون الأول ، وهو ابن القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، اذ كانت عيون الأخبار دافقة

بغزارة ، ودافقة عند معظم الأمم لأوروبية وغيرها ، فكم يجب أن يكون حقيقيا فى رجال القرن السابع وحوادثه ، وعيون الأخبار فيه معدومة الا ما داولته الألسنة منه ؟ والكل يعلم مقدار الصدق الموجود فيما تتداوله الألسنة ، لا سيما حينما تكون القلوب مضطربة بعوامل الانفعالات والأهواء المختلفة .

وقد أخذ المؤرخون الغربيون ، وفى مقدمتهم البرنس (لئون كائتانى) صاحب « سنويات الاسلام » يميطون اللثام عما قد يمكن أن تكون الحقائق فى تاريخ تلك الفتوح . وقد تؤدى مجهوداتهم فى القريب الآجل الى ايقاف القراء على تفاصيل من الأخبار والوقائع لا تزال سرا مكتوما بين طيات الكتب القديمة من عربية ويونانية ، أو فى دقائق كنوزها المبعثرة بين سطور صفحاتها وتراب سخفها المتراكم .

***

ففتح مصر ، اذا جرد من الخيالات التى نسجت بردها حوله ، يمكن أن يكون قد تم بالكيفية الآتية :

لما بلغت الجحافل العربية ، منصورة ، حدود فلسطين من جهة الصحراء التى تفصلها عن مصر ، جاشت فى صدور القابضين على أزمتها المطامع فى اختراق تلك الصحراء والنفوذ منها الى أرض الفراعنة التى كثر عنها الكلام فى الكتاب المجيد وحسن وصفها لأن النصر — لا سيما اذا تتابعت حلقاته باتصال ، وكانت الأسباب الداعية اليه واحدة — من شأنه أن يوسع دائرة الأمانى ، ويقوى العزائم ويضاعف المجهودات لادراكها .

ولكن بقاء قيصرية فى أيدى الروم ، من جهة ، ووقوع جملة حوادث وكوارث بتتابع من جهة أخرى ، حالا دون ازدهار تلك المطامع ، وأخراه الى حين .

ففى سنة ٦٣٨ م — وهى التالية للسنة التى استتبت سلطة العرب فيها على أرض فلسطين ، بعد تسليم بيت المقدس وزيارة عمر بن الخطاب له ، بدا من الدولة البيزنطية مجهود كبير لاسترداد سوريا الشمالية وانتزاع النير العربى عنها .

فسارت عمارة عظيمة من الاسكندرية الى انطاكية . وما كادت تظهر القوات الرومية أمام مرفأ هذه المدينة السورية العظمى الا وفتحت لها أبوابها ، وسلمت تسليما .

فلما انتشر خبر ذلك فى قنسرين وحلب وباقى مدن الشمال المهمة ، شبت فيها نيران ثورة خطيرة على الحكم العربى الحديث . فاستدعى أبو عبيدة بن الجراح — قائد عموم القوات الاسلامية فى سوريا — جميع الحاميات المنتشرة فى القلاع والحصون السورية الجنوبية . واذ رآها غير كافية ، بعث رسلا الى الخليفة فى (المدينة) يطلب منه نجدة على جناح السرعة .

فأمر عمر سعد بن أبى وقاص — قائد القوات العربية فى العراقين — العجمى والعربى — بأن يبعث حالا قوة خطيرة الى نجدة أبى عبيدة تحت قيادة (القعقاع) بطل (القادسية) .

ولكن بدوى سوريا انضموا فى تلك الاثناء الى القوات الرومية المهاجمة — وربما كان السبب فى انضمامهم اليها ما كان من فرار (جبلة

بن الأيهم) الغسانى من وجه عدل عمر بن الخطاب عقب ما وقع لذلك الملك مع الأعرابى أثناء طوافه حول الكعبة فى حجه اليها — وتقدم الجميع للبطش بالعرب .

فعقد أبو عبيدة مجلسا عسكريا للتداول فى الأمر . فرأى خالد بن الوليد الخروج فى الحال لمقابلة الأعداء وقتالهم . ولكن باقى القواد لم يشاركوه فى رأيه وأجمعوا على الاعتصام بحمص، ريثما تصلهم النجدات.

فاعتصم أبو عبيدة بها . فحاصره الأعداء فيها ؛ وبلغ من خطورة الأمر أن عمر بن الخطاب خرج من المدينة وسار الى (الجابية) ، مرة أخرى ، ليقود بنفسه النجدات السائرة نحو الشمال .

ولكن الضيق ما لبث أن انفرج: فان اجراءات العرب الحربية فى ما بين النهرين أخافت البدو على منازلهم فى الصحراء ، وجعلتهم يتخلون عن الروم افواجا افواجا .

فرأى خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح الفرصة مناسبة : فخرجا بالجيش العربى من حمص وقاتلا الروم قتالا شديدا أسفر عن انهزام هؤلاء انهزاما تاما ، قبل ورود نجدة العراق الى أبى عبيدة .

فتمكن عمرو بن العاص — حينئذ — من العود الى حصار قيصرية والتشديد عليها ، حتى تسنى له فتحها بخيانة يهودى دل العرب على مجرى مياه أهمل الدفاع عنها ، ونفذ العرب منها الى قلب المدينة .

ولكنه حدث فى هذه السنة عينها — وهى الخامسة من خلافة عمر — أن جدبا فتك بنصف شبه الجزيرة العربية الشمالى : فأعوز أهلها القوت وأباد مواشيهم ، وأوقف كل حركة فى سبيل تقدم

الفتوحات الخارجية ، لاقبال جميع القواد فى سوريا وفلسطين ، بل فى العراق ، ذاته بكلياتهم وجزئياتهم على تخفيف تلك المصيبة الماحقة بارسال ما استطاعوا ارساله من الحنطة والغلال الى الأقليم الجائع ، والى عاصمة الخلافة .

وما كادت الدولة المنشأة حديثا تتخلص من هذه الكارثة — التى كان السبب الأكبر فى وقوعها ، انقطاع أيدى القبائل عن الزراعة الى القتال — ألا ودهمت بكارثة أعظم وأشد منها اجتياحا ، وأعنى بها الطاعون . انتشر على الأخص بين خيام المعسكر السورى العام بحمص ودمشق ؛ وفتك بالجنود فتكا ذريعا — وما فتىء الطاعون فى سوريا ، منذ قديم الأزمان ، يرافق الحروب والملاحم ، كلما كثر القتل فيها وقلت وسائل العناية الصحية ، وأظهر ما تحفظه الذاكرة من الأدلة على ذلك : الوباء الذي اجتاح البلاد أثناء قيام الرومان بقتال اليهود الثائرين وتشديدهم الحصار على أورشليم بقيادة فسباسيانس وطيطس أبنه ؛ وطاعون أبى عبيدة هذا المعروف بطاعون عمواص ، والطاعون الذى ذهب بحياة محمد بك أبى الذهب تحت أسوار عكاء وأوجب عودة جيشه مفلولا عنها ؛ والطاعون الذى تفشى فى جيش بونابرت بعد استيلائه على يافا عنوة وتركه جنوده تفتك بأهليها يومين كاملين وقتله آلاف الأسرى صبرا ممن أخلوا بشروط التسليم التى عقدت معهم فى العريش وعادوا الى قتال الجيش الفرنساوى فى حربه مع أحمد باشا الجزار ، والى عكاء .

فأشار عمر بن الخطاب على أبى عبيدة بالانتقال بجيشه الى جبال حوران ، حتى تذهب وطأة ذلك الوباء القتال . ولما اعترض عله

معترض ، قائلا : « أفرارا من قضاء الله ، يا أمير المؤمنين ؟ » أجاب : « فرارا من قضاء الله الى قضاء الله ! فقد قال سبحانه وتعالى : ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة ! »

فعمل أبو عبيدة بالاشارة . ولكنه ما بلغ (الجابية) الا وطُعن ، هو وابنه ، وماتا معا . ثم طعن ومات أيضا (معاذ) خليفته ، ومات مطعونا ، كذلك ، (يزيد بن أبي سفيان) عامل عمر على دمشق الشام . وفقد خالد بن الوليد أربعين ولدا من أولاده .

فسار عمرو بن العاص — حينئذ — بجماهير الأجناد المرتعدة خوفا الى أعالى الجبال ؛ وبقى مقيما فيها حتى انقضت أيام تلك المحنة . ثم الى عاد البقاع التى تخلى عنها .

حينذاك سار الخليفة من المدينة الى سوريا ، لينظم ما اختل من الأمور ، بسبب المجاعة والوباء ؛ وزار جميع المعسكرات العربية فى ذلك القطر ، وأصدر ما لزم من التعليمات للتصرف فى أملاك الجماهير التى اجتاحها الطاعون ؛ ثم عين (معاوية بن أبى سفيان) حاكما عاما على سوريا ، واستعد للرجوع الى المدينة .

فرأى عمرو بن العاص — حينئذ — أن الوقت قد حان لتحقيق المطامع والأمانى التى جاشت فى صدره وصدور القواد زملائه ، لما بلغت الجحافل العربية حدود الصحراء الفاصلة بين مصر وفلسطين ؛ ، ففاتح بذلك الخليفة ، وهو يشيعه الى (الجابية) .

وكان عمر يفكر ، هو نفسه ، فى الأمر — بعد ما كان من إقدام روم مصر على انتزاع سوريا منه ؛ وما كان من المجاعة التى

أهلكت شمال بلاد العرب — ولكنه لم يكن يعتقد الوقت مناسبا، عقيب الطاعون، لكثرة ما فتك هذا الوباء بجيوشه.

فلما ألح عمرو عليه، وأكثر من تحسين المشروع له، ضاربا على الوتر الذى كانت أفكار عمر نفسه تضرب عليه، جمع الخليفة اليه فى (الجابية) كبار القوات السورية، وشاورهم فى الأمر، عملا بنص الكتاب المجيد.

فقام عمرو بينهم وأبان بكيفية فصيحة — مستندا على حوادث انطاكية وحمص الأخيرة — بأنه لا يُستصوب أن تكون مصر فى قبضة دولة عدوة لمن كانت سوريا فى قبضته، لأن مصر تكون أبدا ينبوع أخطار عليه. ثم ذكر ما ورد فى الكتاب عن خيرات مصر، وقال: « ولئن تملكنا مصر، يا أمير المؤمنين، فلن تتألم بلاد العرب قط من جدب تألمها من الجدب الذى أصابها. ومع أن مصر أكثر الأرض أموالا، فانها أعجزها عن القتال والحروب. ففتحها، اذن، يورث المسلمين قوة، ويكون عونا لهم! »

فوافقه عمر على ذلك؛ ولكنه ذكر الخسائر التى ألحقها الجدب والطاعون بالمسلمين، والفراغ الهائل الذى أحدثاه فى صفوف جنودهم وأبدى تخوفه من أن لا يكون فى استطاعة من تبقى الاقدام على فتح جديد، مع القيام بحفظ القديم، لا سيما اذا خطر للروم أن يعبئوا ليقاتلوا المسلمين، مرة أخرى، فى عقور دورهم.

فرد عمرو عليه بأن الهجوم على الروم فى أعز ممتلكاتهم عليهم — وهى مصر — لأضمن وسيلة لمنعهم عن الاقبال على غزو السواحل

السورية ، وأنه لو كان الروم على شيء من القوة لاغتنموا فرصة فتك الطاعون بالمسلمين فى سوريا للحمل عليهم فيها ، والبطش بهم وهم لا يستطيعون قتالا ؛ وأنه ليس أظهر لقوة العرب فى عيون الروم ، ولقلة الخسائر التى أصابهم بها الجدب والطاعون من الاقدام على عمل ظاهره خطير ولكنه فى الحقيقة سهل ، كفتح مصر . أما أنه فى الحقيقة لسهل ، فذلك لسببين : الأول أن الروم ، لأنهم لا يتوقعونه مطلقا ، سيباغتون مباغتة تفت فى سواعدهم وفى تدبيراتهم . والثانى أن أقباط مصر على طرفى نقيض مع الروم ، يكرهونهم كره التحريم ، ومستعدون لمساعدة كل عدو عليهم . فهم بطبيعة الحال ، اذن ، أعوان مضمونون للمسلمين .

فاقتنع عمر بالصواب الذى فى هذه الأقوال ، واستفهم من معاوية عن أقل عدد من الجنود يحتاج اليه ليضمن به سلامة عمالته السورية . فأجابه معاوية . فأبقى عمر له بضعة آلاف أكثر مما قال ؛ ثم عقد لعمرو ابن العاص على الباقين ، وسأله عما اذا كان عدد الجيش الذى أمكن هكذا الاستغناء عنه فى حفظ سوريا يكفيه لفتح مصر .
فأجابه عمرو أنه يكفيه ، لأنه متأكد من انضمام قبائل شبه جزيرة سيناء اليه ، ومن اقبال القبط على مساعدته . فدعا عمر له حينئذ بالفتح وامره بالسير على بركة الله .

ولم يعقد عمر لعمرو بن العاص دون غيره من القواد ، لأنه كان صاحب فكرة الفتح وواضع مشروعه ، فحسب ، بل لأنه كان أشهر القواد العرب فى سوريا ، بعد موت أبى عبيدة ومعاذ ، ولنفور الخليفة من استخدام خالد بن الوليد ، بدعوى أن ما أوتيه هذا القائد

الأجل من المواهب السامية قد يحمل المسلمين ينسبون النصر اليه ، وأن النصر من الله يؤتيه من شاء من عباده المجاهدين فى سبيله — ولسنا نعلم مقدار ما كان فى دعوى عمر هذه من الصواب . ولكنا نعلم أن (ابراهيم لنكلن) رئيس الولايات المتحدة الأمريكية عزل الجنرال (ماك للن) قائد قواد الشمال ضد الجنوب في الحرب الأمريكية الأهلية رغم كثرة انتصاراته ، خشية أن يفتتن الأمريكيون به افتتانا يحملهم على قلب الحكومة الجمهورية وجعلها ملكية لوضع ذلك القائد المنصور على عرشها ، كما فعل الفرنسيون مع الجنرال بونابرت .

وقد يكون ما حمل عمر على عدم استخدام خالد بن الوليد فى فتح مصر فكر ابقائه في سوريا ليدرأ به ما قد يطرأ من الطوارىء غير المنتظرة على ذلك الاقليم . ومن جهة أخرى فان عمرو بن العاص — بعد أن عزل الخليفة (شرّحبيل) عن ولاية (الأردن) لضعف بدا له فى رأيه وحزمه — كان العامل على عموم أرض فلسطين ، فكان ، بالتالى ، أحق القواد بأن يعقد له لواء الحمل على مصر المتاخمة لعمالته . ولم يكن ثمة من يشك فى كفاءته لذلك ، لا سيما بعد ما رؤى من اجراءاته الحربية فى فلسطين ، وما توّجها به من انتصاره على الجيش الرومى فى واقعة (اجنادين) — التى شبهها بعض المؤرخين بواقعة (اليرموك) لهولها وشدتها — انتصارا فتح طريق أورشليم أمام القوات العربية ، وأدى الى استيلائهم عليها ؛ وعقب ما تم له من فتح قيصرية بعد طول استعصائها .

***

فاخذ عمرو — اذا — يعد المهمات ليسير بالقوات التى وضعت تحت امرته ، ويجتاز الصحراء التى بين غزة والعريش ، والتى ما كانت لتخيف أعرابا .

ولكن كم كانت تلك القوات ؟

هذا ما يصعب جدا الاجابة عليه بالضبط . وانما يمكن التأكيد بأنها لم تكن عديدة للأسباب التى بيناها .

وبينما هو مجد فى عمله ، دائب عليه نهارا وليلا ، كان الخليفة قد عاد الى المدينة والهواجس تنتابه . وليس فى ذلك مايستغرب له المطلع على حقيقة أخلاق عمر بن الخطاب وعقليته :

ففى الشرق كان القتال لا يزال قائما على قدم وساق بين جيوشه العربيه وجيوش (يزدجرد) كسرى ايران . ومع أن تقدم المسلمين وتوغلهم فى تلك البلاد كان مستمرا ، الا أنه كان محاطا بعقبات ومصاعب من شأنها ايجاد القلق والاضطراب في روح الخليفة ، الذى كثيرا ما باغت نفسه وهو يتمنى لو أمكنه التفرغ لنهو النزاع القائم بين العرب والفرس ، ولو اضطر فى ذلك الى قذف جميع قواه على قوى خصمه ، لسحقها دفعة واحدة .

وفى الشمال كانت الأرض لا تزال غير آمنه تحت أقدام فاتحيها ، ولا يزال ساخنا الرماد الذى أخلفه جمر الثورة المطفأة : فلئن ألقيت فيه حطبة صغيرة لالتهبت وأوقدت حريقا هائلا ، قد لا تكفى لاخماده القوات المعسكرة فى تلك الأصقاع . ومع ذلك ، فبدلا من تعزيزها أو على الأقل ، عدم انقاصها ، فقد سمح لنفسه ، وهو الخليفة المطلوب منه

التيقظ التام الى مصالح المسلمين ، بالاقتناع عما زوقه له عمرو بن العاص ؛ وجرّد ، عن هذه القوات ، الى فتح لم يكن ثمة من حاجة وقتية اليه ، جحافل كانت سوريا وسواحلها أولى بها وأحق .

ولو كان ذلك الفتح ، على الأقل ، مضمونا ! ولكن من يعلم ؟ و كيف يصح أن يضمن ، و مصر من الدولة البيزنطية فى منزلة العين من الجسد ؟ فالمنتظر والحالة هذه أن تدافع عنها بكل عزيز عليها وغال ، وأن تتفانى فى سبيل حفظها !

على أنه لوصح أن يكون ذلك الفتح مضمونا ، فلا يصح أن يضمن للقوات القليلة التى سارت اليه تحت لواء عمرو . بل الذى يغلب على الظن هو أنها لقوات لن تكفى لتلك المهمة الخطيرة مطلقا ، مهما قال عمرو عن انضمام بدوى سيناء اليها ، وتعضيد القبط لها . فان الأمير الخطير لا يترك نجاح مشروع ، يعرض فيه بأعمار رعاياه الى الهلاك ، تحت رحمة احتمالات قد لا تتحقق . ومن يدريك — ياعمر — أن الروم — وقد ألهمهم الله السكون ، وأبعد عنهم فكرة اغتنام فرصة الضيق الذى أحاق بأملاك المسلمين ابان الطاعون ليهاجموها ويحاولوا استردادها — من يدريك أنهم يكتفون بصد تلك القوات الذاهبة للتحرش بهم ، ولا يقدمون على تسيير حملة جديدة بحرية وبرية معا الى السواحل السورية وثغور قيصرية واسكندرونة وانطاكية ؟

هذه الهواجس لم تفارق عمر منذ أن ابتعد عن (الجابية) بضع مراحل الى أن استقر به المقام فى عاصمته . فما كاد يبيت ليلة فيها الا واجتمع بعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب والزبير بن العوام وآخرين من

كبار صحابة النبي ، وعرض عليهم الأمر ، واستشارهم فى الذى يجب عمله.

فاستقر الرأى بينهم على مواجهة أحد أمرين : اما أن يكون عمرو بن العاص قد تأخر فى تعبئاته ، فلا يزال مقيما بعد على الحدود ، أو اذا تخطاها ، فلا يزال بعيدا عن دخول أرض مصر ، وفى هذه الحالة ، فيكتب أمير المؤمنين اليه ، ليرجعه عن الحملة ؛ واما أن يكون قد سبق السيف العزل ، وبات عمرو بجيشه مشتبكا مع الأعداء ، وفى هذه الحالة فليس من الصواب بشىء اصدار الأمر اليه بالانصراف ، لأن ذلك يوهن قوة جنوده الأدبية ويفت فى سواعدهم ، ويقوى من جهة أخرى همم الروم ، ويحملهم على هجوم ربما ، لولا ذلك ، ما فكروا فيه ؛ بل الصواب تشجيعه ووعده بالامداد العاجل ، و التعجيل فى تحقيق الوعد.

فاستصوب عمر الرأى ، و كتب الى عمرو الكتاب الذى سبق ذكره .

ولكن عمرو - وكان خبيرا بحالة دولته العمومية خبرة عمر بها : فكان ، و الحالة هذه ، متوقعا عدولا ، من قبل الخليفة عن حملته - لم يكن أضاع تلك الأثناء سدى . بل سرعان ما تجهز وسار بجيشه يخترق الصحراء وينهب رمالها نهبا .

فلما وافاه رسول الخليفة اليه ، أدرك بالبداهة معنى الكتاب الذى سلمه له . فأجل فتحه الى أن تأكد من أنه أصبح داخل حدود مصر وأن السهم الذى رمى به بات لا يرد .

ففتح حينذاك الكتاب أمام كبار قواده . ولما كانوا - جميعهم - يعلمون أنهم وطأوا أرض مصر منذ ليلة ، فما زادهم ذلك الكتاب الا اقداما وشجاعة ، لا سيما بعد ما رأوا أنهم ، منذ أن توغلوا فى الصحراء

التى بين غزه و العريش الذى بلغوه ، ما فتىء عدد جيشهم يزداد بانضمام البدو الضاربين فى شبه جزيرة سينـاء اليه ؛ وتأكدوا من أن بدويى الصحراء الثانية ، التى بين العريش والفرما ، لمقتدون حتما باخوانهم ، ان لم يكن لشىء ، فللطمع فى أسلاب المغلوبين .

***

وكان عيد النحر قد أدركهم . فضحى عمرو عن أصحابه بكبش (١) ؛ ولما قام بهم اماما لصـلاة العيد ، ذكرّهم فى خطبتـه بأن أمير المؤمنين وكبار أصحاب رسول الله قائمون ، فى تلك اللحظة عينها ، على جبل عرفات يناجون الله ، و يطلبون منه ، حيث الطلب مجاب لا محالة ، نصرا للجيش الحامل على مصر وفتحا قريبا .

فاستأسدت بذلك قلوب الغزاة ، وبعد أن انقضت عليهم فى هناء أيام العيد ، زحفوا الى الفرما . وما بلغوها الا و تحققوا ما توقعوا ، و أصبح جيشهم ضعف ما كان حين قام من غزة . و ما شددوا الحصار على تلك المدينة ، المعتبرة مفتاح القطر المصرى الشرقى ، الا ورأوا ، من تعضيد أقباطها لهم ، ما حقق لديهم الوعود التى كان عمرو يمنيهم بها .

ففتحوها رغم مالا قوه فيهـا من مقـاومة الروم الشديدة . وبعد أن استراحوا فيها قليلا ، سـاروا جنوبا الى شمال البقعة التى أقام فيها الخديوى اسماعيل الفخيم مدينة الاسماعيلية على شاطىء بحيرة التمساح ، ليقتربوا من فرع النيل البلوزى . ثم تقدموا ، وهم يحازون هذا الفرع الى أن بلغوا البقعة التى ابتنى عليها ، فيما بعد ، الملك الصالح نجم الدين

(١) هل تذكر كبش التكبير وهو يفعل ذلك ؟

الأيوبى مدينة الصالحية . فساروا منها الى الجنوب ، نحو وادى طميلات تاركين موقع التل الكبير على شمالهم . وما زالوا موغلين فى ذلك الوادى حتى نفذوا الى بلبيس

وكان نبأ سقوط الفرما فى أيديهم قد بلغ آذان عمال القيصر على مصر فبادروا و جهزوا ما استطاعوا من قوات للوقوف فى سبيل الفاتحين ، و جعلوا قائدا عليها رجلا يقال له (ارتابون) — كان قائد قوات الرومية في واقعه (اجنادين) — فصدمه عمرو ، وهو سائر الى بلبيس فيمناوشة ، خرّ فيها (ارتابون) قتيلا . فتشتت أصحابه وفروا . فخرجت قوات أخرى لتعمل ما لم يعمل المقتول ، فأصابها ماأصابه ؛ ولم يتمكن الروم من الحيلولة بين عمرو و بلبيس ، فبلغها وحاصرها حصارا شديدا

وكان الرسول الذى بعثه عمر بكتابه المشهور قد عاد الى المدينة و بلغ أمير المؤمنين ما كان من تقدم عمرو

فرأى الخليفة أنه بات من المحتم عليه بذل ما فى الوسع لتوطيد أقدام الجيش الذى زحف الى مصر وابلاغه النصر .

ولما كانت الحروب القائمة بينه و بين جيرانه الشرقيين تضطره الى تعبئة مستمرة ، فانه ، حالما عاد من حجه السنوى ، وجد بين يديه أربعة آلاف كاملى العدد و التجهيز . فسيرهم على الفور ، دون أن يتهيب عليهم أخطار المسير ، لعلمه أن الطريق باتت مفتوحة آمنة ما بين بلاد العرب و القطر المصرى ؛ و ما لبث أن أردفهم بأربعة الآف آخرين فبأربعة آلاف غيرهم ، أوجد ضمنهم من أمكنه الاستغناء عنه

من كبار الصحابه ، و أشهرهم الزبير بن العوام ابن عمة الرسول — وكانت تلك هي المرة الأولى لخروجه الي القتال بعد موت النبي : مما يدل على مقدار ما بلغ من اهتمام عمر بفتح مصر لما رآى أنه فتح بات لا بد منه — وعبادة بن الصامت ، والمقداد بن الأسود ، ومحمد بن مسلمة ومسلمة بن مخلد ، وأبو أيوب خالد بن زيد ، وأبوا الدرداء عويمر بن عامر ، وجميعهم ممن حضروا (بدرا) ، وكانت لهم فى الاسلام منزلة عالية

فوافى بعض هذه الامداد عمرا وهو على بلبيس . فلم تستطع المدينة على هجماتها صبرا ، أو ربما أبى أقباطها على حاميتها التمادى فى الدفاع عنها . فسلمت . وليس مس المؤرخين من يذكر كيف كانت شروط التسليم . على أن ما روى عن وجود أرمانوسة بنت المقوقس فى تلك المدينة — وهو ما يبعد عن المعقول ، الا اذا كان المقوقس مجنونا : فأبقاها فى سبيل الفتح ، أو كان قد تحالف فى السر مع الفاتحين ، فأمن كل غائلة على نفسه و على عائلته ، و أراد بابقاء أرمانوسة ابنته فى بلبيس تغرير الروم عن حقيقة سلوكه — يحمل على الظن بأن التسليم كان على شروط جميلة لأهل المدينة ، ولحاميتها . بحيث رأى الرواة معها وجها لنسج برد ما قصوه من ارسال عمرو أرمانوسة مكرمة الى أبيها .

ولم يقم عمرو فى بلبيس الا بضعة أيام ؛ ثم سار منها الى الجنوب الغربى ، وهو الى الصحراء أقرب منه الى الأرض المزروعة ، فترك (جبل دمشق) على يساره ، و مر بأبى زعبل و الخانقاه ، حتى أشرف على (عين شمس) — وكانت الخرائب منتشرة فيها ـ فتركها على يمينه ؛ و تقدم من صحراء (قايتباى) الحالية فنفذ من وراء جبل المقطم الى

حيث صحراء الامام الشافعى الآن . فتجلت أمامه قصور كان يعرف مجموعها باسم (حصن بابليون) على ضفة النيل اليمنى ، و امتدت تحت نظره ، وراء جزيرة الروضة الفيحاء ، على ضفة النيل اليسرى ، مدينة منف العظيمة ، تعلو فى شمالها الأهرام الفخيمة كأنها الأطواد أقامتها فراعنة الدولة المصرية القديمة ، لتحرس تحت ظلها المدينة التى أسسها منشىء تلك الدولة .

فنصب عمرو خيامه بين الحصن والمقطم لجهة الشمال . و أقبل فى الحال يفحص الموقع ليرى كيف يتسنى له الاستيلاء عليه . فما لبث أن رأى النيل ينحدر أمام ذلك الحصن حتى أيقن أن الاحاطة به تتعذر ، وأنه لا سبيل الى فتحه الا عنوة .

و لكن سرعان ما رأى أيضا ما فى فتحه عنوة من المصاعب والعقبات ، اذ نظر أن خندقا عميقا حفر حول الحصن من جهته المقابلة الأرض ، وجعلت له أبواب ، وبذر فى أقنيتها حسك الحديد — كأنه خندق من خنادق الحرب الهائلة العالمية التى كانت تسيجها الأسلاك الشائكة وتحميها المتاريس .

فجمع عمرو مجلسا حربيا دعا اليه كبار الصحابة ، و تشاور معهم فى الأمر . فقر رأيهم على أن يمطروا من فى الحصن سهاما و نبالا بلا انقطاع من الصباح الى المساء ؛ و أن يعهد بعمل عدة مجانق الى من جعلته حروب السنين الماضية خبيرا بصنعها .

فما لبث أولئك العملة أن جهزوا منها عددا وافرا . فركبها عمرو حول الحصن ، و أقبل يلح عليه بها مستعملا حجارة المقطم القريب

مقذوفات له ، حتى هدم جانبا عظيما من أسواره وأبراجه ، وجعل اقتحامه أمرا مستطاعا ، لولا وجود ذلك الخندق العميق حوله .
فدب الخوف الى قلوب حماة الحصن من الروم . فأخذوا يتداولون فى اخلائه ، لما بات المقام فيه محفوفا به من الأخطار والأهوال .

فأجمع رأيهم على الانسحاب منه الى جزيرة الروضة بسكوت ، وبحيث لا يشعرون العرب باخلائهم اياه ، لكى يطول مقام هؤلاء أمامه حتى تأتى أولئك النجدات من الاسكندرية وغيرها . ففعلوا وتم لهم ما رغبوا فيه من عدم اشعار العرب .

غير أن الزبير بن العوام اجتمع بعمرو فى تلك الليلة عينها ، واتفق الاثنان على أن تقبل فرقة من العرب على طم الجانب من الخندق المقابل لجهة الحصن التى كثر فيها التهدم واتسعت الثلمات ؛ وعلى أن الزبير ذاته — متى تم ذلك العمل — يهب لله نفسه ، فيسير بزمرة من خيرة أبطال الجيش ، فيعبر بهم الخندق ويقيمهم على أحد أبواب الحصن ثم يتقدم ، هو وحده ، ويضع سلما ، ويتسلقه بسكوت حتى يصبح فى نقطة من الحصن يتسنى له الدخول اليه منها ؛ فيقصد الى الباب الواقف أصحابه أمامه فى الخارج مجتازا جنود الحامية النائمين ، بدون أن يقلقهم ، فيفتحه ، ويكبر تكبيرا عظيما ، يردده أصحابه كلهم بصوت واحد . ثم يندفعون جميعهم ، وسيوفهم مشهرة ، الى قتال الحامية المفاجأة هكذا ؛ فيثخنونها ، بينما باقى الجيش ـ ويكون مستعدا للعبور ـ يوافيهم تباعا ، فيدخل الحصن من الباب المفتوح ، ويلج القتال بصياح وزئير بقضيان على ما يكون قد تبقى عند الروم المدافعين من عزيمة وهمة .

هذا اذا لم يشعر بالزبير أحد عند دخوله الحصن . . اما اذا شعروا به ، فانه يقاتلهم ـ اذن ـ وحده . فاما أنه يتمكن من العودة من حيث أتى ، واما أنه يستشهد ، فيكون قد نال مناه .

فلما صحت عزيمة الرجلين على ذلك أقدما عليه . فحسن سعيهما ، واستولت العرب على الحصن بكل سهولة ، لسابقّ اخلائه من الروم .

ولما أصبح الصباح قصد عمرو رأس الحصن للاستطلاع : فرأى جموع الروم قد ازدحمت في جزيرة الروضة المقابلة فتخيل فى الحال ازدحام اقدام أتباع مسيلمة الكذاب فى (حديقة الموت) بعد انهزامهم من ساحة قتال (العقربة) . فالتهبت مخيلته بصورة تلك الواقعة مجددة .

ولكنه مالبث أن رأى القوم هناك يشعلون النار فى الجسر الجامع بين الجزيرة والحصن — وكان مؤلفا من مراكب بعضها بحذاء بعض ، موثقة بسلاسل من حديد ، وفوقها أخشاب ممتدة على عرض ثلاث قصبات ، يكسوها التراب بسمك .

فأصدر أمره ، فى الحال ، الى فرقة من جيشه بالاسراع الى اطفاء تلك النيران ، وحفظ الجسر . ففعلوا ، وسهام أصحابهم تحميهم . حينئذ خرج العرب من الحصن ، واندفعوا فوق ذلك الجسر ، المحروق طرفه عند الجزيرة فقط ، لايبالون بالوابل من السهام الممطر عليهم من قبل الروم ، لأن فرقة من فرقهم أقامت فوق الحصن ترشق اعداءهم بالنبال ، تبعدهم ما استطاعت عن الشاطىء .

فلما بلغوا الطرف المحروق، رأوا أنه ليس بينهم و بين أرض الجزيرة سوى بضعة اشبار . فقفزوا فى الماء وخاضوه ، وهو يتناولهم حتى

صدورهم ، وعبروا بقوة الى الشاطىء . وما كادوا يضعون أرجلهم عليه الا وصاحوا صيحة مزعجة وحملوا على الروم بسيوف عالية . فأسقط الروم فى أيديهم ، وركنوا الى الفرار . فعبروا النيل الى (منف) ، ورفعوا الجسر وراءهم . فلم ينل العرب منهم وطرا .

وكان على (منف) حاكم يقال له المقوقس ، وهو الذى يروى العرب عنه أنه ممن أرسل النبى اليهم رسالة يدعوهم فيها الى الاسلام ؛ فعظم المقوقس حاملها وأكرمه وأعاده الى محمد (صلعم) وصحبته هدايا نفيسة منها مارية القبطية ، التى أولدها النبى ابراهيم ابنه ـ على أن الرواية ، معظمها ، مفتقرة الى الاثبات ، الا ما كان منها خاصا بابراهيم .

وقد اختلف المؤرخون فى هذا الرجل اختلافا عظيما : فذهب بعضهم الى أنه كان قبطيا محضا — مستندين فى ذلك على ما عرّفه به النبى فى رسالته المقول انه أرسلها اليه ، حيث دعاه (عظيم القبط) ؛ وذهب آخرون الى أنه كان رومى الأصل ، ولكن مرتبطا برباط النسب بجملة أسرات قبطية : فكان شعوره ، اذن ، قبطيا أكثر منه روميا ، وكان الى محالفة العرب أميل منه الى مقاتلتهم . وقد دعاه بعضهم (يوحنا بن قرقت) ؛ وقال آخرون بل اسمه (مينا) ؛ ولم يقل أحد لم سمى (المقوقس) ولا هل كان هذا اسمه أو اسم وظيفته .

على أن الذى يغلب على الظن أن الرجل كان قبطيا صميما ، وأنه كان رئيس مدينة (منف) أو محافظها . ومن كانت هذه وظيفته يدعى بالرومية (ذيماكس) . فتناول العرب اللفظ الرومى وتصرفوا فيه تصرفهم فى كل اسم اجنبى ، فقلبوه وجعلوه (مقوقس) ، ثم أضافوا اليه

ال التعريف ونطقوه (المقوقس) .

هكذا قلبوا اسم (بودوين) ملك أوروشليم الى (بردويل) ، واسم (لويس) التاسع ملك فرنسا الى(ريدا فرنسيس) واسم(رودريج) ملك الفيزيقوط باسبانيا الى (لذريق) . وغير ذلك كثير

وما عمله العرب بالاسماء الغربية عمله الغربيون وزيادة بالأسماء العربيه : فمحمد جعلوه (ماهومت) ، وابن رشد (افروئيس) ، وابن سينا (افيسنّا) ، وصلاح الدين الأيوبى (سالادين) وهلم جرا .

وقد سبق لنا القول فى الفصل الأول من هذا التاريخ ان القبط والروم كانوا على طرفى نقيض ، وان القبط كانوا يودون التخلص من الحكم الرومى بأية وسيلة تكون؛ وانه التبس عليهم فى لفظ(الموحدين) فظنوا العرب على مذهبهم من الاعتقاد بوحدة طبيعة المسيح وارادته .

فلما ارتدت الحامية الرومية التى كانت تدافع عن بابليون والروضة الى (منف) ، وأرادت الاعتصام بها للمثابرة على القتال ، أبى المقوقس عليها ذلك ، وانضم اليه فى ابائه جمهور أقباطها ، وكانوا أغلبية سكانها .

فلم تر الحامية وقوادها بدا من الانسحاب الى الشمال نحو الاسكندرية ، قبلما يتمكن العرب من اعادة الجسر الذى رفعوه ، وملاحقتهم الى (منف) الحانقة على حكمهم . فانسحبوا . وانسحب بعضهم الى جهات الصعيد وانضم ما كان في مدنه الرومية (كاتنينوءا) ، مثلا — وكانت على مقربة من الروضة الى جنوب ملوّى الحالية — من حاميات وجنود بيزنطية .

فأنفذ المقوقس حينئذ الى عمرو بن العاص وعقد معه عهد الصلح

المعروف ، وأمده بكل ما احتاج اليه من أقوات ومواد .

فلم يذهب عمرو الى (منف) ولا دخلها . بل عاد الى شاطىء النيل الأيمن حيث كانت خيامه منصوبة ، وأقام فيها ، ريثما يتم وضع جسر جديد بين جزيرة الروضة وشاطىء الجيزه ؛ وأرسل الى الخليفة يعلمه بما فتح الله عليه .

فسر عمر بذلك وأرسل اليه امدادا أخرى ليتقوى بها على اتمام الفتح ، وشرع عمرو يستعد له ويشهل تجهيزاته متزودا بكل ما يوافيه الأقباط حلفاؤه الجديدون من معلومات وبيانات ومساعدات ، حتى اذا فرغ من اقامة الجسر المطلوب ، استدعى اليه عموم رؤساء الأقباط ودعاهم للسير الى الاسكندرية برفقته ، لكي يحمل وجودهم معه مواطنيهم على اصلاح الطرق له ، واقامة الجسور والأسواق وغير ذلك مما يحتاج اليه جيشه .

هكذا قال لهم ، وهكذا كان قصده . ولكن ذلك العربي البالغ المنتهى من الدهاء كان يقصد أيضا من اصطحابهم معه أن يكونوا بين يديه ، بمثابة رهائن ووثائق على قيام القبط بعهودهم التي تعهدوا بها في عقد الصلح ، وعلى عدم انتقاض (منف) وراءه . غير أنه لم يقل لهم ذلك ولا هم تيقظوا اليه .

فلما كمل عقد اجتماع الجميع أبقى عمرو قوة من العرب وراءه تحمي ساقته وخطوط مواصلاته من تعديات روم الصعيد عليها ، حتى يئون أوان الحمل على أولئك الروم والقضاء عليهم نهائيا ، بعد الفراغ من فتح الوجه البحري والاسكندرية . ثم أمر بتقويض الخيام ، المضروبة بين النيل والجبل ، وطيها استعدادا للمسير . فقوضت ، الا خيمته ، لأنهم —

على ما يزعم الرواة – وجدوا يمامة قد باضت فى أعلاها ، ولما انبأوا عمرا بها ، قال : « لقد تحرمت بجوارنا. أقروا الفسطاط حتى يطير فراخها ! » فأقروه . فأوصى عمرو به رئيس الحامية التى فى الحصن ، وسار بجيشه فعبر الي البر الغربى . و زحف من هناك شمالا متخذا النيل أولا ، ثم ضفة فرعه الغربى ، خطة لمسيره .

فكان لما أبداه من الحنان نحو اليمامة و الرأفة بها و قع فى قلوب عموم من سمع الرواية من الأقباط ، جعلهم يستبشرون خيرا بمثل ذلك الشعور الطيب .

ولعل لتذكر رواية الحمام فى غار جبل (ثور) دخلا فى حكاية يمامة الفسطاط هذه ، فعلل الرواة بها مسألة ابقاء عمرو القوة التى قلنا انه خلفها وراءه لتحمى ساقته وتدفع عن مواصلاته غوائل الاعتداء من جانب روم الصعيد !

ولا يبعد مطلقا أن يكون وقع لعمرو فى زحفه الى الاسكندرية من الوقائع والتقاتل ما قد ورد ذكره فى موضعه مما روى عن الفتح . بل لانستبعد أن يكون وقع له أكثر من ذلك ؛ وأنه اضطر ، فى تقدمه الى تقاتل دام اثنين وعشرين يوما كزعم بعض المؤرخين ، حتى أمكنه الدنو من الاسكندرية : لأن الروم كانوا قد وجدوا من الزمن الذى قضاه عمرو بالقرب من (منف) ومن الذى سبقه ، منذ أن أقدم العرب على تلك الغزوة ، متسعا كافيا ليكوموا فى الاسكندرية عموم وسائل الدفاع الممكنة ، و ليحشدوا فيها من الجيوش ما قدروا على حشده ، وما أمكنهم معه التحصن واقامة المعسكرات حتى كفر الدوار

ومنها على خط مستقيم نحو الغرب الى ما بعد مريوط .

و كانت الاسكندرية ، لما اقترب منها جيش العرب الفاتحين ، ثانية مدن الامبراطورية البزنطية عظمة وأولاها تجارة . تحيط بها المعاقل و الحصون ، وينفتح أمامها البحر لورود الأمداد اليها من الخارج .

و لم يكن العرب — منذ أن خرجوا من فلواتهم لغزو العالم وفتحه حتى ذلك الحين — قد وجدوا فى سبيلهم مدينة يمكنها أن تمتنع عليهم ، وامتنعت عليهم ، فى الواقع ، مثل الاسكندرية . لا دمشق ، عاصمة الغساسنة ، و لا المدائن ، عاصمة الأكاسرة ، ولا انطاكية عاصمة هرقليس السورية ، و لا قيصرية ، بالرغم من اقامتهم حولها شهورا طوالا ، وذلك لما سنذكره من الموانع .

ومع ذلك فانه كان لا بد لهم من الاستيلاء عليها . لأنهم ، بدونها لم يكونوا ليأمنوا على القطر المصرى برمته ، مهما توطدت فيه أقدامهم ، فحاول عمرو — فى بادىء أمره — أن يحمل أهلها على التسليم ، بطريق اقناعهم بأن التسليم أفضل لهم وأسلم عاقبة . ولما كان يعلم حق العلم ـ بعد أن أقام فى القطر المدة التى أقامها ـ أن أغلبية السكان أقباط ، وأن أقرب الناس الى أقناعهم بالميل عن القتال الى التسليم انما هم رؤساء الأقباط الذين أتو معه ، لا سيما المقوقس ؛ وعلى الأخص اذا تمكنوا من احاطتهم علما بانتقاض الارض كلها على الروم ، وقيام الأهلين عليهم فى كل جهة ، وملء قلوبهم حب الأنتقام ليثأروا لنفوسهم من الاهانات والآلام والأوجاع التى أصابهم بها الآخذون بمذهب (خلقيدونيا) و انتصاب كهنة دين التوحيد على منابر عموم الكنائس

اليعقوبية في صعيد البلاد وبطحائها يرددون، بأصوات كالصواعق، اللعنات التي قذف بها (كيرلس الأكبر)، البطريق العظيم، أحبار القسطنطينية واعتقاداتهم — كما كان الواقع حقيقة — بعث الى رئيس الدفاع عن المدينة يستأذنه في ارسال وفد اليه من قبله ليفاتحه فيما قد يعود بالخير على الجميع.

فقبل البطريق، وبعث يؤمن من كان في ذلك سفيرا. فأرسل عمرو اليه المقوقس في نفر من أصحابه. فبذل المقوقس جهده ليحمل الروم على الرضاء بالجزية و التسليم، فيحفظون أنفسهم وأموالهم وأعراضهم تلقاء دينارين يدفعونها سنويا عن كل مراهق فيهم. و أنفق ما وهب من فصاحة ليقنعهم بأن العرب أهل وفاء ونجدة، وأهل معروف وخير وأن الأقباط الذين سلموا اليهم على الشرط الذي يعرضه، باتوا في أكبر الاطمئنان وفي راحة لم يكونوا ليحلموا بها.

فذهب كلامه كله أدراج الرياح. ولقي من تعنيف بطريق الاسكندرية له على خيانته وتخليه عن الدفاع عن مصالح الامبراطور مولاه، ماجعله يعود الى عمرو ساخطا، دون أن يتمكن من السعي لدى أهل الاسكندرية فيما يحملهم على رفض الدفاع أو عرقلته، والتسليم. فقال لعمرو: «والآن أسألك ثلاثا، ولا اخالك باخلا على بهن!» قال: «وما هن؟» قال «أن لا يبذل للروم مابذلت لنا: فاني قد نصحت لهم فاستغشوني؛ ولا تنقض للقبط لما قد يقع من اخوانهم الذين في الاسكندرية: فانهم على أمرهم مرغمون؛ واذا كنت في عداد الأموات حينما تفتحون الاسكندرية، أن تدفنني في كنيسة القديس يوحنا التي

هو فيها : فلقد حييت ونفسي تتوق الى أن يكون دفني هناك » .

فقال عمرو مطمئنا له : « وهذه أهون نهن علينا ! » ومع أنه لم يعده باجابة السؤالين الآخرين ، الا أنه بأجابته كما أجاب حمله على الاعتقاد بأنه مجيبه أيضا فيها .

غير أن خيبة المقوقس لدى بطريق الاسكندرية أفهمت عمرا أن الفتح لن يكون الا بقوة السيف ؛ وأنه لا بد له من الاعتماد عليها وحدها لتذليل جميع العقبات القائمة في سبيله .

وأهم تلك العقبات أن المدينة كانت مفعمة بوسائل الغذاء والمقاومة ؛ وأن أهلها العديدين أفهموا - لاسيما الروم منهم - أنهم يقاتلون عن أعز الحقوق البشرية لدى الانسان ، أي عن دينهم وأملاكهم وأعراضهم . وأن كان البحر أبدا مفتوحا أمامهم ؛ ولئن لم تذهب سنة الخور بتيقظ هرقليس للخطر العام ، فان جيوشا عديدة مؤلفة من جنود روميين وهمجيين من أعوان الامبراطورية ، تستطيع التدفق باستمرار الى ثغر ثانية العاصمتين الامبراطورتين للدفاع عنها وانقاذها ؛ وأن المدينة ، بالرغم من بلوغ دائرتها عشرة أميال ، لم تكن لتقدم لهجمات العدو الذي يداهمها من جبهة البر سوى جبهتين ، عرض كل منهما أربعمائة متر فقط .

غير أن هذه العقبات ، على كونها هائلة ومخيفة ، لم تكن لتقعد همة القائد العربي المنصور ، الذي كان أحد أفراد أمته المشار اليهم بالبنان ، في عصر صعدت روح الحماسة فيه بأحط العرب أنفسهم مواهب ، الى أقصى ما يمكن أن يبلغ اليه أرفع الناس في العصور الاعتيادية .

فأقدم عمرو ، اذا ، على التغلب على تلك المصاعب بهمة شماء وتفنن

عجيب ، بينما كانت عينا عمر من منزله الحقير بالمدينة شاخصتين الى المعسكر المحاصر والمدينة المحاصرة ، وكان صوته يدعو قبائل العرب ويستنفرها للهبوب الى مساعدة المجاهدين فى سبيل الله أمام المدينة التى انشأها الاسكندر ذو القرنين ، وفى القطر المصرى المشهور بخصبة وغناه.

وفى الوقت عينه لم يحجم المقوقس عن مخابرة الأقباط الموجودين داخل الأسوار المحاصرة مخابرة سرية ، بقدر ما كان يستطيع اليها سبيلا ، وحثهم حثا علي اغتنام تلك الفرصة النادرة للتخلص من الروم مضطهديهم الظالمين ، مقتدين فى ذلك باخوانهم في باقى قرى القطر ومدنه .

وما لبثت المجانق أن شرعت تضرب الأسوار والمعاقل وتدك ما استطاعت منها دكا . وما برحت القوات العربية تقاتل بشجاعة الأسود ، طورا هاجمة ، وطورا دافعة هجمات روم المعاقل الخارجين للايقاع بها ؛ وما فتئت راية عمرو فى تلك المعارك تقود العرب الى مواطن الفخار والفوز ـ لأن الرجل كان يجمع الى روية القائد الحكيم بسالة الجندى المخاطر وحماسة الشاعر المتقدة : فلا يستبعد كثيرا ، والحالة هذه ، أن يكون قد وقع لصاحب تلك الراية شيء من حادثة أسره التى رواها الرواة .

***

وأين كان هرقليس فى كل تلك الأثناء ؟ وكيف أمكنه اهمال أمر انجاد ثانية عواصم امبراطوريته ، والتى كانت ، فى الوقت ذاته ، عاصمة القطر المعتبر اهراء القسطنطينية ؟

هذا مالم يقله التاريخ مطلقا ، ولن يتمكن المطالع من الوقوف على سر الاهمال الذى ارتكبه الامبراطور البيزنطى الا اذا تذكر ما اعتور حياة هرقليس من خور فى مبادىء حياته السياسية ، لما اكتسح كسرى ابرويز معظم ممالكه وعسكر دهرا أمام أسوار القسطنطينية محاصرا ـ وفى أواخرها ـ اذ جرده العرب من سوريا ومصر وبعض الأناضول.

فلما رأي الروم المدافعون عن المدينة أن العدو الداخلى يزداد قحة واقداما يوما عن يوم ؛ وأن العدو الخارجى يزداد اقداما ونشاطا كلما تمادت به الأيام ، وكلما وردت اليه الامداد ؛ وأنهم هم ، باتوا مقطوعين عن باقى جهات دولتهم ، بالرغم من انفتاح البحر أمامهم ؛ (وهو أمر جعلهم يعتقدون أن مصاعب لايمكنهم الوقوف على مقدار شدتها تحيط بدولتهم) ، أسقطوا فى أيديهم ، فبادروا وأنزلوا فى مراكبهم الراسية فى الميناء ، جنودهم المنتقص عددهم والخائرة أرواحهم ، وابتعدوا عن الاسكندرية .

فاحتلها العرب بعد أن فقدوا أمامها ثلاثة وعشرين الفا من أبطالهم ، واعتلت رايات الاسلام أسوار العاصمة المصرية ، ودوى التكبير فوق قمم حصونها . فكتب عمرو الى عمر : « أما بعد فقد فتحت مدينة الغرب العظمى ، ولا أرانى أستطيع أن أصف مافيها . غير أنى أصبت فيها أربعة الآف بنية بأربعة آلاف حمام وأربعمائة ملهى واثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر وسبعين ألف يهودى عليهم الجزية . ولقد فتحت المدينة عنوة وبدون عهد والمسلمون يطلبون الى قسمتها بينهم ويلحفون فى الطلب ! »

فكتب اليه عمر : « لاتقسمها وذرها يكون خراجها فيئا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوهم ! »

ولما رأى عمرو بيوت الاسكندرية ، ووقف على جمالها ، أخذت بمجامع قلبه . فهم أن يسكنها ، ويقرها عاصمة لعمالته كما كانت للروم ، قائلا : هذه مساكن قد كفيناها .

ولكن عمر بن الخطاب ـ وكان قد أعلم أن النيل اذا جرى ، حال بينه وبينها ـ كتب اليه يقول : « انى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم ، شتاء ولا صيفا . فتى أردت أن أركب اليكم راحلتى حتى أقدم عليكم ، قدمت »

فتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية الى الفسطاط وأقام فيها ، وما لبث أن أجبر روم الصعيد على التسليم بعد مناوشات عديدة ، ربما كان أهمها ما قد دار من قتال فى البهنسة ، وقتل فيه من المسلمين ماجعل تلك المدينة تعرف بمدينة الشهداء .

ولما بلغ نبأ سقوط الاسكندرية الى آذان هرقليس — وكان متألما وطريح الفراش يشكوا داء الاستسقاء — اغتم له غما عجل سير الموت اليه . فما مر على تلك الحادثة المؤلمة لنفسه ، سبعة أسابيع الا ووافاه القدر المحتوم وفى يده كأس المنون للامبراطور ، وكأس تقعقع النفوس فى ظل حشرجة الصدور لامبراطوريته.

الباب الثانى

كيف كانت حكومة العرب فى مصر

من أيام الفتح سنة ٦٤٠

الى

احمد بن طولون سنة ٨٦٠

الفصل الأول

رأى العرب فى المصريين

من الأحاديث المشهورة عن النبى العربى (صلعم) قوله : « ان الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا : فان لهم منكم صهرا وذمة ! » . و ما ورد فى القرآن الكريم من القصص عن مصر والمصريين كان من شأنه أن يجعل مخيلة العرب ملتهبة بتصور الخيرات العميمة المتدفقة فى مياه النيل على واديه ؛ و بتصور مبلغ ترف أهل هذا القطر السعيد وسعادتهم المادية ومقدار تبسطهم فى اللذائذ . ولم تكن روايات الوافدين من العرب الى مصر بعد عودتهم الى أوطانهم ، لتنقص شيئا من التهاب مخيلات مواطنيهم . بل انها كانت ترمى الى زيادة اتقادها ، بما كانت تتغنى به من جمال المصريات ، ولطفهن وخفة أرواحهن ، وقلة قسوتهن ؛ ومن نعيم المعيشة فى أحضانهن ، بين سندس الأرض الزاهرة وخرير الماء الرخيم ، على أرائك الهناء الذهبية والفضية أو الأبنوسية المذهبة أو المفضضة ، أو المطعمة بالعاج الناصع الثمين ، المفروشة فرشا ناعما فاخرا وثيرا ، وتحت ظل أشجار الحدائق والبساتين المثقلة بالأثمار الشهية ؛ والنافذة منها برفق أشعة شمس بهية ، متلألئة فى سماء لازوردية الأديم .

فكان شعور العرب ، اذن — وهم زاحفون الى مصر أنهم سيجدن

فى أهلها أنسباء حميمين ، وأعوانا مخلصين ، وقلوبا مستعدة لقبول ايمانهم والاستكانة اليه . وأنهم — ان صادفوا من الروم مقاومة عنيفة ، قد تقدم الى بعض مثآتهم ، فى كأس المنون ، لذة الاستشهاد ، وهم يجاهدون فى سبيل الله — سيستمرئون ، بعد فوزهم على أعدائهم واجلائهم عن البلاد ، طعم التنعم بتلك الملاذ التي تغنى بها رواتهم ، وجعلت فرعون يهتف فى القرآن الكريم : « أليس لى ملك مصر ؟ » كما أنها جعلت موسى يقول : « ربنا ، أنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ! »

فلما استتب لهم الأمر فى مصر ، ورأوا أهلها يتمسكون بدينهم المسيحى ، رغم أغراقهم فى اللذات والترف ، تمسك الجاهل بالشىء لا يعرف من قيمته الا ما تصوره له الاوهام منها ، ورأوهم يقبلون دفع الجزية عن طيب خاطر ، مع ما فيها من الصغار والهوان ، يفضلون دفعها على الدخول فى الحظيرة الاسلامية ، أى يفضلون الاحتماء بذمة المسلمين على الدخول فى أسرتهم العظيمة ، وعلى أن يصيروا لهم اخوانا ، ثم رأوهم ، بعد ذلك بقليل ، ينفرون من ارتفاع فى الجزية أوجبته ضرورات الحكم ، ويستغيثون تحت ستر الخفاء ووراء ابتسام الصفاء والاخلاص للمسلمين ، بالروم الذين ضجوا دهورا من تحكمهم فى ضمائرهم وتعسفهم فى ادارة شئونهم و تفننهم فى أرهاقهم ، و الذين عدوا التخلص من نيرهم فرجا غير منتظر جاءت به عناية الله ورحمته على أيدى العرب الفاتحين ، أخذت تتردد على أبواب ذاكراتهم القصص القرآنية عن فرعون وقومه ، وتماديهم فى غيهم وطغيانهم ،

بالرغم من الآيات و المعجزات المبداة لهم لتحويلهم عن ذلك الغى وذلك الطغيان ؛ وشرعت ترسخ فى أذهانهم الأحكام الصارمة الصادرة على المصريين من اليهود ، الذين كانوا كبارا فى اليهودية ومطلعين على أسرارها ، ثم دخلوا فى الاسلام واعتنقوا أصوله — ككعب الأحبار وغيره — وبقيت روحهم ، مع ذلك ، يهودية ، أى ناقمة على مصر والمصريين استعباد الفراعنة واضطهاد المسيحيين .

فأخذت آراؤهم فى المصريين تتطور ، و تتغير ، و تتشكل شيئا فشيئا بأفظع أشكال التحامل والطعن ؛ وأخذ كبارهم يتبارون فى تناول المصريين بألسنة حداد ووصفهم بأحط الأوصاف وأقبحها .

قال عمرو بن العاص : « مصر أرضها ذهب ، نساؤها لعب ، وهى لمن غلب » ؛ وربما كان هو أيضا القائل : « مصر أرض قوراء غوراء ، ذمها أكثر من مدحها ، هواؤها كدر ، وحرها زائد ، وشرها مائد ، تكدر الألوان والفطن ، وتركب الاحن ، تسمن الأبدان ، وتسود الانسان . فى أهلها رياء وخبث ودهاء وخديعة ، وهي بلدة مكسب ، ليست بلدة مسكن »

و قال كعب الأحبار : « مصر أرض نجسة ، كالمرأة العاذل ، يطهرها النيل كل عام ، وشر نساء على الأرض نساء أهل مصر ! »

وقال معاوية بن أبى سفيان : « وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف . فثلث ناس ؛ و ثلث يشبه الناس ؛ وثلث لا ناس . فاما الثلث الذين هم الناس ، فالعرب ؛ و الثلث الذين يشبهون الناس ، فالموالى ؛ و الثلث الذين لا ناس فالمسالمة ! » أى القبط .

وقال ابن عباس : « المكر عشرة أجزاء : تسعة منها فى القبط، وواحدة فى سائر الناس » .

وقال عبد الله بن عمرو : « لما أهبط أبليس فرّخ بمصر » .

وقال ابن العربية : « أهل مصر عبيد لمن غلب ، أكيس الناس صغارا ، وأجهلهم كبارا » .

وقال يزيد بن أبى حبيب : « ان ألوان أهل مصر سمر من أجل أنهم أولاد العبيد السود الذين نكحوا نساء القبط بعد غرق فرعون وقومه ، واستولدوهن ! »

وقال أبو الصلت : «أما أخلاق أهل مصر ، فالغالب عليها اتباع الشهوات ، والانهماك فى اللذات ، والاشتغال بالترهات ، و التصديق بالمحالات ، وضعف المرائر والعزمات : ولهم خبرة بالكيد والمكر ، و فيهم بالفطرة قوة عليه ، وتلطف فيه ، وهداية اليه ، لما فى أخلاقهم من الملق والبشاشة التى أربوا فيها على من تقدم وتأخر . وخصوا بالافراط فيها دون جميع الأمم حتى صار أمرهم فى ذلك مشهورا ، والمثل بهم مضروبا » .

وقيل — والقائل مجهول — « أربعة لا تعرف فى أربعة . السخاء فى الروم والوفاء فى الترك ، والشجاعة فى القبط ، والعمر فى الزنج »[١] .

---

(١) المقريزى . ج ١ . ص

الفصل الثاني

ثورات الأقباط

فلا غرابة اذا أساء الفاتحون معاملة الأقباط ، اذن ، مع انتشار مثل هذه الآراء بينهم ؛ ولا غرابة اذا ثقلت على المصريين وطأة الأحكام العربية ، بعد رفقها ولطفها الأولين .

فان عمرو بن العاص كان ، فى بادىء الأمر ، قد صالح جميع من فى مصر من الرجال الأقباط ممن راهقوا الحلم الى ما فوق ذلك – ليس فيهم امرأة ولا صبى ولا شيخ — على دينارين دينارين ، وألا يخرجوا من ديارهم ، ولا تنزع نساؤهم ولا كفورهم ولا أراضيهم ولا يزاد عليهم ؛ ويرفع عنهم موضع الخوف من عدوهم .

ولكن عمر بن الخطاب ما لبث أن كتب له : « أن اختم فى رقاب أهل الذمة بالرصاص ؛ وليظهروا مناطقهم ، ويجزوا نواصيهم ، ويركبوا على الأكف عرضا . ولا تضرب الجزية الا على من جرت عليه الموسى دون النساء والولدان ؛ ولا تدعهم يتشبهون بالمسلمين فى ملبوسهم »[١] .

ربما كان الذى حدا بعمر الى كتابة هذا — اذا كان قد كتبه حقيقة — تخوفه على جيشه العربى غدر الموالين من أهل البلاد للروم .

(١) المقريزى ج ١ . ص ٧٦

وما لبث عمرو عينه أن طمع بكنوز الأقباط . فانه - على رواية هشام بن أبى رقية اللخمى - قال لقبط مصر : « من كتمنى كنزا عنده ، فقدرت عليه ، قتلته » . وأن قبطيا من أرض الصعيد ، يقال له بطرس ، ذكر لعمرو أن عنده كنزا . فارسل اليه ؛ فسأله ، فأنكر وجحد . فحبسه فى السجن ، ثم استفهم : هل تسمعونه يسأل عن أحد ؟ قالوا : « انما سمعناه يسأل عن راهب فى الطور ! » فأرسل عمرو الى بطرس ، فنزع خاتمه . ثم كتب الى ذلك الراهب « أن ابعث الى بما عندك » وختمه بخاتم بطرس . فجاء الرسول بقلة شامية مختومة بالرصاص . ففتحها عمرو ؛ فوجد فيها صحيفة مكتوب فيها : « مالكم تحت الفسقية الكبيرة » فأرسل عمرو الى الفسقية ، فحبس عنها الماء ؛ ثم قلع البلاط الذى تحتها : فوجد فيها اثنين وخمسين اردبا ذهبا مصريا، مضروبة (كذا) . فضرب عمرو رأس بطرس عند باب المسجد . فأخرج القبط كنوزهم أشفاقا ان يبغى على أحد ، فيقتل كما قتل بطرس (١).

ومع أن هذه الحكاية مصطبغة بصبغة الخرافة الظاهرة ، الا ان المعروف ، تاريخيا ، عن عمرو بن العاص أنه مات عن ثروة طائلة ، قدرها عبد الله ابنه بسبعين جرابا من جلد ثور كاملة مملوءة دنانير . ومن المؤكد أنه لم يجمع هذه الثروة الطائلة وهو تاجر ، بل وهو أمير. ثم رأى عمر بن الخطاب أن يزيد الوطأة على المصريين . فأمر بأن

(١) المقريزى ج ١ . ص ٧٦ وابن اياس ج ١ . ص ٢٤ وابن وصيف شاه : أخبار مصر

تكون جزية المكلفين بها أربعين درهما على أهل الورق — أى الفضة — وأربعة دنانير على أهل الذهب (وأولئك الفقراء. وهؤلاء الموسرون)؛ وأن يكون عليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة مدان؛ ومن الزيت ثلاثة أقساط، ومن العسل وذلك فى كل شهر لكل انسان، ومن البزة الكسوة التى يكسوها أمير المؤمنين الناس؛ وأن يضيفوا من نزل بهم من أهل الاسلام ثلاثة أيام (١).

ولما تولى عبد الله بن أبى السرح، بعد عمرو بن العاص، أخذ من المصريين عن كل رأس دينارا خارجا عن الخراج. وذلك لكى يظهر همة فى الجباية للخليفة عثمان بن عفان، أخيه من الرضاعة.

ثم لما استتبت الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان، كتب الى (وردان) عامله على اخراج مصر: «أن زد على كل رجل من القبط قيراطا!» فكتب اليه (وردان): «كيف نزيد عليهم وفى عهدهم أن لا يزاد عليهم شىء؟» فعزله معاوية وولى مكانه من نفذ له أمره.

ولم يلبث بعض الولاة أن ذهب أن الجزية المضروبة على الرؤوس لا تكفى، وأن هناك جزية أخرى يقال لها «جزية جملة» تكون على أهل القرية، يؤخذون بها، مهما نقص عددهم — وهذا ماذهب اليه الحكم فى عهد الأمراء المماليك وعهد محمد على. غير أن المال المأخوذ هكذا لم يكن «جزية» ولكن «خراجا». ولم يكتف محمد على بأخذ أهل القرية الواحدة، مهما نقصوا ونقصت كمية أطيانهم المزروعة،

---

(١) المقريزى ج ١. ص ٧٧. وهذا يشبه ما تفرضه دائما الجيوش الغازية على البلاد التى تحتلها، ويعرف عند الغربيين باسم «ركيزيسيون».

بالأموال الأصلية المربوطة عليهم ، ولكنه جعل قرى المركز الواحد ، بل مراكز المديرية الواحدة ، متضامنة فى ذلك .

وكتب عمر بن عبد العزيز الى حيان بن شريح « أن يجعل جزية موتى القبط على أحيائهم » . يريد بذلك أن مصر انما فتحت عنوة ، وأن الجزية انما هى على القرى لا على الرؤوس .

فاذا أضفنا الى هذه المغارم المظالم التي كان الولاة يصيبون بها أحيانا — القبط والمسلمين من الموالي على السواء — وأضفنا اليها الضيق الأدبى الذى بات محيطا بنفوس المصريين الأصليين وقارا فيها ، بسبب اختلاف معاملتهم عن معاملة المسلمين فى الأحكام الاجتماعية ؛ وأضفنا اليها ، ايضا ، الغيظ الذى انبث فى قلوبهم لما رأوا أنهم انما جنوا على أنفسهم بمساعدتهم العرب على تملك بلادهم ، والحنق الذى كان يملأ أفئدتهم كلما سمعوا بخروج أحد منهم عن المسيحية الى الاسلام ، أدركنا بسهولة أنه كان لابد لهم من أن يثوروا على سادتهم المسلمين ، ويحاولوا التخلص من النير الذى سقطوا تحته ، بالرغم من أن بعض الولاة كانوا رجالا واسعى الصدور ، أحرار الافكار ، كالوليد بن رفاعة الفهمى ، العامل على مصر لهشام بن عبد الملك ، الذى اذن لهم بابتناء كنيسة جديدة فى العاصمة .

ففي مدة امرة (الحر بن يوسف) على مصر ، كتب عبد الله ابن الحجاب ، عامل الخراج فيها الى هشام بن عبد الملك بأن أرض مصر تحتمل الزيادة ، وزاد على كل دينار قيراطا . سنة ١٠٧ هـ

فانتقضت كورة تنوديمى وقربيط وطرابية وعامة الحوف

الشرق ، مابين فرع دمياط والصحراء. فبعث الحر اليهم بأهل الديوان — أى العرب المرابطين — فحاربوهم . فخرج (الحر) اليهم بنفسه ، ورابط بدمياط ثلاثة أشهر . فقتل من الطرفين خلق كبير ؛ ثم أخمدت تلك الفتنة عنوة . ونقل (الحر) الى امارة اسبانيا .

ولم تمض أربع عشرة سنة الا وانتقض أهل الصعيد ، وحارب القبط عمال الحكم العربى . فبعث اليهم (حنظلة بن صفوان) أمير مصر ، أهل الديوان فقتلوا من القبط ناسا كثيرين ، وخربوا لهم أديرة عدة .

ثم ثار بالقبط رجل من سمنود ، وجمع تحت لوائه جيشا زاهرا منهم . فسار اليه (عبد الله بن مروان بن موسى بن نصير) أمير مصر ، وتواقع الفريقان عند جش ، فقتل الثائر فى كثير من أصحابه . سنة ١٣٢ هـ .

ولكن هذه الكسرات المتوالية لم تقعد بالقبط من النزوع الى ثورة جديدة . فما كادوا يعلمون باختلال أمور الخلافة الأموية واندحار رجالها عند نهر الزاب الكبير ، الا ورأوا أن يغتنموا الفرصة ، وهبوا فى رشيد شاقين عصا الطاعة . فبعث اليهم (مروان الحمار بن محمد) آخر خلفاء بنى أمية فى الشرق ، لما دخل مصر ، فارا من بنى العباس ، بعثمان بن أبى قسعة . فهزمهم ورد كيدهم فى نحرهم .

غير أنهم عادوا الى الثورة بعد مضى ثمانى عشرة سنة أى سنة ١٥٠ هـ ؛ واحتشدت جموعهم فى سخا — والأمير على مصر فى ذلك الوقت (يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة) — ونابذوا

عماله وأخرجوهم . ثم ساروا الى شبرا سنباط ؛ وانضم اليهم أهل البشرود والاريسيتر والنجوم ، وتفاقم خطبهم . فعقد (يزيد) لنصر ابن حبيب المهلبي على أهل الديوان ووجوه مصر ، وأرسله الى قتال الثائرين . فبيتهم القبط وقتلوا من المسلمين خلقا كبيرا . فألقى المسلمون النار فى عسكر القبط ؛ ولكنهم اضطروا للانصراف الى مصر منهزمين . ولم تخمد تلك الفتنة الا بعد جهد جهيد .

على أنها عادت الى الهبوب فى سنة ١٥٦ اذ كان واليا على مصر (موسى بن على بن رباح) . فخرج القبط ببلهيب . ولكنهم هزموا وفلت جموعهم . فأخلدوا ، بعد ذلك ، الى السكينة دهرا ، حتى اذا كانت سنة ٢١٦ هـ ، عادوا فانتقضوا مع من انتقض من المسلمين بأسفل الأرض ، وخلعوا الطاعة لسوء سير عمال الحكم فيهم .

فكانت بين الثائرين وبين عساكر الفسطاط حروب مريرة ، امتدت الى أن قدم الخليفة (عبدالله ، أمير المؤمنين ، المأمون) الى مصر سنة ٢١٧ هـ . فعقد على جيش بعث به الى الصعيد ، وارتحل ، هو ، الى (سخا) ؛ وبعث بالافشين الى القبط : فأوقع بهم فى ناحية البشرود ، وحصرهم حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين . فحكم فيهم المأمون بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال ، وسبى أكثرهم .

فذل القبط — منذ ذلك الحين — فى جميع أرض مصر ، وخذلت شوكتهم ؛ ولم يقدر أحد منهم على الخروج ولا القيام على متولى الأحكام ؛ وغلب المسلمون على القرى (١)

(١) انظر ، لكل ماورد فى هذا الفصل ، المقريزى ج ١ ص ٧٦ فما بعدها .

الفصل الثالث

غزوات الروم

أما الذى كان يشجع المصريين الأصليين على الثورات التى ذكرناها — وهى الأهم — والتى لم نذكرها ، لقلة أهميتها وخطورتها ، فهو ما كانوا يعلقونه من آمال على قوة الامبراطورية البيزنطيه الرومية ، التى باتت محبوبة عندهم عقب أن تقلص ظلها عن بلادهم ، وعلمتهم الأيام أن أحكامها فى مصر — على مضاضتها — كانت أخف على قلوبهم وطأة من أحكام العرب . وذلك لأن الروم كانوا اخوة لهم فى المسيحية — وان منشقين عنهم فى المذهب — وأما العرب فكانوا من دين غير دينهم ، وهو يأبى الا أن تكون له السيادة المطلقة على عموم الأديان .

هكذا رأينا — فى أيامنا هذه ما بين سنة ١٨٨٢ و سنة ١٩١٤ — السلطنة البيزنطية التركية محبوبة عند المصريين ومقيمة فى صميم أفئدتهم ، منذ أن تقلص ظل أحكامها عن بلادهم ، بدعوى أنها وحدها محط آمالهم فى التخلص من النير الأجنبى المنيخ على رقابهم ، وبحجة ما يشعرون به من أن حكم تركيا على مصر — وان أورثها الخراب والشقاء — لأقرب الى قلوب المصريين — على ما فيه من مضاضة — من حكم الأجانب ، لأن الأتراك اخوة المصريين فى

الاسـلام ؛ وأما الأجانب فمن دين غير دينهم ـــ وان لم يكن لدينهم هذا دخل فى تـكييف الأحكام .

ولم يكن الروم يحجمون مطلقا عن مساجلة مصر ومفاجأتها ، اما تلبية لطلب أقباطها ، واما ابتغاء اثارة العوامل الدينية فيهم ، فيهبون لمساعدتهم على استردادها .

فلم تمض أربع سنوات على فتح الاسكندرية الأول الا وغضب أحد كبار القبط من اجابة عمرو له : « انكم خزانة لنا : ان كثر علينا كثرنا عليكم ؛ وان خفف عنا خففنا عنكم ! » وخرج الى الروم يستقدمهم الى الاسكندرية .

وكان عثمان بن عفان ، فى هذه الأثناء ، قد عزل عمرو بن العاص، وولى عبد الله بن سعد بن أبى السرح مكانه . فرأى الروم أن يغتنموها فرصة ، ويعيدوا مصر الى حوزتهم .

فلبوا دعوة صاحب (اخنا) القبطى الذى خرج اليهم وأقبـل (مانوئيل) الخصى بهم فى المراكب الى الاسكندرية . فأجابهم من بهـا من الروم ، وسلموهم المدينة . فسأل مسلمو مصر عثمان أن يقر عمرا حتى يفرغ من قتال الروم : فان له معرفة بالحرب وهيبة فى العدو . فأجابهم عثمان الى طلبهم . وسار عمرو الى استرداد الثغر من محتليه . وكان على الاسكندرية سورها المنيع . فحلف عمرو بن العاص لئن أظفره الله عليهم ليهدمن ذلك السور حتى يكون مثل بيت الزانية ، يؤتى من كل مكان .

وكان قد انضم الى الروم فى الاسكندرية كل من نقض الصلح

من أهل القرى . فكبر بهم جيش الروم ، وتجاسر على الخروج من الثغر . فمادت أرض مصر بمن فيها من العرب وخيف انتقاضها كلها — كما مادت كلها بالأجانب فى صميمها لما دخلت تركيا الحرب العالمية الى جانب دولتى أواسط أوروبا — ولولا أن المقوقس أقام على عهده وما نكث ، لالتهب القطر من أقصاه الى أقصاه ، ولساءت العاقبة على أولاد البادية — كذلك كان يكون الأمر فى سنة ١٩١٤ ، لاسيما بعد انضمام الخديو عباس الثانى الى الاتراك وحلفائهم ، لولا اقامة الحكومة المصرية الرشيدة ، وعلى رأسها صاحب الدولة رشدى باشا على عهدها وعملها بما يوجبه عليها الولاء لمصالح البلاد الحقيقية أكثر مما يوجبه عليها الولاء لأمير البلاد المتخلى عنها .

ولكن المقوقس لم يكتف بالمحافظة على عهد الصلح ، بل انه انضم الى العرب بمن أطاعه من القبط ، وخرج معهم الى قتال الروم — هكذا فعلت فى سنة ١٩١٤ الحكومة المصرية : فانها انضمت الى الحلفاء وأخرجت فرقة مصرية لتقاتل بجانبها على ضفة ترعة السويس : فوضعت ، بذلك ، دينا فى عنق انجلترا وأعناق حلفائها لم يعد سداده ممكنا الا باعترافهم لمصر باستقلالها .

وقال خارجة بن حذافة لعمرو : « ألا ناهض الأعداء قبل أن يكثر مددهم . فلا آمن أن تنتقض مصر كلها » فأبى عمرو ، وقال : « انى أدعهم يسيرون الىّ ، فيصيبون من يمرون به ، فيخزى الله بعضهم ببعض ! »

وهكذا كان . فان الروم والمنضمين اليهم جعلوا ينزلون القرية ،

فيشربون خمورها ، ويأكلون أطعمتها ، وينتهبون كل ما استطاعوا نهبه ، حتى ضجت منهم الأهالى . فما بلغوا (نفيوس) الا والحنق عليهم عام . غير أن ثقتهم بنفوسهم كانت قد ازدادت ، لوقوف العرب منهم موقف المتباطىء فى القتال . فهاجموهم والموالين لهم من القبط فى البر والبحر ، ونفحوهم بصيب من النشاب ، أصابت واحدة منها فرس عمرو فى لبته ، فعقرته . ثم حملوا عليهم حملة ولى المسلمون منها ، وانهزم شريك بن سمى ، قائد الفوارس بخيله .

غير أن عمرا ما لبث أن شدد عزائم أجناده . فشدوا على أعدائهم وهزموهم ، وطلبوهم حتى ألحقوهم بالاسكندرية ، وأمعنوا فيها وراءهم . فقتل (مانوئيل) الخصى وخلق كثير من جنوده . ولم يرفع عمرو السيف عنهم حتى كلم فى ذلك . فاستغنى عن قتلهم بأن برّ بيمينه وهدم سور المدينة .

وكان أهل (وردان) — ويقال انهم كانوا رهبانا ؛ ولكن ليس ما يثبت ذلك — قد غدروا ، أثناء الواقعة ، بقوم من ساقة عمرو ، لما بلغ عمرو الكريون ، وقتلوهم . فوجه عمرو اليهم (وردان) ، فقتلهم وخرب قريتهم .

* * *

غير أن سوء مغبة حملة الروم هذه على الاسكندرية لم ييئسهم من الفوز باسترجاع مصر الى أحكامهم بحملة غيرها : لأن مصر كانت مخزن غلال القسطنطينية ، والجوع ، منذ اضاعتها ، بات يهدد العاصمة البيزنطية كل عام .

فحمل صخب الشعب القسطنطيني حفيد هرقل على اعادة الكرة على مصر ، فعبأ لهذا الغرض ، ألف مركب — على زعم مؤرخي العرب — وأرسلها الى مهاجمة الاسكندرية سنة ٣٤ هـ .

فما رست فى ثغرها ورأى العرب كثرة عدتها الا واسقطوا فى أيديهم وبانت أفئدتهم عنهم . ولكن رجلا من أهل المدينة كان متطوعا مع الأمير عبد الله بن أبى السرح ، قام بينهم وقرأ بصوت عال الآية : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله . والله مع الصابرين ! » فعادت أفئدة العرب اليهم ، وهبّ أميرهم يقول : « اركبوا ! اركبوا ! فالله مع الصابرين ! »

ولم يكن لدى العرب سوى مائتى مركب . فنزلوا فيها وساروا الى مقاتلة الروم . فتراموا بالنبل والنشاب ؛ ثم بالحجارة ؛ ثم ربطوا المراكب بعضها ببعض — كما فعل رومانيو دويلس مع القرطاجيين، قبل ذلك بنيف وثمانمائة عام — واقتتلوا بالسيوف . وكادت مركب (عبد الله) تجتر الى العدو لولا أن (علقمة بن يزيد القطيفى) — وكان معه فيها — وثب الى المقدم ، وضرب السلسلة بسيفه ، فقطعها على مرأى من (بسيسة) امرأة (عبدالله) — لأن العرب كانوا وقتئذ يغزون بنسائهم — فقالت لزوجها : « لعلقمة أشد الرجال قتالا ! » — ومع أنها كانت مخطوبة لعلقمة قبل أن تتزوج عبد الله لم يحجبها عبد الله عنه ، ولم تغظه منها تلك الصراحة ، كما أغاظت فى واقعة (القادسية) صراحة أرملة (المثنى) سعد بن أبى وقاص زوجها بعد وفاة ذلك البطل .

وبعد قتال عنيف ، دام عدة ساعات ، أسفرت المعركة عن فوز العرب بالرغم من قلة عددهم ، وعن قهرهم عدوهم قهرا مبينا . وعرفت تلك الواقعة عندهم (بغزوة الصوارى) ، لكثرة صوارى المراكب واجتماعها فيها .

وكانت واقعة قاضية فلت عزائم الروم الى أمد بعيد ، وحولتهم عن فكرة استرجاع القطر المصرى . اذ أدركوا أن لا أمل لهم فى ذلك . فعمدوا، بعدها ، الى القرصنة ، وأخذوا يطرقون بلادالساحل المرة تلو الأخرى ، يرمون بذلك هدفين . الأول : أسر ما استطاعوا من المسلمين وسبيهم ؛ والثانى : تفهيم مسيحيي مصر أن بأسهم لايزال شديدا وذراعهم قوية ، يركن اليها .

ففى سنة ٥٣ هـ نزلوا البرلس ، وقاتلوا فيها .فقتل يومئذ وردان ، مولى عمرو بن العاص فى جمع من المسلمين .

وفى سنة ٩٠ هـ نزلوا على دمياط : فأسروا خالد بن كيسان حاكمها ، وسيروه الى القسطنطينية .

وفى سنة ١٠١ هـ نزلوا على تنيس اذ كان أميرا على مصر (بشر ابن صفوان) الكلبي من قبل (يزيد بن عبد الملك) فقتلوا (مزاحم ابن مسلمة) أميرها مع جمع من الموالى وسبوا جما غفيرا .

وفى سنة ١١٧ هـ نزلوا على تروجة ، وحاصروها . فقاتلهم الوالى (عبد الرحمن بن خالد) وطردهم عنها . ولكنهم نازلوا دمياط ، بعد ذلك ، بأربع سنوات ، فى ثلثمائة وستين مركبا ، اذ كانت خلافة هشام ابن عبد الملك . فقتلوا وسبوا وارتكبوا نكرا كبيرا .

ولما كانت الفتنة بين الأخوين (محمد الأمين) و (عبد الله المأمون) — وهى فتنة ارتجت لها أرض مصر كلها ومادت بمن فيها — طمع الروم فى البلاد، ونازلوا دمياط فى أعوام بضع ومائتين. ولكنهم لم يبلغوا منها وطرا.

فعادوا ونازلوها يوم وقفة عرفات من سنة ثمان وثلاثين ومائتين، فى خلافة المتوكل على الله، وأمير مصر يومئذ عنبسة بن اسحق. فملكوها، هذه المرة، وما فيها؛ وقتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين وسبوا النساء والأطفال وأهل الذمة. فنفر اليهم (عنبسة بن اسحق) يوم النحر فى جيشه؛ ونفر كثير من الناس اليهم. فلم يدركوهم؛ ومضى الروم الى تنيس، فأقاموا بأشتومها (والاشتوم هو المكان الذى يعبر منه ماء البحر الملح الى البحيرة).

ثم عادوا فى سنة ٣٠٧ وطرقوا دمياط مرة أخرى فى نحو مائتى مركب. فأقاموا يعبثون فى السواحل شهرا، وهم يقتلون ويأسرون. وكانت للمسلمين معهم معارك دموية.

وفى سنة ٣٤٣ ﻫ نزل الروم على مدينة الفرما، على شط بحيرة تنيس. فنفر الناس اليهم وقتلوا منهم رجلين. فارتدوا عنها. ولكنهم عاودوها سنة ٣٤٩ ﻫ. فخرج اليهم المسلمون، وأخذوا منهم مركبا وقتلوا من فيه وأسروا عشرة.

ثم لما كانت الفتن، بعد موت كافور الاخشيدى، طرق الروم دمياط، آخرة مرة، فى مدة حكم العرب، فى رجب من سنة ٣٥٧، فى بضع وعشرين مركبا. فقتلوا وأسروا مائة وخمسين من المسلمين.

وهكذا كان العالم فى تلك الأيام السوداء ، مرسحا مستديما للحروب والغزوات والقرصنة وفظائعها . وكانت شعوبه ، بفضل اختلافهم فى الجنس والدين والموطن ، أعداء ألداء بعضهم لبعض ، لا هم لهم الا التقاتل والتناحر وعمل القوى على أسر الضعيف واستعباده ! [١]

(١) ضربنا صفحا عن ذكر الغزوات الخارجية التى قام بها العرب فيما وراء الحدود المصرية لأنها جزء من التاريخ العربى البحت ، ولا دخل لمصر فيها .

الفصل الرابع

تغلب المسلمين على قرى مصر

على أن جميع غزوات الروم وحملاتهم المتعددة ، ان لم تقدهم فائدة محسوسة ، فقد أضرت بالأقباط من أهل مصر ضررا بالغا . لأنها ختمت على نفرة قلوب المسلمين منهم ، وكانت السبب الأكبر فى حقدهم عليهم ، والعمل على اذلالهم ، لما رأوا عليهم من سيماء السرور والابتهاج كلما سمعوا بتقدم الروم الى مصر وفوزهم الجزئى المؤقت .

ولم يروا أبلغ فى نكايتهم من انتزاع الأرض المصرية من تحت أيديهم . وكان الفتح قد أبقاها لهم . لأن عمر بن الخطاب لم يكن يرى مصلحة الاسلام فى تقسيم أطيان البلاد المفتتحة بين فاتحيها من العرب ؛ ولاعتباره الأمة العربية أمة اختارها الله لتجاهد فى سبيل نشر دينه ، كان يريد أن يكون العرب نبلاء الاسلام ، لايشتغلون بسوى الحرب والطعان . ولا يتدنون للاشتغال بالزراعة والتجارة والصناعة . فيقيمون فى الأقطار التى يكتسحونها كجيش مرابط ، دائم الاستعداد لمواجهة الطوارىء ؛ ويقوم أهلوها بتقديم حاجيات الحياة لهم ، اما مباشرة واما بواسطة الخراج الذى يدفعونه .

لذلك حظر قسمة أراضى سواد العراق وسورية ومصر ؛ وأبقاها

فى أيدى زراعها الأصليين يفلحونها لبيت مال المسلمين ، كما كانوا يفلحونها لسادتهم من الفرس والروم .

قلنا زراعها لا أصحابها . لأن معظم الأطيان فى الدولتين ، الفارسية والرومية ، كانت لكبار الرجال ونبلائهم ، يشغلون فيها جمهورا من الفلاحين المرتبطين بها ، والذين لم تكن تسوغ لهم مفارقتها ، ويأخذون منهم معظم ايراداتها .

فأبقى عمر الحال على ما كانت عليه ؛ وفى كثير من الأحيان اجتهد فى تلطيف مقدار الخراج على المزارعين . فكان ذلك من ضمن الأسباب التى حببت الفتح العربى ، فى أوله ، الى الصعاليك والوضعاء ، وكل من كان عبدا قنا لأصحاب الطين .

ولكن الخلفاء ، بعد عمر ، لم ينسجوا على منواله : لأن دائرة الفتوحات اتسعت كثيرا ، وبات من الخطر على الدولة ألا تحبب الى الغزاة الاقامة فى البلد الذى يفتحونه . فصرحوا للعرب باقتناء الأملاك العقارية ، واتخاذ الزرع معاشا وكسبا .

فأخذ العرب — منذ ذلك الحين — يعملون على الاستزادة من تلك الأملاك . ولم يجدوا للاستزادة منها فرصة ، فى مصر ، خيرا من اخراج المتمردين من القبط عما فى أيديهم من طين وعقار .

فوضعوا ، فى بادىء أمرهم مبدأ فحواه : أن كل من هلك ممن جزيته على رؤوس الرجال ، ولم يدع وارثا ، فأرضه للمسلمين . ثم سنوا عقوبة للخارج عليهم من القبط ؛ فوق قتله وسبى أهل بيته ، مصادرة أملاكه وضبطها لبيت مال المسلمين — ولو كان له ورثة لم يشتركوا

فى جريمته — وبيت مال المسلمين يتصرف — بعدئذ — فى تلك الأموال ، يبيعها لمن يشاء من المؤمنين . وكانت هذه معاملة كل من خرج على دولته ، فى تلك الأيام ، ولا تزال كذلك فى البلاد القليلة التى ما فتىء الحكم فيها استبداديا مطلقا . ثم تعدوا ذلك فى سنة ٩٩ هـ ، أيام أن كان الخليفة عمر بن عبد العزيز ؛ وأخذوا ينزعون مواريث القبط عن الكور ، ويستعملون المسلمين عليها عوضا عن زعماء الذمة .

وبما أن عدد الداخلين من القبط فى دين الأسلام كان يتزايد يوما فيوما للأسباب التي سبق لنا ايضاحها فى غير هذا المكان [١] ، فانه لم يمض القرن الأول من الهجرة الا وأصبح أكثر من نصف الأطيان المصرية فى أيدى المسلمين . واستمر هذا النصف يأكل من النصف الثانى أكلا محسوسا الى أن أوقع المأمون بالقبط الثائرين ثورتهم الأخيرة التي ذكرناها ، وانتزع منهم الأطيان التي كانت لاتزال تحت أيديهم ، الا بعضها ، أحسن أصحابها سياستهم معه ، فأبقاها لهم .

ومن لطيف مايرويه مؤرخو العرب فى هذا الباب ، وان كانت صبغة الخرافة عليه بادية ، أن المأمون ، وهو يتفقد كور القطر المصرى ، مر بقرية يقال لها (طاء النمل) — والأسم عربى ينم بأن

(١) كتب (حيان بن شريح) الى (عمر بن عبد العزيز) : « أما بعد فان الاسلام قد أضر بالجزية . . . فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها ، فعل » . فكتب اليه عمر : « قد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا . فضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك . فان الله انما بعث محمدا هاديا ، ولم يبعثه جابيا . ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه » !

القصة مخترعة في أجيال تالية لأغراض قد لايفوت اللبيب ادراكها — فلما تجاوزها ، خرجت اليه عجوز تعرف (بمارية القبطية) ، صاحبة القرية ، وهى تصيح . فظنها المأمون مستغيثة ، متظلمة . فوقف لها ، وكان لايمشى أبدا الا والتراجمة بين يديه من كل جنس ، فذكروا له أن القبطية قالت : « يا أمير المؤمنين نزلت فى كل ضيعة ، وتجاوزت ضيعتى . والقبط تعيرنى بذلك . وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفنى بحلوله فى ضيعتى ، ليكون لى الشرف ولعقبى، ولاتشمت الأعداء بى». وبكت بكاء كثيرا فرق لها المأمون وثنى عنان فرسه اليها ، ونزل . فجاء ولدها الى صاحب المطبخ ، وسأله « كم تحتاج من الغنم والدجاج والفراخ والسمك ، والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة وغير ذلك مما جرت به عادته ؟ » فأحضر جميع ذلك اليه بزيادة .

وكان مع المأمون أخوه (المعتصم) وابنه (العباس) وأولاد أخيه (الواثق) و (المتوكل) و (يحي بن أكثم) والقاضى (أحمد بن داود) ، فأحضرت القبطية لكل واحد منهم ما يخصه على انفراد ولم تكل أحدا منهم ولا من القواد الى غيره . ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئا كثيرا ، حتى أنه استعظم ذلك .

فلما أصبح ، وقد عزم على الرحيل ، حضرت اليه ومعها عشر وصائف ، مع كل وصيفة طبق . فلما عاينها المأمون من بعد ، قال لمن حضر : « قد جاءتكم القبطية بهدية الريف : الكامخ والصحناه والصبر » . فلما وضعت ذلك بين يديه ، اذا فى كل طبق كيس من

ذهب . فاستحسن ذلك ، وأمرها باعادته . فقالت : « لا والله ! لا أفعل ! » فتأمل الذهب . فاذا به ضرب عام واحد كله . فقال : « هذا ، والله ، أعجب ! ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك ! » فقالت : « يا أمير المؤمنين ، لا تكسر قلوبنا ، ولا تحتقر بنا ! » فقال : « ان فى بعض ما صنعت لكفاية ، ولا نحب التثقيل عليك . فردى مالك ، بارك الله فيك ! » فأخذت قطعة من الأرض ، وقالت : يا أمير المؤمنين ، هذا — وأشارت الى الذهب — من هذا — وأشارت الى الطينة التى تناولتها من الأرض — ، ثم من عدلك ، يا أمير المؤمنين . وعندى من هذا شىء كثير ! » فأمر به ؛ فأخذ منها ؛ وأقطعها عدة ضياع ؛ - وربما كانت من ضياع من صودرت أموالهم من الثائرين اخوانها - وأعطاها من قريتها (طاء النمل) ماتى فدان بغير خراج ؛ وانصرف متعجبا من كبر مروءتها وسعة حالها .

وكان العرب — قبل أن تؤول اليهم ملكية الأرض الزراعية ، ويتخذوا الزرع معاشا ومكسبا — يتقاضون الرواتب من بيت المال : كل على قدر احتياجه . فكانت اسماؤهم مقيدة — لهذا الغرض — فى سجلات خصيصة ، يقال لمجموعها « الديوان » ؛ ويقال لجمهور المقيدة اسماؤهم فيها « أهل الديوان » .

وأول تدوين بمصر كان على يد عمرو بن العاص . ثم جعل معاوية على كل قبيلة من قبائل العرب فيها رجلا يصبح كل يوم ؛ فيدور على المجالس ، ويقول : « هل وليد الليلة فيكم مولود ؟ هل نزل بكم نازل ؟ » فيقال : « ولد لفلان غلام ، ولفلان جارية ! » فيكتب اسماءهم ؛ ويقال :

« نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله » ؛ فيسميه وعياله . فاذا فرغ من القيل ، أتى الديوان حتى يثبت ذلك .

وعند بعض المؤرخين أن من هذه الحالة نشأ علم الأنساب عند العرب ؛ وأن ما يقال عن وجوده عندهم قبل احتياجهم الى تدوين أسماء متقاضى العطاء ومن يحق لهم تقاضيه ، وعمن كان متضلعا فى ذلك العلم قبل ذلك كالخليفة الأول أبى بكر الصديق وغيره ، حديث خرافة لا يصح الأخذ به . ويقيم أولئك المؤرخون على قولهم هذا أدلة كثيرة مقنعة ، لا محل لذكرها هنا . والله أعلم على كل حال .

فلما شاع تملك العرب الأرض الزراعية ، وأدى ذلك ، مع تمادى الأيام ، الى سقوط أسماء كثيرين منهم ومن ذراريهم من القيد بالديوان ، والى اضطرار ذوى الأمر أن يتخذوا جنودا بدلا منهم ويقيدوهم مكانهم فى السجلات ؛ واذ أوجد الموت ، من جهته ، فراغا متتابعا بين أصحاب الأسماء المدونة ، رأى (عبد العزيز بن مروان بن الحكم) ـ وهو ابن خليفة وأخو خليفة ، وقد تولى أمر مصر ما بين سنة ٦٥ و سنة ٨٦ هـ ـ أن يدون تدوينا ثانيا لضبط ما آلت اليه الحال . ففعل .

فكان ذلك مثلا اقتدى به (قرة بن شريك) ، ثانى خلفائه ، ما بين سنة ٩٠ و سنة ٩٦ هـ . فدون تدوينا ثالثا ؛ و (بشر بن صفوان) ثالث خلفاء (قرة) ما بين سنة ١٠١ وسنة ١٠٢ هـ ؛ فدون تدوينا رابعا ، بقى معمولا به الى أن أذن (هشام بن عبد الملك) (لقيس) بالرحيل الى مصر والاقامة فيها سنة ١٠٩ هـ ، بناء على التماس (عبيد الله

ابن الحبحاب) متولى الخراج فيها - ويؤخذ من قصر الفترة ما بين تدوين وتدوين ، ومن ذكر هذا « الاذن » الصادر من (هشام بن عبد الملك) ما يدل على سرعة شيوع تملك العرب للأرض الزراعية وعلى اضطرار العمال الى استدعاء قبائل عربية جديدة تحل محل المنقلبين ملاكا وزراعا فى المرابطة بالمعسكرات ، وتقييد اسماء أهلها فى السجلات .

فنزح منهم الى الحوف الشرقى ، أى الى بلبيس والكور المحيطة بها ، مائة أهل بيت من (بني نضر) ؛ ومائة أهل بيت من (بنى سليم) ؛ ثم تبعهم ألف بيت آخرون من البادية . فألحقوا كلهم بالديوان .

ويستوقف هنا النظر تكرر نزول الأقوام القادمين جملة من الديار السورية الى القطر المصرى ذلك الحوف الشرقى ، من البلاد ، منذ أيام يعقوب اسرائيل أبي يوسف الصديق - على ما ترويه التوراة - الذى نزل بأهله أرض غسان (وهي ما ترويه ترعة الاسماعيلية الآن ما بين بلبيس والتل الكبير) الى الأيام التى نقص الآن أخبارهم

فلما ارتقى عرش الخلافة (مروان الحمار بن محمد الجعدى) آخر الأمويين ، واطلع على كثرة ما آل من أطيان مصر الى العرب الذين فيها ، رأى أن فى ما تغله لهم الأرض ما يغنيهم عن العطاء المقرر لهم فى الديوان . فقطعه عنهم ، رسميا .

ولكن الثورات فى ممالكه الشرقيه ما لبثت أن قامت تناوئه العداء ؛ وما لبث أمر الدعوة العباسية أن تفاقم وتطاير شرره . نخاف

(مروان) نفرة قلوب أهل الديوان بمصر منه . فكتب اليهم كتابا يعتذر فيه عما فعل ، ويقول : « انى حبست عنكم العطاء السنة الماضية لعدو حضرنى فاحتجت الى المال . وقد وجهت اليكم بعطاء السنة الماضية وعطاء هذه السنة ، فكلوه هنيئا مريئا . وأعوذ بالله أن أكون أنا الذى يجرى الله قطع العطاء على يديه ! »

ولما أخمدت الثورة الكبرى التى قام الأقباط بها فى عهد المأمون ، مع من انتقض من المسلمين بأسفل الأرض ، وأصدر المأمون حكمه الصارم فيهم ، بلغ من تغلب العرب على قرى مصر أن المعتصم أبا اسحق محمد بن هرون رأى فى استمرارهم على أخذ الأعطية ، مع تعيشهم من الأرض . وانقطاع معظمهم عن المرابطة فى سبيل الجهاد ، ومع قيام جند من التركمان مكانهم فى الدفاع عن بيضة السلطنة والدين ، اجحافا كبيرا بمالية الدولة . فكتب الى (كندر ابن نصر الصفدى) أمير القطر يأمره باسقاط من فى ديوان مصر من العرب ، وقطع العطاء عنهم . ففعل ذلك .

الفصل الخامس

الحروب الأهلية والفتن ، وانقراض دولة العرب من مصر

فكان عمله هذا مدعاة الى آخر حرب أهلية وفتنة عربية قامتا فى أرض مصر .

فان (يحي بن الوزير الجروى) قال (لكندر) : « هذا أمر لا يقوم فينا أفضل منه ، لأنا منعنا حقنا وفيئنا » ؛ وخرج عليه فى جمع من لخم وجزام . فاجتمع اليه نحو خمسمائة رجل وأشهروا راية العصيان ، فسار اليهم (المظفر بن كندر) وقاتلهم فى بحيرة تنيس ، وأخذ (يحي) زعيمهم أسيرا

فانقرضت ، بذلك ، دولة العرب من مصر .

وكانت دولة كثرت فيها الفتن والحروب الأهلية الى درجة يستغربها كل غير عالم بأخلاق العرب وطبائعهم ، ولا يستغربها من عرف تلك الأخلاق والطباع وألم بالمخاصمات التى نجمت عنها ، والتى أوجبت فوضى مريعة فى شبه الجزيرة العربية ، قبل ظهور الاسلام فيها وبعد مقتل عمر بن الخطاب .

فلما تكلم الناس بالطعن فى عثمان بن عفان ، غادر (عبد الله بن ابى السرح) مصر وسار الى المدينة مستخلفا على القطر (عقبة بن عامر الجهنى) ، فتآمر عليه (محمد بن أبى حذيفة) حفيد (عبد شمس) بن

(عبد مناف) وأخرجه من الفسطاط ، ودعا الى خلع عثمان ، وحرض عليه بكل شر فى وسعه ، وأسعر البلاد ضده ، فاعتز له شيعة عثمان ، ونابذوه فى جمع كثير ، وبلغوا صاحبهم عنه .

فبعث عثمان اليهم بسعد بن أبى وقاص ، بطل (القادسية) ، ليصلح ما اختل من الأمر ، فخرج اليه جماعة من حزب (ابن أبى حذيفة) فقلبوا عليه فسطاطه ، وشجوه وسبوه ، فركب وعاد راجعا ، وهو يدعو اليهم .

ثم أقبل (عبد الله بن أبى سرح) ، فمنعوه أن يدخل . فانصرف الى (عسقلان) وبعث (ابن حذيفة) بجيش الى المدينة لقتال عثمان فقتلوه ، وأخوه من الرضاعة فى (عسقلان) .

فلما بلغ نبأ مقتل عثمان شيعته بمصر ، عقدوا (لمعاوية بن حديج) وبايعوه على الطلب بدم عثمان ، وساروا الى الصعيد . فبعث اليهم ابن أبى حذيفة خيلا . فهزمت . ومضى (ابن حديج) الى (برقة) ، ثم رجع الى الاسكندرية . فبعث اليه ابن أبى حذيفة بجيش آخر فاقتتلوا (بخربتة) فى البحيرة ودارت الدائرة على الجيش ، فأقامت شيعة عثمان بخربتة وقدم معاوية بن أبى سفيان يريد الفسطاط . فنزل (سلمنت) فخرج اليه ابن أبى حذيفة فى شيعة على ، ووقفوا فى سبيله .

ثم اتفق الطرفان على أن يجعلا رهائن ، ويتركا الحرب — وكانت خدعة من معاوية تذكر بما كان مثلها فيما بعد مع (على بن طالب) — فاستخلف ابن أبى حذيفة على مصر (الحكم بن الصلت) ، وخرج

فى الرهن هو وعدة من قتلة عثمان منهم (عبد الرحمن بن عديس). فلما بلغوا (اللد) فى فلسطين سجنهم معاوية بها، وسار الى دمشق. فهربوا من السجن. فتبعهم أمير فلسطين، وقتلهم. واتبع عبد الرحمن بن عديس رجل من الفرس. فقال له عبد الرحمن: «اتق الله فى دمى: فانى بايعت النبى تحت الشجرة!» فقال له: «الشجر فى الصحراء كثير!» وقتله.

وبينما كان النزاع على الخلافة قائما بين على ومعاوية، عين على (محمد بن أبى بكر) أميرا على مصر. فدخلها سنة ٣٧ ﻫ؛ وكان من أكثر قتلة عثمان تطرفا فى بغضه له ولشيعته. فأقبل على هدم دورهم، ونهب أموالهم وسجن ذراريهم. فناصبوه العداء، ونصبوا له الحرب. ثم صالحهم على أن يسيرهم الى معاوية. فلحقوا بمعاوية بالشام. فتقوى بهم ساعده. ثم ما لبث أن بعث عمرو بن العاص فى جيوش أهل الشام الى مصر. فخرج اليهم محمد بن أبى بكر بأعوان على، وقاتلهم قتالا شديدا. ولكنه انكسر، وفر ملتجئا الى بعض الخرابات. فظفر به معاوية بن حديج، وضرب عنقه بالسيف. ثم جره برجله، وطاف المدينة به كأنه كلب. ثم جعله فى جيفة حمار ميت، وأحرقه بالنار! — وكان صهر الرسول (صلعم) وابن (ثانى الاثنين) فى الغار!!! فما أفظع الأحقاد بين الأحزاب! وما أعماها عن الواجب، بل عن المصالح ذاتها!

قال الكندى: «وأرسل قاتله قميصه ملوثا بدمه الى المدينة. فلما وصل الى دار عثمان بن عفان، اجتمعت عصبة هذا الخليفة

المقتول ونساؤه وأظهروا الفرح والسرور اللذين لامزيد عليهما . ولبست (نائلة) ، أرملة عثمان المقطوعة أناملها وهى تدافع عن بعلها ، ذلك القميص ، ورقصت به بين الرجال . وقالت (هند بنت شمس) الحضرمية انها رأت نائلة تقبل رجل ابن حديج وتقول : « بك أدركت ثأرى من ابن الخثعمية ! » وقال بعضهم : « بل (أم حبيبة بنت أبى سفيان) ، أخت معاوية واحدى أزواج النبى هى التى فعلت ذلك الفعل » ، فكأن الفتنة أثارت الأحقاد حتى بين « أمهات المؤمنين » فكدن ، بعضهن لبعض . وقيل ان اخت ابن حديج أرسلت فى ذلك اليوم خروفا مشويا الى (عائشة) بنت (أبى بكر) وزوج الرسول (صلعم) المحبوبة ، وقالت لها : « هكذا شوى أخوك محمد بمصر ! » فحلفت (عائشة) ألا تأكل شواء قط حتى تموت ! ومع ذلك استمرت على عدائها لعلى ، ولم يتمكن حقدها على قتلة أخيها المحبوب من التغلب على حقدها على علىّ المتأجج فى فؤادها منذ أشار على النبى (صلعم) بطلاقها ، عقب حادثتها المشهورة مع (صفوان) .

وقيل أيضا ان نساء المدينة دخلن ، يومئذ ، على (اسماء بنت عميس) أم الأمير محمد المقتول ، وقلن لها : « قد قتل ابنك محمد بمصر ، وأحرقوه فى جوف حمار ميت ! » وكانت قائمة تصلى . فعضت على شفتيها حتى سح ثدياها دما من شدة أسفها .

وان قارىء هذه الأساطير ليأخذه العجب العميق من قلة مبالاة رجال صدر الاسلام بأسرة النبى (صلعم) واقدامهم على ايذائها ،

والفتك برجالها، ونكاية نسائها بقلوب خفيفة، واستهانة فاحشة!!!

على أن من تعقب أنساب الزعماء فى الحروب التى دارت رحاها والفتن التي اتقد أوارها بين العرب، منذ ظهور الدعوة النبوية الى استتباب الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان، ومن بعد وفاة هذا الخليفة الى قيام الدولة العباسية على انقاض الدولة الأموية، تبين أن السبب فى معظمها المنافسة القديمة على الزعامة والرياسة بين بيتى (عبد شمس) و(أمية) القرشيين؛ وتغلب بيت أمية على بيت عبد شمس من عهد قيام المنافسة بينهما الى عهد ارتقاء العباسيين أريكة الخلافة. ومن سار منقبا عن الحقائق التاريخية على بصيص النور الضئيل المنبعث الى الأفهام عن تطورات تلك المنافسة قد يبلغ الى معلومات فضاحة، ربما أدت الى قلب التاريخ المتفق عليه، ما بين ظهور (هاشم) الجد الثانى للنبي (صلعم) واستتباب أقدام الدولة العربية في الأصقاع التى امتد عليها ظلها، رأسا على عقب.

* * *

ولما سار عتبة بن أبى سفيان خليفة عمرو بن العاص على امارة مصر الى أخيه معاوية بدمشق، استخلف على دست امارته (عبد الله بن قيس) — وكان فيه شدة — فكره الناس ولايته، وامتنعوا منها، وكادت تقوم بينهم فتنة. فبلغ ذلك عتبة، فرجع الى مصر، وصعد المنبر، وقال: «يا أهل مصر، قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم لبعض الجور عليكم؛ وقد وليكم من اذا قال فعل. فان أبيتم درأكم بيده، فان أبيتم درأكم بسيفه، ثم رجا فى الآخر ما أدرك

فى الأول . ان البيعة شائعة : لنا عليكم السمع ، ولكم علينا العدل . وأينا غدر ، فلا ذمة له عند صاحبه ! » فناداه المصريون من جنبات المسجد : « سمعا ! سمعا ! » فناداهم : « عدلا ! عدلا ! »

***

ولما مات يزيد بن معاوية — وهو الذى قُتل الحسين فى خلافته — دعا عبد الله بن الزبير الى نفسه . فقام الخوارج الذين بمصر وأظهروا دعوته ، وسارت جماعة منهم اليه . فبعث معهم (عبدالرحمن بن جحدم) ، وضم اليه جمعا كثيرا من الخوارج . فأظهروا التحكيم ودعوا الى ابن الزبير . فاستعظم الجند ذلك ، وبايعه الناس على غل فى قلوب شيعة بنى أمية . ثم بويع مروان بن الحكم بالخلافة ، وأهل مصر معه فى الباطن . فسار اليها ، وبعث ابنه (عبد العزيز) بجيش الى آيلة — وهى مدينة على شاطىء البحر الأحمر فيما بين مصر ومكة . وهى أول حد الحجاز ، وبينها وبين (القدس الشريف) ست مراحل — ليدخل مصر من هناك . فأجمع (ابن جحدم) على حربه ، وحفر خندقا شرقى القرافة ؛ ولما أقبل مروان حاربه ، وقتل بينهما كثير من الناس . ثم اصطلحا ، ودخل مروان الفسطاط ؛ ووضع العطاء ، فبايعه الناس الا نفرا من المغافر قالوا : « لا نخلع بيعة الزبير » ، فضرب أعناقهم ، وكانوا ثمانين رجلا .

ثم أقام ابنه عبد العزيز أميرا على مصر ، وسار الى دمشق . فقال له عبد العزيز : « يا أمير المؤمنين ، كيف المقام فى بلد ليس لى به أحد من بُنى أبى ؟ » فقال له مروان « يا بنى عمهم باحسان يكونوا

كلهم بنى أبيك ؛ واجعل وجهك طلقا تصف لك مودتهم ؛ وأوقع الى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره، يكون لك عينا على غيره؛ وينقاد قومك اليك . وقد جعلت معك أخاك (بشرا) مؤنسا ، وجعلت لك (موسى بن نصير) وزيرا ومشيرا — وهو الذى فتحت فيما بعد الاندلس على يديه — وما عليك ، يا بنى ، أن تكون أميرا باقصى الأرض ؟ أليس ذلك أحسن من اغلاق بابك وخمولك فى منزلك ؟ »

ولما فارقه أوصاه قائلا : « أوصيك بتقوى الله فى سر أمرك وعلانيته . فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون . وأوصيك أن لا تجعل لداعى الله عليك سبيلا . فان المؤذن يدعو الى فريضة افترضها الله : « ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » . وأوصيك أن لا تعد الناس موعدا الا أنفذته لهم ، وان حملته على الأسنة . وأوصيك أن لا تعجل فى شيء من الحكم حتى تستشير . فان الله قد قال : وشاورهم فى الأمر ! »

فما أجمل هذه الوصايا ، لولا أن الموصى بها مروان بن الحكم ! وما أدلها على البون الذى بين أقوال رجال الصدر الأول وأفعالهم ! فهل الأقوال موضوعة لهم أو هو الانسان على العموم — لا سيما فى بلادنا الشرقية — يقول دائما مالا يفعل ؟!

فجهز عبد العزيز سنة ٧٢ هـ — أى فى مدة خلافة أخيه عبد الملك — بعثا عظيما لقتال ابن الزبير بمكة . فلما قتل هذا المدعى أخلدت مصر الى السكينة مدة ، حتى كانت ولاية (حسان

ابن عناهية) سنة١٢٧ هـ فى عهد (مروان الحمار) . أسقط هذا الأمير فروضا كثيرة وضعها (حفص بن الوليد) أحد سلفائه . فوثب أهل الديوان عليه ، وقالوا : « لانرضى الا بحفص » وركبوا الى المسجد ، ودعوا الى خلع مروان وحصروا حسان فى داره ، وقالوا له : « اخرج عنا . فانك لا تقيم معنا ببلد ! » فلحق حسان بمروان . فأمر مروان على مصر عوضا عنه (حنظلة ابن صفوان) . فامتنع المصريون من ولايته ، وأظهروا الخلع ؛ وأخرجوه الى الحوف الشرقى ، ومنعوه من القيام بالفسطاط ؛ ونادوا بحفص أميرا عليهم .

فسكت مروان عنهم بضعة أشهر ؛ ثم أرسل اليهم (الحوثرة بن سهيل) فى بضع آلاف . فاجتمع الجند على منعه ، فأبى حفص ذلك عليهم فسألوا حوثرة الأمان ، فأمنهم ، ونزل ظاهر الفسطاط ، وقد اطمأنوا اليه . فقبض على حفص وعلى وجوههم ، وقيدهم . فتشتت شمل المتمردين .

ولما تداعت أركان الخلافة الأموية ، حالف (عمرو بن سهيل) ابن عبد العزيز بن مروان على مروان قريبه ، واجتمع عليه جمع من (قيس) فى الحوف الشرقى . فبعث اليهم عبد الملك بن مروان ابن موسى بن نصير أمير مصر ، جيشا . فلم تكن حرب . واذا بمروان الحمار بن محمد عينه قد قدم مصر منهزما من بنى العباس . فرفع أهل الحوف الشرقى وأهل الاسكندرية وأهل الصعيد وأسوان الأعلام السود العباسية ، ووقعت بين الأمويين والعباسيين حروب بالكريون وفى الجيزة انتهت بقتل مروان وأسر حفيد ابن نصير ، وذبح كثيرين من

شيعة بنى أمية .

فاستقام عود الحكم ، بعد ذلك ، للعباسيين . ولم يضطرب حبله فى مصر فى عهد (السفاح) و (المنصور) الخليفتين الأولين من بنى العباس ، رغم قدوم (على بن محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن) داعيا لأبيه وعمه ، لأنه لم يفلح ولأنه أتى برأس عمه (ابراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسن) ، فنصب فى المسجد .

ولكن ، فى مدة خلافة (المهدى) بن المنصور ، وولاية (ابراهيم بن صالح) العباسى على مصر ، خرج (دحية بن المعصب) المروانى الأموى بالصعيد ، ونابذ ، ودعا الى نفسه بالخلافة . فلم يحفل (ابراهيم) بأمره وتراخى عنه حتى ملك دحية عامة الصعيد . فعزل المهدى عامله على مصر وولى مكانه (موسى بن مصعب) . فشدد هذا الأمير فى استخراج الخراج ، وزاد على كل فدان ضعف ما يقبل به ، وارتشى فى الأحكام ، وجعل خرجا على أهل الأسواق وعلى الدواب . فكرهه الجند ونابذوه . وثارت قيس واليمانية ، وكاتبوا أهل الفسطاط . فاتفقوا عليه . فلم يسقط فى يده ، ولكنه بعث جيشا الى قتال دحية بالصعيد ، وخرج هو نفسه فى جند مصر كلهم لقتال أهل الحوف . فلما التقوا ، انهزم عنه جنوده بأجمعهم وأسلموه . فقتل ، ولم تنتطح فيه شاتان .

وكان — حينما سار الى محاربة الثائرين — قد استخلف على الأمر (عسامة بن عمرو) . فبعث الى دحية جيشا مع أخيه (بكار بن عمرو) . وكان (يوسف بن نصير) على جيش دحية فتطاعن القائدان ،

ووضع كل منهما الرمح فى خاصرة عدوه : فقتلا معا ؛ ورجع الجيشان منهزمين .

هكذا تطاعن (بروتس) قالب النظام الملكى ومؤسس الجمهورية في روما القديمة ، و (أرنُس) بن (تركونيُس المتعجرف) آخر ملوك المدينة الأبدية فى واقعة بحيرة (ريجلُس)، وقتل كل منهما عدوه فأقامت الرومانيات الحداد سنة على (بروتس) المنتقم لشرف (لوكريسيا) أختهن الذى دنسه (سكستُس) أخو (أرنس).

فكاتب الناس ، حينذاك ، دحية ودعوه ليبايعوه . ولكن (موسى الهادى) — وكان قد ارتقى عرش الخلافة بعد موت المهدى أبيه — أرسل الى مصر (الفضل بن صالح) العباسى بجيش كثيف من رجال الشام . فسير الفضل العساكر الى دحية ؛ فهزموه ، وأسروه ، وساقوه الى الفسطاط ، حيث ضربت عنقه ، وصلب سنة ١٦٩ هـ .

ولما فرغ من أمره خوطب الخليفة — وكان هرون الرشيد أخا الهادى — فى أمر الأجناد العربية الذين ثاروا بمصر . فبعث ابراهيم ابن صالح العباسى لاخراجهم سنة ١٧٤ هـ . فأخرجهم الى المشرق والمغرب فى عالم كثير ، وسيرهم فى البحر . فأسرهم الروم . وكان ذلك بدء اضمحلال دولة العرب بمصر سنة ١٧٥ هـ .

وفى سنة ١٧٧هـ قدم مصر (اسحق بن سليمان) العباسى واليا عليها من قبل الرشيد . فكشف أمر الخراج ، وزاد على المزارعين زيادة أجحفت بهم . فخرج عليه أهل الحوف . فحاربهم . فقتل كثير من

أصحابه . فكتب الى الرشيد . فعقد الرشيد (لهرثمة بن أعين) فى جيش عظيم وسيره . وكان هرثمة من كبار القواد ، تتحدث الركبان بشدة بأسه وتخشع لكبير هيبته . فلما نزل الحوف تلقاه أهله بالطاعة ، وأذعنوا له .

ولكنهم عادوا فى سنة ١٨٦ هـ فخرجوا على (الليث بن فضل) عامل الرشيد ، وساروا نحو الفسطاط لقتاله . فهب اليهم فى أربعة آلاف . ثم استخلف (عبد الرحمن بن موسى) على الجند وسار الى (الرشيد) . فواقع عبد الرحمن أهل الحوف . ولكن جنده انهزم عنه الا مائتان منهم . فحمل بهم على المتمردين وهزمهم من أرض الجب الى (غيفة) ؛ وبعث الى الفسطاط بثمانين رأسا . فلم يروع ذلك أهل الحوف ، واستمروا يمانعون فى الخراج الا اذا جبى منهم بجيوش .

فتمردوا سنة ١٩١هـ ؛ وانضوى جماعة منهم من (جزام) الى رجل يقال له (أبو النداء) خرج بآيلة فى نحو ألف رجل ، وقطع الطريق بين مصر والشام . فسار جيش وعليه (يحي بن معاذ) الى بلبيس لاخضاع أهل الحوف . فاضطرهم الى الاذعان بالخراج . ولما فرغ من أمرهم قدم الفسطاط ، وكتب اليهم أن أقدموا حتى أوصى بكم الأمير (مالك بن دلهم) . فدخل الرؤساء من اليمانية والقيسية . فأخذت عليهم الأبواب ، وقيدوا ؛ وسار يحيي بهم الى الرشيد . فعاقبهم وسجنهم .

ولما مات الرشيد واستخلف ابنه محمد الأمين ، ثار الجند بمصر ، ووقعت فتنة عظيمة قتل فيها عدة سنة ١٩٤ هـ . فقدم ، من قبل

الأمين، (حاتم بن هرثمة) فى ألف من الأبناء ، ونزل بلبيس . فصالحه أهل الأحواف على خراجهم . ولكن أهل (تنو) و (تمى) - فى الوجه البحرى - ثاروا عليه وعسكروا . فبعث اليهم جيشا فانهزموا . ودخل حاتم الفسطاط ، ومعه نحو مائة من الرهائن .

غير أن أحد كبار الدولة — وكان يقال له (السرى بن الحكم) — ما لبث أن غضب للمأمون ، فقام ثائرا على الأمين ، ودعا الناس الى خلعه . فأجابوه ، وبايعوا المأمون ، فبلغ الأمين ذلك . فكتب الى رئيس (قيس الحوف) بولاية مصر ؛ وكتب الى جماعة بمعاونته . ففعلوا ، وساروا لمحاربة أهل الفسطاط . فخندق (عباد بن محمد) عامل المأمون على مصر ؛ واشتعلت بين الفريقين نيران حروب دموية ، استمرت متقدة بالرغم من قتل الأمين وصفاء الجو للمأمون أخيه ، لا سيما بعد خلع (المطلب بن عبد الله) ثانى عمال المأمون ، وقدوم (العباس بن موسى) العباسى مكانه ، ومعه (عبد الله) ابنه ورجل يقال له (الحسين بن عبيد) الأنصارى . فان هذين الرجلين سجنا (المطلب) الأمير السابق ، وتعسفا . فثار الجند مرارا . فنعهم الأنصارى أعطياتهم وتهددهم ، وتحامل الرعية ، وعسفها ؛ وتهدد الجميع . فثاروا ، وأخرجوا المطلب من حبسه ، وأقاموه واليا . فدس الى العباس سما فى طعامه مات منه . ولكن الحروب والفتن استمرت مشتعلة ، بالرغم من تعاقب الولاة على دست الامارة ، وبسبب تنازعهم الأمر .

وكان رجل يقال له (عبد العزيز الجروى) — سبق (لعباد

ابن محمد)، أول عملاء المأمون على مصر أن سيره فى جيش لمحاربة شيعة الأمين فى عقر دارهم، فحاربهم بعمريط، ولكنه انهزم، ومضى فى قومه من (لخم) و (جزام) الى فاقوس — قد رفع راية الاستقلال بالأمر، بناء على طلب قومه؛ وبعث عماله يجبون الخراج من أسفل الأرض. ثم أذعن لحكم عملاء المأمون، وتعين رئيسا لشرطتهم مرتين. ولكنه ما لبث أن عاد الى التمرد والعصيان والحرب الأهلية. فدعاه (السرى بن الحكم) الى الصلح، فلاطفه (الجروى) حتى جعله يخرج اليه فى زلاج فى وسط النيل، مقابل (سندفا)، وكان الجروى قد أعد فى باطن زلاجه حبالا، وأمر أصحابه بسندفا، اذا لصق بزلاج السرى أن يجروها اليهم. ففعلوا. فأسر السرى ومضى الجروى به الى (تينس) وسجنه فيها؛ ثم كر على جنوده، فظفر بها. وما فتىء هذا الرجل، بعد ذلك، يناوىء عمال مصر العداء، ويحاولهم، ويطاولهم حتى تسنى له خلع بعضهم ببعض، ثم تحزب لابراهيم بن المهدى ضد المأمون. فسار الى الاسكندرية وملكها؛ ودعى له بها، وببلاد الصعيد.

ثم سار فى جمع كبير الى قتال السرى ـ وكان هو نفسه قد أطلق سبيله من السجن وساعده على خلع المطاب من دست الولاية ـ فبعث اليه السرى ابنه (ميمونا). فالتقيا بشطنوف. فقتل ميمون؛ وأقبل الجروى فى مراكبه الى الفسطاط ليحرقها فخرج اليه أهل المسجد، وسألوه الكف. فانصرف عنها

وكانت الاسكندرية قد خرجت من قبضته. فحاربها غير مرة

الى أن قتل بها من حجر أصابه من منجنيقه سنة ٢٠٥ هـ.

ولم يوقف موته مجرى الفتن ، لأن ابنه عليا أخلفه على تمرده ؛ وحارب (محمد بن السرى) أمير مصر بشطنوف ، ثم بدمنهور ، حيث بلغ عدد القتلى بينهما سبعة آلاف ؛ وانتصر عليه ، وطاردته مراكبه الى الفسطاط . وبعد موت محمد ، حارب عبيد الله أخاه وانتصر لخالد بن الوليد عليه — وكان المأمون قد عينه بدل عبيد الله أميرا على مصر ؛ فمانعه عبيد الله ، وتغلب عليه ، رغم مؤازرة بن الجروى له .

فبعث المأمون بولاية عبيد الله على ما فى يده : وهو فسطاط مصر وصعيدها وغربيها ؛ وبولاية على بن عبد العزيز الجروى على تنيس مع الحوف الشرقى . فاختلف الاثنان على الخراج ، واقتتلا حتى أخرج ابن السرى ابن الجروى الى العريش . ولكنه ما لبث أن عاد وعادت معه الحروب الأهلية .

واذا بعبد الله بن طاهر أحد كبار قواد جيوش المأمون قد قدم لاخماد تلك الفتن المستمرة . فانضم ابن الجروى اليه سنة ٢١١ هـ . وأذعن ابن السرى له عقب قتال هين . فأجازه ابن طاهر بعشرة آلاف دينار ، وأقره بالخروج الى المأمون ؛ وأقر ابن الجروى على تنيس. فخمدت بذلك تلك الفتنة الطويلة التى أدمت مصر ومزقت كيانها سبعة عشر عاما .

ولكنها عادت الى الظهور بعد ذلك بثلاث سنوات اذ كان (المعتصم أبو اسحق بن هرون الرشيد) واليا عليها . فان (الصالح

ابن شيراز) عامله على الخراج ظلم الناس ، وزاد عليهم فى خراجهم . فانتقض أهل أسفل الأرض وعسكروا . فبعث اليهم (محمد بن عيسى الجلودى) العامل على الصلات فى جيش . فحاربوه فانهزم ، وقتل أصحابه سنة ٢١٤ هـ . فتولى على الصلات (عمير بن الوليد) . فخرج ومعه (عيسى الجلودى)لقتال أهل الحوف . فاقتتلوا فى عدة معارك ، وانهزم أهل الحوف . فتبعهم عمير فى طائفة من أصحابه . فعطف عليه كمين الثائرين فقتلوه . فأعيد عيسى الجلودى على الصلات . فحارب أهل الحوف بمنية مطر ولكنه انهزم منهم الى الفسطاط ، وأحرق ماثقل عليه من رحله ؛ وخندق على العاصمة . فأقبل المعتصم أبو اسحق ابن هرون الرشيد الى مصر فى أربعة آلاف من أتراكه ، ونزل الحوف ، وأرسل الى أهله . فامتنعوا عن طاعته . فقاتلهم وأسر كبارهم وزعماءهم ؛ ثم دخل مدينة الفسطاط وقتلهم فيها ، ثم خرج الى الشام فى أتراكه ، ومعه جمع من الأسارى فى ضر وجهد شديد سنة ٢١٥ هـ . ولكن أهل الحوف عادوا الى شق عصا الطاعة فى السنة التالية . فحوربوا وذلوا .

ثم قدم (الافشين حيدر بن كاوس الصفدى) الى مصر ، ومعه ابن عبد العزيز الجروى لأخذ ماله . فلم يدفع اليه شيئا . فقتله ؛ وولى على مصر كلها ، من قبل المعتصم أبى اسحق ، الأمير (عيسى ابن المنصور) سنة ٢١٦ هـ . فأساء معاملة الأهالى ، واقتدى عماله به .

فانتقض أسفل الأرض ، عربها وقبطها ، كما سبق لنا القول .

وكانت هى الفتنة العظمى التى قضى اخمادها على كيان القبط ودولة العرب معا .

فان الأفشين — وكان قد خرج الى برقة — قدم منها وخرج مع عيسى بن منصور الى قتال الثائرين . فأوقعا بهم ، وأسرا وقتلا . ثم قدم المأمون نفسه بكبار رجال أسرته ، وجند كثيف . فسخط على الأمير عيسى ، وأمر بحل لوائه وأخذه بلباس البياض ، عقوبة له ، وقال : « لم يكن هذا الحدث العظيم الا عن فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس مالايطيقون ، وكتمتنى الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد ! » ثم أقدم بهمة فائقة على اخماد الثورة . فأبدى عزما فالا ؛ وأجرى من الدماء أنهارا . فارتاعت أرض مصر ، وخنعت مصعوقة .

جميع هذه الثورات تركت أثرا سيئا فى نفس أبى اسحق المعتصم — وكان ميله الى العنصر العربى أقل بكثير من ميل من سبقه من العباسيين اليهم — وأميال العباسيين كانت ، كما هو معلوم ، فارسية أكثر منها عربية .

بل انا لا نخطىء اذا قلنا ان المعتصم لم يكن يميل الى العرب ، البتة ، وأن ميله كان كله للتركمان . فلما ارتقى سرير الخلافة ، قطع العطاء عن العرب ، وأسقطهم من الديوان ، وقيد الأتراك عوضا عنهم فيه . فكان ذلك نهاية دولة العرب فى الشرق ، قاطبة .

وسار خلفاء المعتصم على القواعد التى وضعها . فقللوا شيئا فشيئا من تعيين العرب فى وظائف الدولة المهمة ، لاسيما العسكرية منها ؛ ومن استعمالهم أمراء لهم على ولايتها ، حتى انتهوا الى منعهم عنها

بالكلية . فكان عنبسة بن اسحق فى خلافة المتوكل على الله آخر من ولىّ مصر من العرب .

على أن ذلك لم يكن ليرضى العنصر العربى . فبالرغم مما صيرته اليه من ضعف المنازعات والخصومات الأهلية التى أتقدت في أحضانه ، هبّ رجل يقال له (جابر بن الوليد) بأرض الأسكندرية — ولعله المعروف (بسيدي جابر) — وخرج على حكم (المعتز بالله) وأعوانه من الأتراك .

فشبت بين الفريقين نيران حروب أطفأها التركى (مزاحم ابن خاقان) بسحقة الثائرين سحقا . وكان مزاحم هذا رجلا غليظ الكبد ، مقداما على الدم . فخرج الى الحوف ، وأوقع بأهله — وكان قد أصبح العرب فيه كبدوى اليوم من انحلال القوى والعزائم — ثم سار الى تروجة . فأثخن سكانها جراحا ، وأسر عدة من أهل البلاد ، وقتل كثيرين منهم . ثم سار الى الفيوم ، فطاش سيفه ، وكثر ايقاعه بسكان النواحى . وولى الشرطة فى الفسطاط رجلا يقال له (أزجور) — وكان فظا غبيا ، غليظ الفؤاد مثل مولاه .

فمنع النساء من الحمامات والمقابر — شأن كل المصلحين أمثاله — وسجن المؤنثين والنوائح ؛ ومنع من الجهر بالبسملة فى الصلاة بالجامع — ولسنا ندرى لماذا — وأخذ أهل الجامع بتمام الصفوف ؛ فوكل بذلك رجلا من العجم ، يقوم بالسوط من مؤخر المسجد ؛ ومنع من المساند التى يستند اليها ؛ ومن الحصر التى كانت للمجالس فى الجامع ؛ ومن التثويب ؛ وأمر أن تصلى التراويح فى رمضان خمسا بدل ست ؛ وأن

يؤذن يوم الجمعة، فى مؤخر المسجد؛ وأن يغلس بصلاة الصبح؛ ونهى أن يشق ثوب على ميت، أو يسود وجه، أو يحلق شعر، أو تصيح امرأة؛ وعاقب على ذلك وشدد فيه، ولا رائد له أو باعث — على ماظن — سوى الباعث للترکی على التحكم فى الواردين للشرب من قلله، على ماهو مشهور فى الحكاية المعروفة. فانشأ بما أمر به أو نهى عنه، عصر الأحكام السخيفة فى مصر. وهى أحكام دلت الأيام، فيما بعد، على أنها لاتفارق طباع الأتراك مطلقا — ولعل سيرة الغازى مصطفى كمال فى الناس، وهو سالك سبيل اصلاحاته القومية، تكذبنا فيما نقول.

***

ومن الفتن التى لايصح السكوت عنها فى هذا المقام، ماجرى بالاسكندرية فى أيام ولاية (المطلب بن عبد الله الخزاعى)، وكان شطرا من الفتنة الطويلة التى قلنا انها أدمت مصر مابين سنة ١٩٩ وسنة ٢١٢.

فان المطلب هذا كان قد عقد على الاسكندرية لرجل يقال له (محمد بن هبيرة بن هاشم). فاستخلف محمد خاله (عمر بن عبد الملك) أحد أحفاد معاوية بن حديج قاتل ابن أبى بكر الصديق، وكان يقال له (عمر بن ملاك)، ولكن المطلب مالبث أن عزله بالفضل ابن عبد الله أخيه.

فبلغ نبأ هذا العزل عبد العزيز الجروى الثائر بتنيس، فكتب الى عمر بن الملاك يأمره بالوثوب على الاسكندرية والدعاء له بها.

وكانت بثغر الاسكندرية مراكب فيها جماعة من الأندلسيين يزيدون على عشرة آلاف ، كانوا قد فروا من وجه (الحكم بن هشام) الأموى أمير اسبانيا عقب أن ثاروا عليه فى (الربض) ، فأخمد ثورتهم سنة ١٨٢ هـ . فدعاهم عمر بن ملاك الى القيام معه فى اخراج الفضل . فأجابوه الى ذلك . فأخرج الفضل ودعى للجروى .

ولكن الأمر لم يرض أهل الاسكندرية : فوثبوا على الأندلسيين ، وأخرجوهم ، وردوا الفضل ؛ غير أن أخاه المطلب مالبث أن عزله ، وعين مكانه أميرا آخر يقال له أبو ذكر

فلما اقتتل السرى بن الحكم هو والمطلب ، وغلب السرى على مصر ، كما ذكرنا ، وثب عمر بن ملاك على أبى ذكر وأخرجه من الاسكندرية ، ودعا للجروى ؛ وأقبل الأندلسيون اليه . فأفسدوا . فأمرهم بالخروج الى مراكبهم . فشق ذلك عليهم .

وظهرت بالاسكندرية طائفة يسمون بالصوفية ، يأمرون بالمعروف ، ويعارضون الحكومة فى أمورها ، تحت زعامة رجل يقال له (أبو عبد الرحمن الصوفى) فاتفق له أنه خوصم الى عمر بن ملاك فى امرأة . فقضى عمر عليه لها . فوجد أبو عبد الرحمن فى نفسه من ذلك ؛ وخرج الى الأندلسيين فألف بينهم وبين قبيلة (لخم) — وكانت لخم أعز من فى ناحية الاسكندرية — ورجا أهل الأندلس أن يدركوا ثأرا من عمر بن ملاك — . كان هذا الخروج ، فى عرفه ، أمرا بالمعروف .

فسار الأندلسيون الى عمر بن ملاك ، وهم زهاء عشرة آلاف ،

وحصروه فى قصره . فخشى أن القصر لايمنعه منهم ، وخاف أن يدخلوا عليه عنوة ، فيفضح فى حرمه . فاغتسل ، وتحنط ، وتكفن ، وأمر أهله أن يدلوه الى أعدائه . فدلى . فأخذته السيوف .

فأخلفه على الأمر أربعة ولاة ، وماتوا جميعا بحد السيف في برهة يسيره . وحدث أن مابين لخم والأندلسيين من اتفاق ، فسد عند مقتل ابن ملاك ؛ وأن الفريقين اقتتلا فى شوارع المدينة اقتتالا فظيعا . فانهزمت لخم وظفر الأندلسيون بالاسكندرية . فولوها أبا عبد الرحمن زعيم الصوفية . فبلغ من الفساد والنهب والقتل مالم يسمع بمثيله — وذلك كان أيضا من باب الأمر بالمعروف — فعزله الأندلسيون ، وولوا رجلا منهم يعرف بالكنانى . ولكن حكمهم لم يرق فى عيون (بنى مدلج) . فحاربوهم . فقهرهم الأندلسيون ، وطردوهم من البلاد .

وبلغ عبد العزيز الجروى نبأ قتل ابن ملاك . فسار فى خمسين ألفا حتى نزل على حصون الاسكندرية وحصرها حتى أجهد من فيها . وبينما هو يعلل نفسه باستيلاء عليها ، اذ بلغه أن السرى ابن الحكم بعث الى تنيس بعثا . فكر راجعا للدفاع عن حصنه . فدعا الأندلسيون للسرى .

ثم لما خلع أهل مصر المأمون ، ودعوا لابراهيم بن المهدى ، اقتداء بالجروى ، لم تزل الفتن بالأندلسيين متصلة الى أن قدم (عبد الله ابن طاهر) الى مصر ، وسار الى الاسكندرية فى قواد العجم من أهل خراسان . فحاصرها بضع عشرة ليلة ، حتى خرج أهلها بأمان ، وصالحه

الأندلسيون على أن يسيرهم من الاسكندرية حيثما أحبوا ، على أن لايخرجوا فى مراكبهم أحدا من أهل مصر ، لاعبدا ولا آبقا . فان فعلوا حلت دماؤهم ونكث عهدهم .

فتوجهوا . فبعث ابن طاهر من يفتش عليهم مراكبهم . فوجدوا فيها جمعا من الذين اشترط عليهم أن لا يخرجوهم . فأمر بأحراق مراكبهم . فتوسلوا اليه ، وسألوه أن يردّهم الى شرطهم . ففعل ؛ وساروا الى جزيرة (كريت) التى يقال لها عند العرب (اقريطش) ؛ وملكوها . فخلصت الاسكندرية من شرورهم .

الفصل السادس

(الأوبئة والمجاعات . والكوارث الطبيعية)

جميع هذه الثورات الداخلية و الغزوات الأجنبية والفتن والحروب الأهلية كانت كافية لتخريب البلاد ولايصال أهلها الى حال بؤس شديد .

غيرأن الدهر لم يجدها كافية : فأتى بالطاعون والمجاعات لها أعوانا !

فأما الطاعون فكأنه ملازم أرض مصر ملازمة النيل لها ، حتى لقد ذهب بعض عائبى هذا النهر ، وعلى رأسهم (أبو بكر بن وحشية) فى كتابه (الفلاحة القبطية) ، الى أن انتشار البثر والدمامل فى مصر ناجم عن ماء النيل لكثرة مايخالط سيره من الأوساخ والنقائع العفنة ؛ وأن هذا الماء متى تسرب بعفونته الى الأرض وأوجد فيها الرطوبة ، أنمى فيها بكثرة الدود والفأر والثعابين والعقارب والزنابير ، والذباب والبرغش وغيرها ومن المعلوم أن الطاعون — فى أيامنا هذه ذاتها — يكاد لا يفارق أرضنا ؛ ولو أن وطأته أصبحت خفيفة جدا نكاد لا نشعر بها ، بسبب تحسين الوقايات الصحية وانتشارها وتعميمها وتحسين المأكل والمشرب والمنزل .

وأما فى تلك الأيام ، فاسمع ما يقوله المقريزى عن سكان عاصمة القطر : « ومن شأن أهل الفسطاط أن يرموا مايموت فى دورهم

من السنانير والكلاب ونحوها فى شوارعهم وأزقتهم ، فتعفن وتخالط عفونتها الهواء . ومن شأنهم أن يرموا فى النيل الذى يشربون منه فضول حيواناتهم وجيفها » — وهذا أمر لايزال ، بكل أسف ، شائعا فى الريف الى يومنا هذا ؛ كما أن رمى الحيوانات الميتة لا يزال سنة الشوارع والحارات والأزقة والأحياء الوطنية فى المدن — « وخرارات كنفهم تصب فيه » — وقد كانت تصب فى الخليج المصرى قبل أن تردمه شركة الترامواى — « وربما انقطع جرى الماء فيشربون هذه العفونة باختلاطها بالماء » .

« واذا كان الشتاء وأول الربيع حمل من البحر الملح سمك كثير . فيصل الى هذه المدينة ، وقد عفن ، وصارت له رائحة منكرة جدا ، فيباع ويأكله الأهالى ! » — أين ذاك اليوم ، والسمك الطازج ، بفضل السكك الحديدية ، يكثر فى أسواق مصر عنه فى أسواق الاسكندرية ودمياط وبورسعيد والسويس وغيرها من مدن السواحل وقراها !

وقال ابن سعيد فى كتاب (الكمائم) ، متكلما عن الفسطاط : « لاينزل المطر فيها الا فى النادر ؛ وترابها تثيره الأرجل ، وهو قبيح اللون ، تتكدر منه ارجاؤها ، ويسوء بسببه هواؤها ! »

وحدث لهذا الكاتب ، لما قدم القاهرة ، وأراد معاينة الفسطاط ، أنه ركب مع مكارى — ولم يكن من مواصلات فى أيامه سوى الركائب — فطار المكارى به ، وأثار من الغبار الأسود ماأعمى عينيه ، ودنس ثيابه ، وجعله يكره ما عاين . ولقلة معرفته بركوب الحمار ، وشدة عدو هذا الحيوان به على قانون لم يعهده ، وقلة رفق المكارى ،

وقف فى تلك الظلمة المثارة من ذلك العجاج ، وقال :

لقيت بمصر أشد البوار ركوب الحمار وكحل الغبار
وخلفى مكار يفوق الرياح لا يعرف الرفق مهمى استطار
أناديه مهلا فلا يرعوى الى أن سجدت سجود العثار
وقد مد فوقى رواق الثرى وألحد فيه ضياء النهار

وانا لنذكر أننا صادفنا فى أول زيارة لنا للأمام الشافعى فى سنة ١٨٩١ م ما صادف ابن سعيد فى أيامه لدى توجهه لزيارة الفسطاط .

فبلد هذا شأنه من القذارة وقلة الاعتناء ، لاغرابة اذا انتشرت فيه الأوبئة والأمراض ، لاسيما مع كل تلك الثورات والفتن والحروب الأهلية ؛ وانما الغرابة ألا تكون الأوبئة والأمراض قد أتت فيه على سكانه كافة فأهلكتهم . وفى هذا أوضح دليل على أن الحياة أقوى من الموت وأن إله الخير أقوى من إله الشر .

وأما المجاعات ، فمن البديهى أنها ناجمة عن توقف النيل عن الزيادة فى أوانها ؛ أو عن عجز فى منسوب مياهه السنوى . ومن البديهى ، أيضا ، أن مصر يمكنها ألا تجوع أبدا ، على شرط أن يبلغ فيها علم الرى وعلم تخزين المياه درجة حسنة ، أى درجتها فى عهد الأسرة الفرعونية الثانية عشرة المجيدة ، أسرة أرتسن وامنمحعت ، ودرجتهما فى أيامنا هذه ؛ وعلى شرط أن يكون السودان فى قبضة من فى يده مصر ، أى أن يكون القابض على النيل واحدا .

فان انشاء الخزانات المتعددة ، الواسعة ، المتينة ، وحفر الترع

المنتظمة المتسربة فى جميع انحاء القطر تسربيا حكيما ؛ والاعتناء بتنظيفها وتطهيرها وصيانتها لأمان أكيد من الجوع ولضمان حق للرخاء.

ولكن هذين العلمين المفيدين لم يكن فى وسع العرب التفوق فيهما بسرعة. لأنهم أهل بلاد لا أنهارفيها. وعصابة قريش التى جمعهم الاسلام حولها، كما جمعت قوة روما ايطاليا حول المدنية الأبدية، لم يكن لها من القفر المحيط بمكة مرشد الى حفر الترع، وابتناء الخزانات.

ومع ذلك، فان القوم الذين قامت فى بلادهم إرم ذات العماد، وأنشىء فيها سد مأرب، أيام أن كانت بلاد العرب فى المنطقة المعتدلة من العالم لافى المنطقة الحارة منه [1]، لم يكونوا بالناس الذين يتعسر عليهم ادراك فوائد علم الرى، فتراهم، حالما استتبت أقدامهم على ضفاف دجلة والفرات والنيل، أقبلوا على الأخذ بالوسائل الزراعية التى وجدوا أهالى تلك الأقاليم عليها؛ والعمل على تحسينها ما استطاعوا الى ذلك سبيلا.

ولكن الداء العضال المتفشى فى أحضانهم — وأعنى به داء الفتن والحروب الأهلية، وخروج بعضهم على بعض — كثيرا ما أفسد عليهم أحاسن تدبيراتهم، وخرب المزارع والمروج التى كانت عنايتهم بها قد جعلتها تزدهر بالمحصول الكثير وبالمراعى المسمنة. فسببت تلك

---

(١) أثبت العلم الحديث أن الأرض كانت الثلوج والجليد، منذ آلاف آلاف السنين، يغطيان وجهها من القطبين الى ثلثى ماهو الآن منطقتاها المعتدلتان، وأن معظم منطقتها الحارة الآن، كان فى ذلك العهد، منطقة معتدلة.

الفتن والحروب والمجاعات التى كان من شأن حكمهم تلافيها .

وانا لذا كرون هنا — على وجهه الاجمال — أفتك الأوبئة وأشد المجاعات التى أصيبت مصر بها فى مدة حكم العرب عليها ، مهملين ذكر أقلها شأنا .

***

فأما الأوبئة ، فلم يقع بمصر منها فى هذه المدة ما يستحق الذكر ، سوى الطاعون المعروف بطاعون (عبد العزيز بن مروان) سنة ٧٠ هـ .

وعبد العزيز هـذا هو أبو الخليفة (عمر بن عبد العزيز) ، وكان أمير مصر فى ذلك الحين لأخيه (عبد الملك بن مروان) .

فلما اشتدت وطأة الوباء بالقصبة ، خرج عبد العزيز منها ونزل (حلوان) ، واتخذها دار سكنى له . فعمرت منذ ذلك الحين . غير أن انتقاله اليها لم يفده شيئا ، لأنه طعن بها ومات . وللعرب فى ذلك حكاية لا بأس من ايرادها هنا .

قالوا : نزل عبد العزيز بن مروان فى صحراء حلوان فى موضع يقال له (أبو قرقورة) وهو رأس العين التى احتفرها ذلك الأمير وساقها الى نخيله التى غرسها بحلوان . فكان (ابن خديج) يرسل اليه فى كل يوم بخبر ما يحدث فى البلد من موت وغيره . فأرسل اليه ذات يوم رسولا . فلما أتاه ، قال له عبد العزيز : « ما اسمك ؟ » قال : « أبو طالب ! » فثقل ذلك على عبد العزيز وغاظه . فقال للرسول : « أسألك عن اسمك ، فتقول أبو طالب ، ما اسمك ؟ » فقال : «مدرك» فتطير من ذلك ، ومرض فى مخرجه ، ومات هنالك . فحمل فى

البحر يراد به الفسطاط ، حتى تغير . فخرج معه بالمجامر فيها العود وكان قد أوصى أن يمر بجنازته – اذا مات – على منزل (جناب بن مرتد الرعينى) صاحب حرسه – وكان صديقا له ، وقد توفى قبله – فلما مر بجنازته على باب ذلك القائد ، خرج عياله ، ولبسن السواد ، ووقفن على الباب صائحات ، ثم اتبعنه الى المقبرة . وفنى من أهل مصر فى ذلك الوباء ما يربو عدده على مائة ألف انسان .

* * *

واما المجاعات ، فثلاث : الأولى فى ولاية الأمير (عبد الله بن عبد الملك) وخلافة (الوليد) أخيه ، ما بين سنة ٨٦ و سنة ٨٩ هـ . فغلت الأسعار فيها ، لقلة المحصول ، وباتت مصر فى شدة عظمى ، زادها ضررا أن الأمير كان يرتشى – رغم كونه ابن خليفة وأخا خليفة – فلم يتخذ اجراء لرفع تلك الشدة الا فى مصلحة من دهن يده من الناس . فضج الملأ وتشاءموا به .

وعبد الله هـذا هو الذى نقلت دواوين مصر فى مدته من القبطية الى العربية . وفى بقائها قبطية ما نزيد على ستين سنة بعد الفتح دلالة على أحد ثلاثة أمور أو على ثلاثتها معا وهى : تسامح العرب ، وجهلهم بالحساب ، وانشغالهم فى حروبهم وفتنهم عن الاهتمام بأمور البلاد الاقتصادية .

والمجاعة الثانية فى ولاية (المغيرة بن عبيد الله الفزارى) ، وخلافة مروان الحمار بن محمد آخر الخلفاء الأمويين . فرهن المغيرة حلى نسائه عند التجار ، واشترى منهم قمحا ، وفرقه على الفقراء – فأين

عمل هـذا من عمل عبد الله بن عبد الملك ، الأمير ابن الأمير ، كابرا عن كابر ؟ مما يدل على أن النفس قد تـكون وضيعة فى الملوك أنفسهم رغم حسبهم الرفيع ونسبهم النبيل وجاههم الطويل العريض ، وثروتهم الواسعة ، وقدتكون رفيعة أبية فى المتوسطين بل فى الوضعاء من رعاياهم.

ولما عزل المغيرة ، عقب ذلك ، عن مصر ، أمر ببيع المرهون ليقضى ما كان عليه للتجار ، وكان نحو عشرين ألف دينار . فبيع وخرج الرجل الى الشام ، والناس عنه راضون . هـذا اذا صدقنا رواية ابن وصيف شاه ، وهو من كبار المخرفين ، وقد قلب اسم الرجل ، فجعله (عبد الحميد بن المغيرة) بدلا من المغيرة بن عبيد الله .

والمجاعة الثالثـة وقعت فى ولاية (يزيد بن حاتم المهلبى) وخلافة (أبى جعفر المنصور) سنة ١٤٧ هـ . فانهم قاسوا الماء القديم فى قاع النيل؛ فـكان ذراعا وعشرين أصبعا ، ولم يعهد مثل ذلك فيما تقدم من السنين . وبلغ منتهى الزيادة فى تلك السـنة اثنى عشر ذراعا وستة عشر أصبعا . فشرقت البلاد ، ووقع الغلاء فيها بأن ارتفعت الأسعار ارتفاعا باهظا . فمات الفقراء جوعا وأصيب القطر بضرر شامل .

***

وبما أننا فى صـدد ما أصاب القطر المصرى من فواجع طبيعية ، فيجدر هنا ذكر الزلزال الكبير الذى ماد بالأرض المصرية سنة ١٨٠ هـ ، فى عهد هرون الرشيد ؛ فخرب عدة ضياع فيها ، وصـدع جملة مبان فى الفسطاط والاسكندرية ، منها رأس المنارة فى ذلك الثغر . وقد كان عهد القطر بالزلازل بعيدا ؛ فارتاع الناس لحدوثه فى ذلك العام .

الفصل السابع

(الفتن الدينية)

على أن مصر — اذا محنت بجميع هذه الخطوب المفزعة التى ذكرناها — لم تبل ، علاوة عليها ، بتوقد نيران الفتن الدينية فى أحضانها .

فبالرغم من أن أهلها ميالون بطبيعتهم الى المباحث اللاهوتية والتوحيدية ، والى المسائل والمشاكل الكلمية ؛ وبالرغم من أن تاريخهم — من أيام دقلديانس ، أى من عصر الشهداء ؛ الى الفتح العربى — يكاد يكون عبارة عن مباحث ومشاجرات دينية ؛ واندفاع حماسى فى الاغراق فى أمور الدين — كما بينا ذلك فى مؤلفنا (مصر المسيحية) — وبالرغم مما نتأ فى جسم الاسلام من بدع وفتن دينية ، بعضها صغيرة لا أهمية لها ، وبعضها كبيرة هائلة ، من أيام على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه ، الى أيام عبدالله المأمون بن هرون الرشيد ؛ بالرغم من ذلك جميعه لم تثر فى أرض مصر فتن دينية تستحق الذكر فى العصر الذى نروى الآن أخباره .

فبينما كانت الخوارج — وسموا كذلك لخروجهم عن كل حكم ؛ وقد دعاهم بعض المؤرخين فوضويى الاسلام ، ولكن بغير حق : لأن فوضاهم الاغراق فى الدين والتدين ، على عكس فوضويى اليوم

الذين انما أساس خروجهم على الحكام والأحكام خروجهم عن الدين. وكان الأحرى بأولئك المؤرخين تسمية الخوارج بيوريتاني الاسلام أو بالمستقلين، لأن مثلهم فى الأسلام مثل بيوريتاني انجلترا فى القرن السابع عشر ومثل مستقلى كرومول ابان الثورة الانجليزية — بينما كانت الخوارج تشعل أقطار الامبراطورية العربية الشرقية، وتأتى ويؤتى معها من المنكرات والفظائع — لاسيما فى عهد الحجاج ابن يوسف أمير العراق لعبد الملك بن مروان الأموى — ما تقشعر له الأبدان؛ وكانت (المعتزلة) و (الواصلية) و (الهذيلية) و (النظامية) و (الحايطية) و (البشرية) و (العمرية) و (والذدارية) و (التمامية) و (الهاشمية) و (الجاحظية) و (الخياطية) و (الجبائية) و (البهشمية) و (الجبرية) و (الجهمية) و (النجارية) و (الضرارية) و (الصفاتية)[1] الخ تثير المباحثات اللاهوتيه العديمة الجدوى، دنيا وأخرى، فى الأقاليم الشرقية، فتتفصد لها الجباه عرقا، وتمتلىء القلوب أحقادا، ويكاد يحل منها بالاسلام ما تمزقت به المسيحية، كانت مصر المشغولة عنها بثوراتها ومصائبها الداخلية، لاتجد الفتن الدينية أرضا صالحة فيها لتبيض وتفرخ.

ولولا أن المأمون أرسل كتابا الى (كيدر) السابق ذكره — وهو نصر بن عبد الله أبو مالك الصغدى — عامله على مصر بأخذ الناس بالمحنة سنة ٢١٨ هـ. لانقضت كل مدة الحكم العربى على القطر

(١) اقرأ عن هذه المذاهب كتاب الشهرستانى (الملل والنحل) من ص ٥٣ فما فوق وكتاب (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) لابن حزم

المصري ، بدون أن تلهب فيه نار لمباحثة أو فتنة دينية .

ولكن المأمون كان قد تشبع فى طفولته وصباه بمبادىء أمه — وكانت فارسية — ثم ترعرع وشب عليها فى معاشرة المفكرين من الفرس ، اذ كان مقيما فى (مرو) ، عاملا لأبيه عليها . وكان أولئك المفكرون من (المعتزلة) الذين قرنوا بين التشيع لعلى وفلسفة الفرس الروحية ، فكيفوا الاسلام تكييفا ، لو رجع النبى (صلعم) الى الأرض ورآه ، لما عرفه أنه هو الاسلام الذى وضعت أسسه على يديه .

وبلغ من تشيع المأمون الى بيت على — حتى بعد ارتقائه عرش الخلافة — أنه اختار أعلام العلويين أعلاما لدولته ، بدل الأعلام العباسية ، مدة من الزمن ؛ وأنه زوج احدى بناته من (على الرضا) العلوى ، مؤملا أن يجمع ، بذلك ، بين البيتين العباسي والعلوى معا ؛ ويزيل الخلاف القائم بينهما .

ولكنه مالبث بتأثيرات العباسة عمته عليه — وكانت من كبريات حكيمات البيت العباسى وعاقلاته — وقصتها مع جعفر البرمكى أشهر من نار على علم — أن أفاق الى الخطر الذى كان من شأنه أن ينجم لأسرته عن مثل ذلك التشجيع ؛ فرجع الى أعلام دولته السود ، وتخلص بالسم من زوج ابنته

غير أنه لم يقلع عن معتقداته العقلية . ولما كان رجلا راجح الحلم ، ميالا الى العلم والتعلم ، احتاط بجماعة من العلماء مختلفى العقائد والمذاهب ؛ وجعل يتلذذ بحملهم على التباحث معه فى مسائل هامة فى نظرهم جميعا — كالبحث فى علاقات الانسان بالله ، وفى طبيعة الله ذاته — وكان هو

وجلساؤه يتناولون أوجهها بكل حرية في الفكر والقول .

وبما أنه كان يذهب ، في اعتقاده ، الى أن الأنسان مخير لا مسير ، اضطر ، بقوة الاستنتاج المنطقي ، الى القول بخلق القرآن ، ورفض ازليته .

والى هنا لم يتجاوز المأمون حدا من الحدود الموضوعة لحرية الانسان في الفكر والقول . ولكنه مالبث أن انقاد الى الضعف البشري الغريب الذي يجعل المرأ عديم الصبر على مخالفة غيره له في الرأي ؛ وأقبل على اضطهاد القائلين بأزلية القرآن اضطهادا شديدا ، بلغ — في بعض الأحايين — درجة التعذيب والقتل ؛ وذلك بالرغم من أنه ، هو نفسه ، كان يرى حرية الفكر حقا من حقوق الأنسان المقدسة . فدلّ باضطهاده هذا على أنه لم يكن فيلسوفا حقا ، وعلى أن السلطة المطلقة خطر على أخلاق صاحبها وعقليته حتى ولو كان من أكمل الناس أخلاقا وأرجحهم عقلا .

فكتب الى عموم عماله على أقاليم مملكته المترامية الأطراف — ومن ضمنها مصر — بامتحان الناس في « هل يعتقدون أن القرآن مخلوق أوهم يعتقدون أنه أزلي ؟ » ومعاقبة من قال منهم انه أزلي معاقبة تختلف من أسقاط شهادة القائل في المحاكمات ، الى حبسه ، الى تعذيبه ، الى قتله .

فدامت تلك المحنه بمصر من سنة ٢١٨ الى سنة ٢٣٢ هـ ، أي الى أن أبطلها أمر صادر من الخليفة (المتوكل على الله) .

ولو أن (المتوكل) اكتفى بابطالها ، لشكر له التاريخ فضله .

ولكنه أقبل، هو وخلفاؤه بعده، اقبالا لاملل ولا كلل فيه، على اضطهاد القائلين بخلق القرآن، والمتشيعين الى البيت العلوى.

من ذلك أنه سأل فى سنة ٢٤٤ هـ (يعقوب بن السكيت) امام النحو واللغة فى ذلك الزمان: «أيما أحب اليك: ابناى (المعتز) و (المؤيد) أم (الحسنُ) و (الحسين)»؟ فقال ابن السكيت — وكان ممن لايخفون حقيقة أفكارهم ولو واجههم الموت: «والله ان (قنبراً) خادم على خير منك ومن ابنيك!» — وكان فى قوله هذا أحمق، تخطى حدود الصراحة الى فوضى البله — فأمر به: فسُلَّ لسانه من قفاه؛ فمات من ساعته (١).

وعمّ اضطهاد المتوكل وخلفائه، من المضروبة الغباوة على أفكارهم والمشتد الضيق بعقولهم، اليهود والمسيحيين؛ وكانوا قد وجدوا فى حكم الخلفاء من المعتزلة صدرا رحيبا وتسامحا واسعا؛ وألفى علماؤهم من المأمون و المعتصم والواثق تعضيدا وتشجيعا جعلاهم يضمون جهودهم الى جهود علماء المسلمين فى التفتيش والتنقيب على كتب فلاسفة اليونان ومؤرخيهم ومهندسيهم وفلكييهم وغيرهم فى عامة أدرة وكنائس سوريا وآسيا الصغرى والشرق، ونقلها الى العربية. فأقاموا — جميعا — فى وسط العالم الأسلامى، منارة تلك تلك الحضارة العربية، أو بالحرى الأسلامية، التى ضارعت فى بهجتها وفائدتها، حضارة اليونان وحضارة الرومان!

---

(١) «روضة المناظر فى أخبار الأوائل و الأواخر» لابن الشحنة. أنظر حوادث سنة ٢٤٤ هـ.

الفصل الثامن

أرض مصر ومساحتها وعدد سكانها وخرجها

بعد مطالعة ما سردنا أنباءه من الكوارث التى أصابت أيدى البشر ويد الطبيعة أرض مصر بها ، ربما شك قارىء فى حقيقة ماقلنا فى فصل سابق من أن « الرفاه والرخاء ، بوجه عام ، استمرا سائدين القطر المصرى ، ولكن بتناقص مطرد لغاية حكم المأمون » ؛ وربما حملته تلك المطالعة على اعتقاد عكس ذلك بالمرة ، وعلى القول بان الذى ساد القطر ، بعد أن فتحه العرب انما هو الخراب والدمار .

ولكن من اعتقد ذلك وقاله فقد جهل ما لهذا القطر المصرى الخصيب من شأن فيما يعجب به من قدرة على استعاضة خسائره بسرعة تتحير لها الألباب . وقد جهل أن سنة الخصب الواحدة فيه تجعله يفيض ببحر من الخيرات تذهب أمواجه بكل السوء والضر اللذين تصيبه بهما السنتان والثلاث السنين من البؤس ، الشقاء ، وتملؤه نعما .

فالأرض المصرية كانت عديمة المثيل فى تلك الأيام ، الا فيما حسن ريه من أراضى مابين النهرين ؛ كما أنها لاتزال — الآن — فى مقدمة أراضى العالم الجيدة كلها ، وما كان النيل يحييه فيها من مواتها كان كافيا لحفظ الحياة فى عموم أنحاء الدولة الرومية ، وتأمينها من جوع .

وبما أن الثورات القبطية ، والغزوات الأجنبية ، والفتن الداخلية ، والحروب الأهلية ، والمحن الدينية ، التى سردنا أخبارها انما كانت متقطعة ومتفرقة ، وقلما عم شررها أكثر من عشر البلاد ، حتى لما كان عاما .

وبما أن السنوات التى نقص النيل فيها عن المطلوب ، فنجم عن نقصه غلاء أو مجاعة ، كانت ، لحسن الحظ ، قليلة جدا ، فان الكوارث التى ذكرناها لم تنتج الخراب والدمار اللذين كانت تنتجهما فى قطر آخر ، وان أوجبت نقصا مستمرا فى الرفاه والرخاء والهناء .

لذلك كان اعجاب العرب بهذا القطر السعيد الذى فتحوه اعجابا عظيما ، نرى آثاره فى ما جادت به مخيلاتهم الشعرية من المبالغة المزعجة فى وصف اتساع مساحته المزروعة وعدد سكانه ومقدار خراجه ، سواء فى الأزمنة السابقة أو المعاصرة أو اللاحقة للاسلام .

قال ابن عبد الحكم : « ان مساحة مصر حررت ، بعد ما تلاشى من أمرها كثيرا . فكانت مائة وثمانين مليونا من الأفدنة التى تزرع ، غير البوار (! ؟ ؟) ، وانه كان بمصر ، فى زمن القبط ، أربعمائة وثمانون مليون حراث ، يلزمون العمل دائما ، ومائة وعشرون ألف مزارع من الملاك » ! ؟ ؟ .

وقال المسيحى فى تاريخه : « كان بمصر مائة وخمسون مدينة ، وأربعة وخمسون ألفا وسبعمائة وخمسون قرية (! ؟ ؟) ، لايقل عدد سكان القرية الواحدة عن خمسمائة جمجمة ، ولا عدد سكان المدينة

الواحدة عن عشرين ألف نفس ! » ، أى أنه كان بمصر ثلاثون مليونا وثلثمائة وخمسة وسبعون ألف نسمة .

ونقل (أوطبخا) المؤرخ عن بعض مؤرخى العرب — وربما كان ابن الحكم — أن عدة ذكور القبط وحدهم — لما ربط عمرو بن العاص الجزية عليهم — ماعدا شيوخهم وصبيانهم ، وماعدا الروم واليهود والعرب ، بلغت ثمانية ملايين جمجمة (! ؟ ؟) .

وقال ابن وصيف شاه ، ضمن تخريفاته عن الفراعنة الأقدمين — وقد استنبط لهم أسماء لم تخطر على فكر ، لا أدرى من أى الموارد استقاها — : « ان خراج مصر فى أيام (الريان بن الوليد) — وهو فرعون يوسف ، عليه السلام — أناف على مائة مليون من الدنانير » . والدينار الفرعونى ، على قول ابن دحية ، ثلاث مثاقيل باعتبار أن المثقال أربعة وعشرون قيراطا ، وأن القيراط ثلاث حبات من قمح .

وقال ابن دحية ما قاله ابن وصيف وشاه ؛ وما قاله (السعودى) أيضا فى كتابه (مروج الذهب) .

وقال ابن العميد : « ان ما كان يخرج من مصر ، سنويا ، الى بيت مال الخليفة يربو على ثلثمائة مليون من الدنانير الذهبية والفضية ! »

* * *

غير أن هذه المبالغات — وان أزعجتنا — لاينبغى أن تحملنا على الحط من حقيقة ما كانت عليه مصر لما فتحها العرب ؛ ولا من حقيقة ما آلت اليه شيئا فشيئا الى أن تسلمها (احمد بن طولون) .

فمساحتها المزروعة لم تكن تزيد على أربعين ألف كيلو متر

مربع على الأكثر ، ولا كان عدد سكانها يربو على عشرة ملايين .

وأما أنواع مزروعاتها فكانت : القمح ، والقرطم ، والشعير ، والفول ، والعدس ، والحمص ، والسمسم ، والجلبان ، والترمس ، والبصل ، والثوم ، والقلقاس ، والكرنب ، والباذنجان ، واللوبيا ، والبطيخ ، والمقاتى ، والفجل ، واللفت ، والكتان ، والنيل ، والقطن ، وقصب السكر ، والكرم والتوت ، واللوز ، والخوخ ، والمشمش ، والتمر ، والموز ، والنرجس ، والياسمين ، والمرسين ، والريحان ، وحبّ المنثور ، والبلسم .

***

وأما استخراج خراجها فكان بطريق التضمين والالتزام ، على ما كانت عليه الحال فى تركيا قبل الحرب . أى أن الحكومة كانت تضع بالمزاد المال المطلوب لها من كورة ما . فيزايد فيه من يشاء حتى يرسو على أحدهم . فمن رسا عليه دعى (الضامن) أو (الملتزم) ؛ تكفل ، هو ، بتوريده الى خزينة الحكومة ؛ وتكفلت الحكومة بمساعدته على جبايته ، ولو بالقوة العسكرية . فمتى رسا عليه ، ذهب الى كل قرية من قرى الكورة وربط عليها مالا يراه ؛ وباشر تحصيله بمعرفة شيوخها ، وبكتاب من عنده . فحصل لديه ، بذلك ، مجموع يزيد بكثير أو قليل — هو وحظه - على ما ضمن توريده لجهة الحكومة . فاما أن يثرى فى بضع سنوات — وهذا كان الغالب — واما أن يفوق ماضمن توريده مقدار ماجباه ؛ فيخرب بيته ويفتقر ، وهذا كان النادر ، ولا يقع الا لطيبو القلوب ورؤفائها ، وقلما وُجد

منهم واحد فى طائفة (الملتزمين) .

فلما فتح العرب مصر ، فانهم ، طول ما أقاموا فيها كجند مرابط ، لا ينزلون ريفها ولا يتخذون الزرع فيها معاشا ، أهملوا هذه الطريقة ، وأقاموا الجزية على الجماجم مكانها : فدرت لهم اثنى عشر مليون دينار ، على يدى عمرو بن العاص ، وأربعة عشر مليونا على يدى عبدالله بن أبى سرح ؛ ثم تناقص درها ، بعدهما ، لما بيناه من الأسباب .

وترك العرب الى كبار القبط كيفية جباية الجزية المفروضة عليهم . فكانت جبايتهم بالتعديل : اذا عمرت القرية وكثر أهلها ، زادوا عليهم ؛ وان قل أهلها ، وخربت لسبب من الأسباب ، نقصوا . وكانوا ، عند توزيع المال على احتمال القرى وسعة المزارع ، يدخلون فيه ما يفى بحاجة كنائسهم وحماياتهم ، وما يجب لضيافة المسلمين ، وتزول الحكام .

ولكن ، بعدما شرع المسلمون يمتلكون الأرض ، ويستوطنونها ، ويتخذون زرعها معاشا لهم ومكسبا : فأصبحوا مزارعين ، ولم يعودوا من الجند المرابط ، بعد أن انقاد جمهور القبط الى اظهار الاسلام ، واختلطت أنسابهم بأنساب المسلمين لتزاوج بعضهم من بعض على سنن الاسلام ؛ ورأى الخلفاء ، بعد شىء من التردد ، أن يأمروا بوضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة (١) ؛ وبعد أن قل بوضعها ، ايراد الخزينة ،

(١) وكان عملاؤهم ، كالحجاج بن يوسف السابق ذكره ، لا يزالون يأخذونها منهم ، رغم اسلامهم . ويروى عن (عبد الملك بن مروان) أنه كتب الى أخيه (عبد العزيز) أمير مصر بوضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة . فانبرى لعبد العزيز رجل من كبار القوم يقال له (ابن حجيرة) ، وقال : « أعيذك بالله ، أيها الأمير ، أن تكون أول من سن ذلك بمصر . فوالله ، ان أهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم . فكيف نضعها على من أسلم منهم ؟ » (هكذا المنطق والا فلا) . فانصاع عبد العزيز الى رأيه ؛ ولم يعمل بكتاب أخيه .

رأى الحكام ضرورة ربط خراج معلوم على الأرض . فعادوا الى شبه ما كان عليه الأمر مدة حكم الروم .

فكان متولى خراج مصر يجلس فى جامع عمرو فى الوقت الذى تتهيأ فيه قبالة الأراضى ، وقد اجتمع الناس من القرى والمدن . فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات ، وكتاب الخراج بين يدى متوليه يكتبون ما تنتهى اليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس . وكان تقبلها بالأربع سنين ، لأجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك . فأما دفع الخراج فكان على أقساط ، وقلما كان لا يتأخر منه شىء فى جهة المتقبلين . فيشدد الولاة فى طلب ذلك الباقى ، مرة ، ويتسامحون به مرة . فاذا مضى من الزمان ثلاثون سنة ، حولوا السنة ، وراكوا البلاد كلها ، وعدلوها تعديلا جديدا ، كان ينجم عنه عادة ، ثورة بين أهل الريف ، لما كان العمال يرتكبونه من مظالم فى زيادة المال أو تنقيصه عليهم .

وانما قلنا ان العرب عادوا ، فى ربط الخراج وجبايته ، الى شبه ما كان الأمر عليه مدة الروم ، لأن الفرق بين الطريقتين هو أن « الضمان » عند الروم كانوا ، متى ألزموا بخراج للحكومة ، يجبون من المزارعين ماشاؤا من الأموال . وأما المتقبلون — عند العرب — فكانوا يتولون بأنفسهم زراعة الأرض المأخوذة منهم قبالة ؛ ويقومون بشئونها من جسور وترع وغيره . ولا شك فى أن طريقة العرب كانت أفضل وأصلح للبلاد من طريقة الروم — ولعل تسمية أحواض

الأطيان فى بعض جهات الصعيد . قبالات للآن عائد الى تلك العادة القديمة من اعطاء الأرض قبالة للمتقبلين من الناس .

***

وكان خراج مصر فى عهد بنى أمية وخلفاء بنى العباس . إلى أحمد بن طولون يتراوح بين المليونين ونصف والثلاثة الملايين من الدنانير ؛ ولم يزد على ذلك الا لما جباه (أسامة بن زيد) لسليمان بن عبد الملك ، إذ بلغ اثنى عشر مليونا ، على ما يقولون ؛ ولما جباه (عبيد الله بن الحبحاب) لهشام بن عبد الملك اذ بلغ أربعة ملايين ، ونجم عن جبايته ثورة .

ثم أوجد العرب ، زيادة على الخراج ، موارد ايرادات أخرى دعوها (المكوس) وأول من أوجدها فى الاسلام (عمر بن الخطاب) ، على ما يزعمون : فانه أمر بأن يؤخذ من كل تاجر مسلم يأتى بتجارة من الخارج خمسة دراهم من كل مائتى درهم ، — أى جمرك فى تعبير أيامنا هذه قدره اثنان ونصف فى المائة — ؛ ومن كل تاجر من أهل الذمة درهم من كل عشرين درهم — أى جمرك قدره خمسة فى المائة ؛ ومن كل تاجر من تجار الحرب درهم من كل عشرة دراهم — أى جمرك قدره عشرة فى المائة —

غير ان (عمر بن عبد العزيز) أبطل تلك المكوس كلها ، قائلا : « ما هى بالمكس ؛ ولكنها بالنجس » فأعادها (أبو جعفر المنصور) ثانى خلفاء بني العباس — وكان مشهورا بحرصه على النقود — ،

وأضاف اليها مكسا جديدا ، ما وضعه من خراج على الحوانيت ؛ ولا ندرى أعلى مكاسبها . فكان ذلك أول ضريبة على الايراد وضعت فى الاسلام ؛ أم على الحوانيت بصفتها محالا للايجار : فكان ذلك من نوع ما تفرضه الحكومات الآن من الأموال على المبانى أو من « عوائد الخفر » .

وأما بمصر ، فأول من أحدث مالا سوى مال الخراج . فاحمد ابن محمد بن مدبر على ما سبق لنا القول فى غير هذا المكان . وسماه « مالا هلاليا » ، وعرف فى زمانه وفيما بعده « بالمرافق والمعاون » ويقابل فى أيامنا هذه ما نسميه « أموالا غير مقررة » . وبلغت قيمته فى عهده مائة الف دينار سنويا .

الفصل التاسع

الحكومة والادارة

تلك كانت ايرادات الحكومة . فما كانت مصروفاتها ؟

قبل أن نبينها ، يجدر بنا أن نرى كيف كانت تلك الحكومة وكيف كانت تدار

* *
*

ان القطر المصرى ، لما احتله العرب الفاتحون ، كان ، كما هو الآن ، قسمين : الوجه القبلى واسمه « أعلى الأرض » ، والوجه البحرى ، واسمه « أسفل الارض »

وكان الوجه البحرى ينقسم الى خمسة عشر عملا ، أى « مديرية » فى اصطلاح يومنا هذا ، وثغرين ؛ والوجه القبلى ينقسم الى عشرة أعمال

فأعمال الوجه البحرى كانت : الشرقية ، والمرتاحية ، والدقهلية ، والديوانية :— وكلها شرق فرع دمياط ، وكان يقال لها « الحوف الشرقى » ؛ وجزيرة قويسنا ، والسمنودية ، الدنجاوية ، والمنوفية ، والستراوية ، وفوة ، والمزاخمين ، وجزيرة بنى نصر ؛ وكلها بين فرعى النيل الكبيرين — ؛ والبحيرة ، وحوف رمسيس ، — غربى فرع رشيد — ؛ والثغران : دمياط والاسكندرية .

وأعمال الوجه القبلى كانت : الجيزة ، والاطفيحية ، والبوصيرية ، والفيومية ، والبهنساوية ، والأشمونية ، والمنفلوطية ، والاسيوطية ، والاخميمية ، والقوصية .

وكان كل (عمل) ينقسم الى (كور) ـ وهى مراكز ذلك الزمان ؛ وكل كورة تشتمل على عدة قرى لكل قرية زمام أطيان خاص بها ، كما هى الحال الآن . وكان على كل (عمل) رئيس هو بمثابة (المدير) الآن ؛ وعلى كل (كورة) نائب رئيس هو بمثابة (المأمور) الآن . وعلى كل قرية زعيم هو بمثابة (العمدة) الآن .

وكان امبراطور القسطنطينية يعين من لدنه (عاملا) يقال له (بطريقا) لادارة الشئون المدنية : فيتساعد على ذلك بكبير الاقباط أو (ذيموتكس) مدينته (منف) ؛ وبقائد الجنود البيزنطية المرابطة فى القطر . وكما أن سلطة الامبراطور كانت مطلقة وارادته لا تجد دائرة نفوذها حدا ، كذلك كانت سلطه نائبه بمصر وسلطة (عمال) نائبه على (الكور) .

فأبقى العرب الحال على ما كانت عليه ؛ وحل (عامل) الخليفة محل (عامل) الامبراطور ولكنه تولى شئونها الادارية والعسكرية ، معاً ؛ وزاد على ذلك أنه كان يتولى الامامة ، أيضا فى الصلوات الجامعة؛ أى انه اتصف بشىء مما كان (للبطريك) ونوابه فى عهد الدولة البيزنطية . والبطريك غير (البطريق) . فالاول رئيس الدين ، ويقال له فى اللغة اللاتينية التى أخذت عنها اللغات الغربية لفظها (بطريركس) ؛

والثاني الرئيس المدنى في عهد الدولة البيزنطية . أو المحافظ ، وكان يقال له فى اللغة عينها (بتريسيس) .

غير ان (عثمان بن عفان)، بعد أن هزم (عمرو بن العاص) الروم الذين قدموا مع (مانوئيل) الخصي . أراد أن يفصل بين السلطتين : المدنية والعسكريه ، لكى يوجد وظيفه سمينة لأخيه من الرضاعة (عبدالله بن أبى مسرح): فأمر بأن يكون (عمرو بن العاص) على الحرب ، و (عبد الله) على الخراج . فقال (عمرو) : أنا اذاً كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها !، وأبى . فعين (عثمان) (عبد الله) على الحرب والخراج معاً ؛ وعزل (عمرا)

واستمر الخلفاء بعده ، يعينون عمالهم فى مصر علي صلاتها — أى على جندها — وخراجها معاً فى معظم الاحيان ؛ الا بعضهم كانوا . اما للسبب ذاته الذى حمل (عثمان) على عمله ، واما لتخوف خفي - يعينون عاملا على الصلات وآخر على الخراج .

وكما أن سلطة الخلفاء - بالرغم من كل ماهو مأثور عن حصرها بسياج من الشورى - كانت مطلقة فى الأعمار والأموال . بل فى الضمائر ذاتها ، كذلك كانت سلطة (عمالهم) على مصر : فاذا كان (العامل) على الصلات والخراج معاً كان الأمر كله له لايحصر سلطته حد ولا يحول شيء دون استبداده المطلق فى الاموال والاعمار والضمائر يعين (هو) جميع (عمال) الادارة والجندية والضبط والتحصيل من رؤساء (الكور) الى نقباء الجند الى رؤساء الشرطة الى عمال الخراج ، لايستثنى منهم الا القضاة الذين كانوا يعينون من الخليفة مباشرة . ولا

يسأله عن سيره فيهم وفى الرعية أحد غير الخليفة . فيظلم من يشاء ويؤدب من يشاء ويذل من يشاء ويعز من يشاء ، ولا ملجأ للمظلومين والمذلولين اذا ماسدت فى وجوههم أبواب الالتجاء الى الخليفة - سوى الخروج والثورة .

واما اذا كان (العامل) على الصلات ، فقط ، خرجت جميع شئون الخراج وادارتها ومستخدموها عن حدود سلطته ، ودخلت فى حوزة (العامل) على الخراج ، وآلت الى هذا العامل جميع السلطة الاستبدادية التي كانت (للعامل على الصلات) فى باب (الخراج) وما اليه .

على أن هذا الانفصال اذا كان ، فى بعض الاحيان ، فى مصلحة الخلفاء المالية وأحيانا فى مصلحة المحكومين ، ولو نادراً ، لم يكن ، على الغالب ، فى مصلحة حسن سير الأدارة ، لما كان يقوم ، عادة ، من الخلاف بين العاملين ، متي أعوز أحدهما الأخلاص للآخر ، أو وقف عامل الخراج حجر عثرة فى سبيل مطامع العامل على الصلات .

فمتى كان العامل على الصلات مستقلا بالأمر كله ؛ او كان على تمام الاتفاق مع العامل على الخراج ، عند وجود هذا العامل - كان ، اذا ماجبى الخراج ، يحبس لديه ما كان يحتاج اليه لنفسه ، وللأعمال العمومية والجنود والكتاب ، ويرسل الباقى الى الخليفة

قال ابن لهيعة : « كان الديوان بمصر ، فى زمن (معاويه) أربعين الفاً . فاعطى (مسلمة بن مخلد) أهل الديوان عطياتهم وعطيات عيالهم وأرزاقهم ، ونوائب البلاد من الجسور والخلجان ، وأرزاق الكتبة ،

وحملان القمح الى الحجاز ؛ ثم بعث الى (معاوية) بستمائة الف دينار فضل . »

فكأن مصروفات الحكومة بمصر فى عهد العرب ، كانت منحصرة فى ستة أبواب :

(١) ما كان (العامل) يأخذه لنفسه ، بصفة راتب ؛ (٢) ما كان يخصصه للأعمال العمومية ؛ (٣) ما كان يصرفه في عطيات أهل الديوان ؛ (٤) ما كان يصرفه فى أرزاق الكتبة ؛ (٥) ما كان يسيره من القمح الى أهل الحجاز — لأن أهل الحجاز بعد الاسلام ، أصبحوا كالشعب الرومانى بعد الجمهورية ؛ يأكلون على نفقة الأقاليم المفتتحه — ؛ (٦) وأخيرا ما كان يبعث به الى خزينة الخليفة : وكان يقابل ما عرف « بمال الجزية » فى عهد السلاطين من بنى عثمان — .

الفصل العاشر

(النقود)

وكانت العملة ، عند الفتح ، رومية محضة ، يتخللها بعض قطع فارسية تباطأت فى القطر ، فكانت البقية الباقية من فتح كسرى الثانى (ابرويز) سنة ٦١٦ م — كما تباطأت فى أواخر القرن التاسع عشر الريالات المعروفة بابى طيرة والريالات المقول لها (الشنكو ، أى ذات الخمسة) التى تخلفت عن نفوذ بيت هبسبرج النمساوى ، أولا فعن نفوذ فرنسا ثانياً فى البلاد الشرقية ، وبخاصة فى قطرنا هذا .

وكانت العملة ذهبية أو فضية .

فالذهبية ، على الأجمال ، الدنانير ، والفضية الدراهم ؛ والمرجع ، فى قيمتها ، الى وزنها .

فاعلى ما تكون قيمة الدينار ، متى كان وزنه مثقالا تاماً . أى عشرين قيراطا .

وأقل ما تكون قيمته متى وزن نصف مثقال ، أى عشرة قراريط . وقد كانت تضرب دنانير ، وزن الواحد منها اثنا عشر قيراطا . ولكنها كانت نادرة .

وأتم ما يكون الدراهم ؛ متى وزن درهما تاما من الفضة . فاذا

نقص عنه اختلت نسبته الى الدينار التام . فالدينار التام عشرة دراهم تامة . فان ساوى أكثر من ذلك أو أقل فلعيب فى احدهما .

وقد قدر الدينار بريالين من عملتنا المصرية اليوم ؛ ومنهم من قدره بريالين ونصف ، وبثلاث ريالات . وقدر الدرهم بأربعة قروش صحيحة وقدره على مبارك باشا بقرشين .

وربما ضرب الدينار فضة بدلا منه ذهباً ؛ فكان ثقيل الوزن ، كريه التداول ؛ وكان لذلك نادراً إلا اذا الجأت اليه قلة الذهب . وربما ضرب الدرهم ذهباً بدلا منه فضة : على أن ذلك لم يكن ليعمل إلا اذا كثر الذهب جداً أو عزت الفضة فما زال الناس يتعاملون بهذه النقود الرومية — وعليها نقش امبراطور القسطنطينية الى أن كره ذلك (عبد الملك بن مروان) سنة ٧٦ هـ . فأمر بضرب دنانير ودراهم عربية محضه ، وبعث بها الى جميع بلدان الأسلام ، مشدداً فى استعمالها بدل الرومية والفارسية ، ومهدداً المخالفين بالقتل .

ويروى المؤرخون سبباً لهذا العدول حادثة يصعب تصديقها وهى : أن خلفاء بنى أمية ، اقتداء بملوك الروم والفرس ، كانوا قد اتخذوا لأنفسهم ضمن شارات الخلافة (الطراز) ، وهو عبارة عن أسمائهم أو مايرمز به الى سلطتهم منسوجا بأثوابهم بخيوط من الذهب ، أو بخيوط تخالف ألوانها ألوان الثياب — . وهو أمر نراه اليوم فى لباس رجال الجندية فى سائر البلدان — وكان ذلك (الطراز) ينسج بمصر لتفوق شهرة حائكيها . وبما أنهم كانوا كلهم نصارى ، وقلما كان بينهم من يرى فى تغير ظروف الأيام موجبا لتغيير ما كانوا يضعونه فى

(الطراز) من الكلام الذى أخذوا وضعه فيه عن معلميهم ، استمروا ينسجون فى طراز (الخليفة) باللغة الرومية ، البسملة المسيحية وهى « باسم الرب والأبن والروح القدس ، إله واحد »

فتنبه (عبد الملك) لذلك . — وغريب ألا يكون قد تنبه له (معاوية ابن أبى سفيان) من قبله — . فاستقرأه . فاستغلظ أن تكون بسملة المسيحية فى (طراز) خليفة المسلمين ؛ وأمر بابطالها واستبدالها بكلمة التوحيد ، وهى (لا إله الا هو) فى كل نسيج وكل قرطاس .

فاستشاط امبراطور الروم من ذلك غيظا وبعث الى (عبد الملك) يهدده — ان هو لم يعد (الطراز) الى ما كان عليه — بنقش سب النبي على النقود . فكان ذلك داعياً الى تنبيه (عبد الملك) الى ضرب نقود اسلامية .

وعندنا أن رغبة (عبد الملك) فى ألا يكون محتاجا الى الروم فى شىء وأن تكون له وحدة جميع مظاهر الملك والاستقلال به — وضرب السكة من اهمها — لسبب أوجه من الذى ذكر لعدوله عن سكة قياصرة القسطنطينية الى ضرب سكة باسمه .

فلما وطد عزمه على ذلك ، توفق يهودى يقال له (سمير) الى وضع صنج للوزن أصبح ضرب السكة معه أمراً ميسوراً . — وكانوا قبل ذلك ، يضطرون الى وزن النقود بعضها ببعض . فضرب عبد الملك دنانيره على ذلك الصنج ، ودعيت (دمشقية) نسبة الى المدينة التي ضربت فيها . وامتازت عن الرومية والفارسية بخلوها من نقوش الخلفاء وبأن كان يكتب على أحد وجهيها فى الوسط (لا إله الا الله وحده

لاشريك له)، وحول ذلك (بسم الله، ضرب هذا الدينار أو الدرهم في بلد كذا سنة كذا .) ؛ وفى الوجه الآخر، فى الوسط كذلك (الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد) وحولها (محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)

وهكذا كان يكتب أيضاً على الدراهم، وكانت الكتابة بالحرف الكوفى .

وشاع استعمال هذه النقود العربية بمصر منذ ذلك الحين رغم أنف غير المسلمين من أهلها، وتمسكهم بالعملة الرومية التى لم يكن عليها من الكلام ماتنجرح له الأحساسات الدينية .

وكان كسور الدينار القراريط . وكسور الدرهم الحبات . والقيراط $\frac{1}{20}$ من الدينار، والحبة $\frac{1}{20}$ من الدرهم .

وكانت النقود فى تلك الأيام تساوي مايقرب من ثمانية أضعاف ماتساويه اليوم، لرخص حاجات المعاش وقلة أجور الصناع . فثمن الكر من الحنطة والشعير كان ثلاثين ديناراً أى مايقرب من أربعة عشر جنيهاً مصريا . والكر أربعون أردبا وأردب الحنطة والشعير اليوم يساوى ما يقرب من مائتين وخمسين قرشاً . فثمن الأربعين أردباً اذاً مائة وعشرون جنيهاً مصرياً تقريبا أى نحو مايقرب من ثمانية أمثاله فى تلك الأيام .

وكانت أجرة الأستاذ البناء فى أيام (المنصور) ثلاثة قروش صحيحة، وأجرة الفاعل قرشاً وذلك واحد من خمسة عشر مايتقاضاه

الأستاذ البناء والفاعل اليوم .

وكان راتب (عامل) مصر فى أيام (عمر) و (عثمان) الفي دينار فى السنة أى نحو الف جنيه . فلما أفضي الأمر الى بنى أمية أصبحت ولاية الأعمال فوضى ، وربما جعلت الولاية كلها طعمة للعامل . مقابل خدمة قام بها .

وكان راتب رئيس العمل أى المدير ثلثمائة درهم فى الشهر أى نحو ثلاثين جنيهاً مصريا وراتب قاضى الاقليم الأكبر مائة درهم فى الشهر أي عشرة جنيهات .

غير أن (المأمون) وخلفاؤه زادوا هذه الرواتب جميعها زيادة فاحشة فأبلغوا راتب عامل مصر ثلاثة آلاف دينار فى الشهر أى نحو ألف وأربعمائة جنيه ورواتب القضاة والقواد والكتبة أضعاف ما كانت عليه . — وعلو رواتب موظفي الدولة علامة من أوكد العلامات على ازدياد أحد أمرين وتفشيه فيها ، وهما الرخاء الكثير أو الفوضى الأدارية .

الفصل الحادى عشر

« آثار العرب بمصر »

قلنا ان العامل كان يخصص ، من المال الذى يحبسه لديه ، جانبا مهما للاعمال العموميـة . فما هى الأعمال التى قام العرب بها فى مصر ، مدة حكمهم عليها ؟

هى المبانى والجسور والخلجان وتحصين الثغور .

اما المبانى فهى أولا مدينتان : الفسطاط والعسكر .

فأما الفسطاط فبناها عمرو بن العاص فى سنة الفتح ، شمالى حصن بابل ، ما بين القاهرة اليوم ، ومصر العتيقة ؛ واختط فيها نحو عشرين حارة دعاها خططا .

ثم أخذت تتسع وتزداد عمارة كلما رسخت اقدام المسلمين فى البلاد وتوطد سلطانهم ، حتى فاقت (البصرة) و (الكوفة) في كثير من الوجوه . وبلغ طولها على ضفة النيل ، ثلاثة أميال : فحمل ذلك مؤرخى العرب على المبالغة فى وصف عمارتها مبالغة كبيرة . فقالوا انه كان فيها ستة وثلاثون الف مسجد (! ! !) وثمانيـة آلاف شارع مسلوك (! ! !) والف ومائة وسبعون حماما (! ! !) الخ . ولئن يكن هذا غير صحيح ، فانه ليدل فى كل حال على العظمة والعمران .

وكان جامع عمرو ، بين تلك المساجد كعروس الزفاف ، بنى

سنة ٢١ هـ وجعل طوله خمسين ذراعا وعرضه ثلاثين ذراعا . ثم زاد فيه (مسلمة بن مخلد) الانصارى سنة ٥٣ هـ من شرقية وبحرية ، وجعل له رحبة فى البحرى وأربع صوامع فى اركانه الأربعة ثم هدمه (عبد العزيز بن مروان) سنة ٧٩ ، وزاد فيه من ناحية الغرب وادخل فيه الرحبة البحرية . وفى سنة ٧٩ رفع (عبد الله بن عبد الملك بن مروان) سقفه وكان مطاطا ؛ وفى سنة ٩٢ هدمه (قرة بن شريك العبسى) بأمر (الوليد بن عبد الملك) ، واعاد بنيانه ، وجعل فيه العمد المذهبة : فجاء احسن مما كان بكثير . ثم حصلت فيه زيادات وتحسينات أخرى ؛ ولكنه وقع فيه حريق سنة ٢٧٥ ذهب بمعظم ما استجد فيه من زيادة. فاعاد (خمارويه بن احمد بن طولون) عمارته .

واما (العسكر) فبناه (أبو عون عبد الملك بن يزيد) القائد العباسى الذى أتى مع (صالح بن على) مطاردا لمروان بن محمد آخر خلفاء بنى امية سنة ١٣٣ هـ ، فى الصحراء الواقعة بحرى الفسطاط ، حيث جبل (يشكر) . فاتصل بناؤه ببناء الفسطاط . فى مدة ولاية (السرى ابن الحكم) ، وبنيت فيه دار الامارة ومسجد جامع عرف بجامع العسكر ، اولا ، ثم بجامع ساحل الفلة . وصار ، مع الأيام ، مدينة ذات محال واسواق ودور عظيمة . وجعل نزولا لأمراء مصر الى عهد (احمد ابن طولون) ؛ ثم من بعده ، حتى قدوم (جوهر القائد) من المغرب ، وبنى القاهرة .

ثانيا : قبة الهواء : بناها محل القلعة الحالية (حاتم بن هرثمة) أمير مصر (للامين بن الرشيد) . وكانت قصرا فخما جلس فيه (المأمون)

لما قدم مصر ، وكثيرا ما اتخذها احمد بن طولون مقاما له . ثم اعتنى (خمارويه) ابنه بها وحلاها بالستور الجليلة والفرش العظيم . وقد خربت فى جملة ما خرب لما زالت دولة بنى طولون كما سترى فى الجزء الثانى من هذا التاريخ .

وما بين سنة ٥٣ و سنة ٦٠ هـ أمر (مسلمة بن مخلد) عامل (معاوية) على مصر بابتناء منارات للمساجد العامة — ولم تكن المساجد الا فى خواطر القطر ، لبقاء الريف فى ايدى الأقباط —

وحوالى سنة ٨٥ هـ تم بناء القصر الجميل المدعو (الدار الذهبية) فى شارع سوق الحمام بالفسطاط . وفى اسم ذلك القصر ونعته ما يغنى عن وصفه .

ولما كان (المأمون) مقيما بمصر أمر ببناء جامع فى الروضة . وهو أمر يدل على ان العمران كان قد ازداد فى تلك الجزيرة ، وانها أصبحت آهلة بالسكان .

ثالثا : مقاييس النيل : فان عمرو بن العاص بنى مقياسا باسوان ؛ وبنى (عبد العزيز بن مروان) مقياس بحلوان . وبنى (اسامة بن زيد التنوخى) مقياسا آخر فى الجزيرة ، بأمر (سليمان بن عبد الملك)

ثم بنى (المتوكل) ، فى الجزيرة أيضا ، المقياس الكبير المعروف بالجديد سنة ٢٤٧هـ ؛ وأمر بأن يعزل النصارى عن قياسه . فجعل عليه (يزيد ابن عبد الملك) التركى عامله على مصر (عبد السلام بن عبد الله بن ابى الرداد) ، وأجرى عليه سبعة دنانير كل شهر ، اي نحو ثلاثة جنيهات .

* * *

وأما الجسور والخلجان ، فأن البلد كان محفور الأنهار معقود الجسور عندما تسلمه العرب من القبط [١] ولكن الجسور ان لم تصن ، تهدمت والخلجان ان لم تطهر ، طمت .

فصان العرب الجسور ، وطهروا الترع ، وجدد عمرو بن العاص على ماسبق لنا القول ، حفر الخليج الذى عرف باسم (خليج أمير المؤمنين) فى ذلك الوقت؛ ثم بعد أن طمر فى أيام (أبى جعفر المنصور) ثانى الخلفاء العباسيين وبأمره ، لكيلا تنفذ مراكب الروم منه الى القلزم فتهدد حرمى الأسلام المقدسين ؛ وأعيد فتحه فى أول عهد الفاطميين عرف باسم (خليج القاهرة) ، ودعته العامة (الخليج الحاكمى) و (خليج اللؤلؤة) . وكان يمتد من الفسطاط الى مدينة القلزم ، وهي (السويس) الحالية ، وابتنى (عبد العزيز بن مروان) عليه قنطرة فى طرف الفسطاط .

ولكن تعدد الفتن والثورات الداخلية كثيرا ما حال دون صيانة الجسور وتطهير الترع كما يجب . فتخربت جسور كثيرة ولم يبق من الخلجان فى أرض مصر يوم استلمها احمد بن طولون سوى أربعة وهى (خليج سخا) و (خليج سردوس) — وكان اكثر خلجان مصر انعطافا — و (خليج الاسكندرية) وكان عليه عدة ترع ، وكان خليجا نيليا فقط ؛ وقيل : بل كان صيفيا أيضا . والاول أصح — ؛ و (خليج الفيوم) وتتشعب منه ، فى غربيه ، شعبة كانت تدعى (المنهل) ، وتعرف باسم (بحر يوسف) يستقى (الفيوم) منها صيفا وشتاء .

(١) المقريزى ج ١ . ص ٥٨

وأما تحصين الثغور ، فبدىء به فى عهد (معاوية بن ابى سفيان) ، وبلغ أكثره فى أيام (هرون الرشيد) و (المأمون) . وكانوا يتخذون الثغور محطات لتنباع منها غزواتهم البحرية . فأحوجتهم اذا الدور لصناعة السفن . فأنشئت فى أواخر القرن الأول للهجرة . ثم ابتنى (عنبسة بن اسحق) ، حوالى سنة ٢٤٠ هـ . أسطولا عامرا أقامه مرابطا يتجول بين (رفح) و (العريش) ودمياط والاسكندرية للأيقاع بالروم ، اذا ما تجاسروا على معاودة النزول الى الشواطىء المصرية ، وذلك عقب نزولهم دمياط سنة ٢٣٨ هـ . فقام بمهمته قياما حسنا .

الفصل الثاني عشر

حركة العلوم والمعارف والفنون

يتضح ، مما تقدم ، أن ما تركته حكومة العرب من آثار باقية فى قطرنا هذا لقليل جدا ، ويكاد يكون غير جدير بالذكر ، واذا استثنينا منه خليج أمير المؤمنين ، وقارناه بآثار الفراعنة والبطالسة والرومان ، سابقيهم ، وبآثار الفاطميين والأيوبيين والمماليك لاحقيهم . على أن خليج أمير المؤمنين ذاته لم يحفره العرب من عندياتهم . ولكنهم وجدوه مطمورا فنظفوه من الرمال التى كانت قد تكدست فى مجراه . والا فانه هو بعينه الذى كان يقال له فى عهد الرومان (خليج ترايانس) وكان يقال له فى عهد أواخر الفراعنة (خليج نيخاو)

فهل عوضت حركة العلوم والمعارف والفنون فى عهدهم ما فاتهم من حركة الأعمال والمنشئات المفيدة ؟

اننا نترك الحكم فى ذلك للقارىء بعد أن يأتى على ما نخطه فى هذا الموضوع .

***

كانت الحياة العمليـة فى القطر المصرى قد انحصرت فى مدينة الاسكندرية . منذ أن اتخذها (البطالمة) المقول لهم (بطالسة) عاصمة لملكهم . فما لبثت هذه المدينة أن اصبحت عاصمة العالم القديم العلمى

باسره ؛ وأضحت منارتها المنصوبة على مدخل ثغرها ترمز فى الواقع الى حقيقة منزلة تلك المدينة العجيبة من العلوم والمعارف والفنون البشرية ؛ وأضحت هذه الحقيقة تتشخص فى المكتبة الفخمة التى أنشأها وو الاها وأغناها أولئك العواهل ، حتى بلغ ما جمع فيها من كتب العلم القديم سبعمائة الف مجلد . لغاية سنة ٤٧ ق . م .

فى تلك السنة ثارت الاسكندرية على (يوليوس قيصر) القائد الرومانى العظيم ، انتصارا لبطليمس الثالث عشر ملكها ؛ ومعاكسة لأخته (كليوباترا) ، التى كان ذلك القائد معضدا لها ، وحاصرت العامة والدهماء الرومانى المنتصر فى قصر الملوك الذى كان مقيما فيه . فاضرم (قيصر) النيران فى جوانبه ، لينجو ، أوأضرمها الثائرون ليهلكوه ، فامتد لهيبها حتى تناول المكتبة العديمة المثيل -- وكانت في جزء من القصر — ، والتهمها أو التهم معظمها .

ولئن لم تكن هذه الحادثة المحزنة مذكورة فيما كتبه قيصر ولا فيما كتبه شيشرون . ولا فيما كتبه طيطس ليفيس وباقى مؤرخى الرومان المعاصرين ، لاسباب لا تخفى على اللبيب ؛ ولئن لم يظهر ذكرها الا بعد مائة سنة فقط ، من وقوعها ، فى قول للفيلسوف (سنكا) الرومانى ، الا أن وقوعها فى تلك السنة أمر لا يحتمل الريب أو الطعن .

فكان حرق مكتبة الاسكندرية ــ والحالة هذه — خسارة فى ذلك الحين على العالم لم يصب بمثلها ، الا نادرا ، فى عموم دائرة تاريخه العلمي والأدبى .

غيرأن (مرقص أنطونيس) الرومانى ، الذى أخلف (قيصر) على

حب كليوبترا وعلى سدة سلطته الشرقية ، ما لبث أن أهدى الملكة المصرية محبوبته ، حوالى سنة ٤٠ ق . م . جميع مكتبة ملوك (برجمو) بآسيا الصغرى — وكانت تنيف على المائتين الف مجلد — فاستردت مكتبة الاسكندرية بهاتيك الهدية شيئا من بهجتها وفائدتها القديمتين وأخذت ، منذ ذلك الحين تزداد ازديادا بما جعلوا يضيفونه اليها من مؤلفات نوابغ العصر الوثني من رومانيين ويونان .

ثم دخلت المسيحية فى القطر المصري . فصبغت الحياة العلمية فيه بصبغتها الخاصة . فتحول العلم والفن — الا مابقى منها فى المدرسة الوثنية — الى محض علم وفن دينيين كنيسيين ، أخذا ينازعان العلم والفن الوثنيين السعادة فالبقاء فالحياة ؛ وقامت مكتبات مسيحية جديدة تزاحم — فى السر أولا — المكتبة الوثنية العظيمة .

ولما استقر الأمر للأمبراطرة المسيحيين ، وأصبح الدين المسيحى دين أغلبية سكان الأمبراطورية ، دخل العلم والفن الوثنيان فى الاحتضار — وكانا العلم والفن الحقيقيين ، فى ذلك العصر ، على ما يراه علم اليوم وفنه المدنيان — وأخذت رفوف المكتبات الدينية فى الأسكندرية تزدحم بمؤلفات أباء الدين الجديد وأقطابه — أى فطاحله وأعلامه — فوق مافيها من كتبه الدينية وشروحاتها ؛ وأخذت تزاحم فى العلن ، المكتبة الوثنية الكبرى ، وتأخذ منها قراءها .

ثم آل أمر الامبراطورية كلها الى تاودوسيس من سنة ٣٧٨ الى سنة ٣٩٥ م . — وكان شديد المسيحية — فأمر بهدم معابد الوثنيه ، وهيا كلها ، وآثارها ؛ وتعقب — الغشوم — جميع معالمها . فدرس كل

ما وصلت اليه يداه منها ؛ لا سيما هيكل (سيرابيس) بالاسكندرية — وكانت المكتبة الوثنية قد نقلت اليه لاندثار قصور البطالمة القديمة ، مع تمادى الأيام وبالأخص فى غضون إخماد الثورة التى شبت فى الثغر فى عهد (ديوكلسيانس) الشهير بعهد الشهداء — . فأضاع ، بذلك ، على العلم والفن الكنوز التى كانت فى تلك المعابد والهياكل ، وكنوز العلم الثمينة التى كانت فى تلك المكتبة وهى : أولا : ما أبقت عليه النيران التى أضرمها (يوليس قيصر) أو أضرمتها الدهماء فى عهده ، من كتب نوابغ عصور (البطالمة) والعصور التى سبقتها ؛ ثانيا : المائتا ألف مجلد التى كانت تتكون منها المكتبة البرجيه السابق ذكرها ؛ ثالثا وأخيرا : معظم ما أضيف الى تلك الكتب من مؤلفات نوابغ العصر الرومانى الوثنى ، سنة ٣٨٩ م .

وفى سنة ٤١٥ م ؛ قضت مدرسة الاسكندرية المسيحية على آخر معهد علمى وثنى فى القطر المصرى ، بثورة دينية هائلة أوقد أوارها (كيرلس الأكبر) ؛ بطريرك الاسكندرية ، ضد الفيلسوفة (هيباثيا) أخيرة فلاسفة العهد الوثنى فى هذه البلاد . فذهبت فيها تلك الآنسة الكريمة وكل ما كان لا يزال باقيا فى المدينة الوثنية العلمية ، ضحية تحمس الأغبياء تحمسا فظيعا للدين المسيحى ، ليس من أصول هذا الدين فى شىء .

ثم أتى عام ٥٢٩ . فرأى الامبراطور (يستنيانس) — جامع القانون المعروف باسمه — أن يقضى قضاء مبرما على كل علم ومعهد علم وثنيين ، فأمر باقفال مدرسة أثينا الفلسفية — وكانت هى الوثنية لوحيدة الباقية — وبتعطيل كل كتب علماء الوثنية فى عموم أنحاء

الامبراطورية الرومانية .

فقضى بذلك الامر ؛ ومات العلم والفن الوثنيان موتهما النهأى ، اذا كان ثمت من موت نهأى !

* * *

بعد ذلك لم يتبق شيء من المكتبة الاسكندرية الشهيرة فى الماضي ؛ بل ضاع ذات كيانها . ولا ندرى هل أعيدت الى الوجود ، بعد أن هدمت غيرة (ثيوفيلس) ، البطريك الاسكندرى ، فى عهد (ثاودوسيس) المذكور هيكل (سيرابيس) وأحرقته ، أو لم تعد . لأن التاريخ ينبئنا على لسان (أروزيس) ، الكاتب المسيحى الجدلى ، بأن مظهر رفوفها الفارغة كان لا يزال ، بعد تلك الوقعة بعشرين سنة ، تهيج شجون محبى العلوم .

ولئن أعيدت فانا لا ندرى أين كان ذلك : هل فى الكنيسة التى أقيمت اكراما لشهداء النصرانية ، فوق أنقاض ذلك الهيكل الوثنى ، أو فى دار البطريركية المرقصية ، أو فى محل آخر جعل لها خصيصا . ولكننا نعلم ، بالاستنتاج ، أن تلك المكتبة ، ان أعيدت ، لم يكن يمكن — أنى أعيدت — أن تحوى سوى كتب لغوية يونانية من نحو وصرف وأجروميات ، وربما بعض كتب فى علم الفلك ، كلها أو جلها مبنية على أن الأرض محور النظام الفلكى — وهو مبدأ مغلوط — ، وعدد لايحصى من كتب دينية مسيحية أو يهودية ، يونانية أو عبرانية أقرتها المسيحيه ،لاسيما ما كان منها خاصا بالمباحث العقيمه العديمه الجدوى

التى اتقد سعيرها فى الأرض المصرية من أيام (أوريجنس) العظيم الى أيام (كيرلس) الأكبر.

ونقول انه لم يكن يمكن أن تحوى خلاف تلك الكتب، أولا، لأنه كان من المتعذر جدا الحصول على نسخ جديدة من الكتب التى ذهبت ضحية نيران الحريق ونيران التعصب الدينى، لندرتها ولتحول النفوس عنها، وسخطها على حامليها. ثانيا لمنافاتها لميول العقلية المصرية فى تلك الأيام.

ثم نستنتج من ماجريات الأمور حينذاك فيما لو سلمنا بان تلك المكتبة أعيدت على شكل يراد بان الحكم البيزنطى، بعدما قام الخلاف على طبيعة المسيح ومشيئته بين البيزنطيين والأقباط، شرع، على مضاضة من الملأ الاسكندرى والمصرى قاطبة، يملأ رفوف تلك المكتبة بما كتبه علماء حزبه ولاهوتيوه فى تأييد قرارات المجمع الخلقدونى وتفسيرها، ودحض مزاعم (الموحدين)؛ وأنه استبعد، من تلك الرفوف، كل ما كان مؤيداً لمذهب مخالفيه.

واستنتاجنا هذا مبنى على مانعلمه من الطبيعة البشرية على العموم، ومن طبيعة الانشقاقات الدينية على الأخص. وما فعله، فيما بعد، السلطان (صلاح الدين الأيوبى) السنىّ، بمكتبة الخلفاء الفاطميين، الشيعيين لما ازال دولتهم لخير دليل على صحة ما نقول [1].

وأن البيزنطيين لمهتمون بذلك، زيادة فى نكاية الأقباط، اذا بالفتح العربى قد داهمهم ونزع البلاد من أيديهم. فانجلوا عن الاسكندرية،

(١) انظر الجزء الرابع من هذا التاريخ والمجلد السادس.

آخذين معهم من كتب المكتبة ، التي نحن بشأنها ، ما كان عزيزا عليهم أو كانوا معجبين به ، مما استطاعوا الى أخذه سبيلا . ولكن سرعة الأنهزام واضطرابه اضطراهم الى ترك معظم المؤلفات التى انشئت انتصارا للمذهب الخلقيدونى . ويغلب على ظننا أنهم فضلوا تركها على ترك كتب العلم الحقيقى ، لندرة هذه الكتب وصعوبة الحصول على غيرها من نوعها بينا كانت كتبهم المدافعة عن مذهبهم كثيرة الشيوع ، تتداولها الأيدى فى كل مكان وتكتظ بها دور الكتب العمومية فى القسطنطينية .

فلما وضع العرب أيديهم على تلك المكتبة — على فرض وجودها — لم يكن اذا فيها ، فوق ما ذكرنا من كتب النحو ، والصرف ، واللغة اليونانية ، وعلم الفلك المغلوط ، ونسخ التوراة والأناجيل ، سوى مالا يقع تحت الحصر من المؤلفات فى المباحث والمناقشات الدينية من (أوريجينيس) الى (كيرلس) ، ومالا يحصى من المؤلفات فى تأييد المذهب الخلقيدونى .

ولما كانت كل هذه الكتب مكتوبة ، طبعا ، باللغة اليونانية — وهى لغة أصبح أقباط مصر ، بعد الاضطهاد ، يكرهونها أشد الكره ؛ وكانت نسخ ما كتب فى الأمور الدينية — من التوراة والأناجيل الى مؤلفات آباء الكنيسة القبطية من (أوريجينيس) أو (كيرلس) — موجودة بكثرة عند أفراد الأمة المصرية بلغتهم القبطية الديموتيكية ؛ وكانت المؤلفات الموضوعة لتأييد المذهب الخلقيدونى منقوما عليها وملعونة لعنة غليظة عند الأقباط ، فان

(المقوقس) وأصحابه لم يروا بأسا — بعد فتح الاسكندرية واستيلاء العرب عليها — فى إقدام عمرو بن العاص على إحراقها كلها ، امتثالا لما أمر به الخليفه العظيم (عمر بن الخطاب) .

بل انا نذهب الى أبعد من ذلك ، ونستنتج مما بيناه ، ومما يقال عن إقبال حماى الاسكندرية على حرق تلك الكتب ، لما وزعت عليهم — مع أنهم كانوا كلهم أقباطا وفى وسعهم الابقاء عليها ، لو شاؤا ورجاهم فى ذلك قومهم ، ثم يدعون أنهم أحرقوها — ان (المقوقس) ورجاله كانوا متشوقين الى حرقها تشوقا عظيما ، ليشفوا ، بذلك ، غليل قلوبهم الظمأى الى الانتقام من البيزنطيين . وأن لهم ، اذاً ، ليداً كبيرة فى حمل عمرو بن العاص على رفض الطلب الذى يقال ان (يوحنا فيلوپونس) ، أو الغراماطيق ، قدمه له . بمنحه تلك المكتبة ، وفى إحالة إجابة ملتمسة الى الخليفة . ويغلب على ظننا أن (يوحنا) ذاك كان روميا ؛ (نستنتج هذا من لقبه) . فنستبعد ، والحالة هذه ، بقاءه فى الاسكندرية بعد الفتح .

ونستنتج من الكتابة المنسوبة الى (عمر بن الخطاب) وهى بنصها وفقها على مارواه فى كتاب (تراجم الحكماء) القاضى الا كرم (ابن القفطى) الذى أخذ عنه (عبد اللطيف) فى كتابه (الافادة والاعتبار) و (أبو الفرج الملطى) فى كتابه (تاريخ مختصر الدول) : « وأما الكتب التى ذكرتها ، فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ، ففى كتاب الله عنه غنى ؛ وان كان فيها ما يخالف كتاب الله ، فلاحاجة اليها . فتقدم باعدامها ! » نستنتج أن (المقوقس) وقومه كاتبوا

(عمر بن الخطاب) حتما ، ووصفوا له تلك الكتب بان بعضها — أى الكتب المقدسة المكتوبة بالرومية ، والتى كان (الموحدون) يطعنون فى صحتها ، كما يطعن كثالكة اليوم فى صحة الكتب المقدسة البروتستنتية — لايخرج عما ورد فى القرآن ؛ وبعضها ، أى ما كتب ضد مذهب (الوحدة) ، — ويجب أن لايغيب عن الذهن الالتباس الذى أوجدته لفظة (موحدين) بين توحيد الأقباط وتوحيد المسلمين — مخالف للقرآن بالمرة .

لأنه لو لم يكن الأمر كذلك ، فلا مبرر لكتابة (عمر) التى ذكرناها والتى أمر بمقتضاها باعدام تلك الكتب ، الا اذا أسندنا الغباوة الكلية الى ذلك الخليفة العظيم الشأن ، على ما هو معروف ومشهور عنه من التفوق فى الذكاء تفوقا مطلقا يربأ به عن أن يعتقد أن العلوم الفلكية والرياضية والميكانيكية ، مثلا ، مخالفة لكتاب الله ، أو أن فى كتاب الله مايغنى عنها ، كما يعتقد ذلك أغبياء اليوم .

أن فى تسمية (يوحنا) المذكور بالغراماطيقى وفيما بلغ الينا من شروحاته الكثيرة فيها الثرثرة على (موسى) و (اسطاطاليس) لبيانا جليا لنوع معلوماته وميوله ، ولنوع الكتب التى كانت المكتبة ، التى نحن بصددها ، مزدحمة بها ودعاها هو (كتب الحكمة) .

فأننا كثيرا ماسمعنا ونسمع نحويى (الأزهر) وأمثاله من المعاهد الدينيـة وطالبى العلم الشريف وعلمائه يسمون كتب « النحو ، والصرف ، والفقه ، والتوحيد ، والحديث ، ومجلدات الشروحات الضخمة فيها وحواشيها وحواشى حواشيها » (كتب حكمة وعلم) ،

بل كتب (العلم والحكمة) الوحيدة ؛ ولا نزال نرى ونسمع لقب (عالم) يطلق بالأخص على من نبغ فى ميدان هذه المعارف .

***

فلم يخسر العالم ، اذا ، خسارة يبكيها فى مسألة احراق كتب تلك المكتبة ، لابل خرج من هاتيك الحادثة فائزا فوزا حقيقيا ، يشكر عليه من أولاه اياه سواء أكانوا العرب أم الأقباط . لأن النار ، التى أكلت ما جادت به قرائح المتجادلين في غير المفهوم وغير المفيد ؛ أكلت أيضا الفتن التي أثارتها تلك المجادلات فى الماضى ، وكان من شأنها أن تثيره فى المستقبل لو بقيت مادتها محفوظة ؛ وذهبت ولله الحمد ، بشروحات الناس فى غنى عن المشروح فيها .

***

غير أن العرب ، فى القرن الأول من حكمهم على مصر ، لم يخرجوا الى حيز الوجود من المؤلفات الأدبية أو العلمية ما كان من شأنه أن يحلهم فى قلوب المصريين منزلة من العلم والأدب والحضارة تضارع — ولو على بعد — منزلتهم فيها من البطولة والفروسية والشجاعة والبأس . بل أنهم لم يخرجوا منها شيئا البته . واشتغلوا عن العلم ، فى بادىء أمرهم ، بالرياسة والسياسة ، عائبين على كل عربى اشتغاله فى اللغة أو التعليم ، قائلين عنه « أنه يشتغل بصناعات الموالى » . وبلغ من غلوهم فى ذلك ان بعض الخلفاء الراشدين منعوا من تدوين ذات العلم الأسلامى البحت ، الا وهو : « القرآن ، والتفسير ، ورواية الأحاديث » ، مستندين فى نهيهم هذا الغريب على قول رواه

(ابن عباس) عن النبى ، وهو : « إنما ضل من كان قبلكم بالكتابة » . ولعل الحامل لهم على ذلك انما هو بعينه ما حمل (ابن عباس) إذ أتاه بعضهم بكتاب فى « العلم » على محو ماجاء فيه بالماء ، قائلا : « اذا كتب العرب ، اعتمدوا على الكتابة ، وتركوا الحفظ ، فيعرض للكتاب عارض فيفوت علمهم » (١) .

وهذا من أغرب مايستغرب له من انقلاب العقلية ؛ على أن لنا في (ابن عباس) كلاما سيأتى فى حينه .

فاكتفى العرب ، اذاً ، فى القرن الأول ، من أبواب الأدب والعلم ، بالاشتغال بالشعر والخطابة والأمثال – وهى آدابهم فى الجاهلية ومهذبات نفوسهم – ، وبالتخصص فيما يتقنون به ضروب الفروسية والحرب ، أى في ترييض أجسامهم على مشقاتها ، عملا بنصيحة (عمر بن الخطاب) رجلهم العظيم ، وهى : « أما بعد ، فعلموا أولادكم السباحة ، والفروسية ، ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر ! » (٢)

فازدادت الخطابة وازداد الشعر رونقاً عما كانا عليه فى الجاهلية ؛ وتبارى القوم ، خلفاؤهم وقوادهم وأمراؤهم فى ميدانها مباراة محمودة ، كما أنهم توخوا البلاغة ما استطاعوا فى مكاتباتهم الرسمية ذاتها ، لأنهم كانوا يعدونها من قبيل الخطابة .

ولكنهم أهملوا كل علم آخر ؛ وأهملوا تدوين كل ماجادت به

(١) كشف الظنون . ج ا . ص ٢٥
(٢) البيان والتبيين . ج ا . ص ٢١٣

قرائحهم فى بابى الشعر والخطابة ذاتها. لتفضيلهم الحفظ على التدوين؛ بل أهملوا تدوين العلم الأسلامى البحث عينه ـ على قلته ـ وقضوا قرنهم الأول وبعض الثانى، وهم يتناقلونه بالتلقين ولم يدونوا القرآن نفسه بعد أن أحجم (أبو بكر)، مدة، عن ذلك، قائلا: «كيف افعل أمراً لم يفعله رسول الله، ولم يعهد الينا فيه عهداً؟» الا لما خافوا أن تذهب الحروب والفتوحات بحفاظه، فيضيع.

غير أن القرن الثانى ما كاد يقبل على الأسلام فى أقطاره المختلفة الا وشعر العرب باحتياجهم الى مدونات يصونون بها ماأوجده الدين بينهم من علوم، لأن لغتهم كانت قد فشت فى البلاد التى افتتحوها، وأفسد متكلموها من الأعاجم استعمالها، فأقبلوا يستكتبون الكتاب مواليهم ـ لأنهم ظلوا يستنكفون من التدوين بأيديهم ـ، ويملون عليهم الحديث، والفقه، وعلوم القرآن، راجعين فى ذلك الى حديثين رواهما (أنس بن مالك)، وهما (١) «قيدوا العلم بالكتابة»، (٢) «العلم صيد والكتابة قيد»،

والظاهر من التناقض الذى بين هذين الحديثين والحديث السابق ذكره وهو: «انما ضل من كان قبلكم بالكتابة» ان القوم أخذوا يشعرون مع تمادى الأيام، ومنذ ذلك الحين، بكل ماتكسب آراؤهم ومذاهبهم وأعمالهم من دعامة متينة، متى أمكنهم اسنادها الى حديث يضعونه. فلم يحجموا عن الاستفادة من وضعه. فكثرت، فى مدة

قصيرة ، الأحاديث المروية عن النبى ، بحيث بلغت المئات من الآلاف ، وأصبح من المتعذر جداً معرفة صحيحها من المبتكر منها ابتكاراً . لاسيما وأن معظم من رويت عنهم اناس لاهم فى العير ولا هم فى النفير (كأبى هريرة) ممن عرفو « بالصحابة » المتأخرين أو بأهل الشفيقة ، أو ممن اشتهروا بالاختلاق شهرة مريعة كابن عباس – وهو أكبر مدعي العلم والمتمخرفين فيه من رجال الصدر الأول –(١)

فأدى ذلك الى انشاء علم الحديث ، وصيرورته ، مع علمى تفسير القرآن ، والفقه علوم الأسلام الوحيدة فى أزمنته الأولى .

ولولا أن كل أومعظم مفسرى القرآن ورواة الأحاديث وواضعى الفقه من غير المصريين ، وأن للمصريين من هذه العلوم الثلاثة النصيب الأكثر ضآلة ، لا وسعنا هنا المجال لأنفسنا فى التكلم عن كل من برع منهم فيها . ولكننا نكتفى من ذلك بأن نقول أن نتيجة اندفاع العرب فى هذا السبيل كانت انشاء تدوينات دينية اسلامية ضخمة ، غثها يربو على سمينها بكثير ، حلت من العالم المصرى ، لاسيما فى القرنين الثانى والثالث ، فى المحل الذى كانت تشغله من قبل التدوينات المسيحية الدينية الضخمة ، واخلاه منها حرق مكتبة الاسكندرية .

وأما مفسرو القرآن فى الفترة الأولى ، فالصحابة ، ثم التابعون ، وأشهرهم (عبد الله بن سلام بن الحارث) و (كعب بن مانع المعروف بكعب الأحبار) ، وكلاهما يهوديان مدينان ، اعتنقا الأسلام و (وهب

(١) انظر مايقول عن أبى هريرة وعن ابن عباس الامير لئون كائتانى فى مقدمته « لسنويات الأسلام » .

ابن منبه) و (طاؤس بن كيسان) ، وكلاهما فارسي الأصل .

ثم كثر المفسرون بعدهم ، وتباروا فى الأكثار من الروايات التى دسها من (التلمود) أومن (الأفستا) فى تفسير القرآن ذلك اليهوديان وذانك الفارسيان : فغلبت على التفاسير الصبغة الخرافية التى يمتعض لها أيامنا هذه أصحاب المعرفة والذوق السليم.

وأما رواة الأحاديث فالصحابة والأزواج ، ومن الصحابة ، المتأخرون - على الأخص - وأهمهم (أبو هريرة) و (ابن عباس) كما قلنا ؛ ومن الأزواج (فعائشة) ولما تكن قد تجاوزت الثامن عشر ربيعاً من عمرها لما توفى النبي . ولكن الذين رووا الحديث . إما عن صاحب وإما عن زوج من أزواج النبي ، فأكثر من أن يحصوا ومعظمهم وضاع فى روايتهم ، كما سبق القول . وأشهر الوضاع (ابن أبى يحيى) فى المدينة ، و (الواقدى) فى بغداد و (مقاتل بن سليمان) بخراسان ، و (محمد بن سعيد) بالشام .

على أن (ابن أبى العوجاء) ، فى الكوفة ، سبقهم جميعا فى هذا المضمار ، وبالغ فى ذلك مبالغة حدت بامير البلاد (محمد بن سليمان) الى قتله سنة ١٥٣ هـ . فلما أيقن أنه مقتول قال : « والله ! لقد وضعت أربعة آلاف حديث ، حللت بها الحرام وحرمت الحلال ! والله ! لقد فطرتكم يوم صومكم وصومتكم يوم فطركم ! »

وأول من دون الحديث الأمام (مالك) فى كتاب دعاه (الموطأ) ؛ و (مالك) هذا مدنى توفى سنة ١٧٩ هـ . ثم جاء (محمد بن اسماعيل النجارى) فخرّج أحاديث السنة على أبوابها ، وألف كتابه

(الصحيح) ؛ وفعل (مسلم بن حجاج) النيسابورى مثله فى كتابه (المسند الصحيح) ، فسمى كتاباهما (الصحيحان) و (البخارى) توفى سنة ٢٥٦ ، و (مسلم) سنة ٢٦١ وكلاهما أعجميان

ثم حذا حذوها (أبو داود) المتوفى بالبصرة سنة ٢٧٥ ؛ و (الترمزى) المتوفى سنة ٢٧٩ هـ (والنسائى) المتوفى سنة ٣٠٣ . و (الدار قطنى) المتوفى ببغداد سنة ٣٨٥ هـ .

غير أن المحك الذى اتخذه جميع هؤلاء الأعلام ليتبينوا به صدق الحديث من كذبه — وهو اسناده بالتسلسل الى روايين مزعوم صدقهما — لمحك لايقبله العقل السليم . لأن الخبرة دلت على عدم استطاعة راو أن يأتى بحديث لغيره . بدون أن يكفيه بشىء من ذاتيته ، حتى عندما يتعمد نقله بالحرف الواحد .

وأما واضعوا الفقه فأولهم الخلفاء الراشدون ، فكبار الصحابة ، ثم التابعون . وكان المرجع فى الفقه والفتيا فى أيام بنى أمية الى أهل المدنية — ويعرفون بأهل الحديث لرغبة الأمويين فى استمالتهم عن (أهل البيت) اليهم .

ولكن ، لما أفضى الأمر الى بنى العباس ، وأراد (المنصور) تصغير أمر العرب . لأنهم أنصار الأمويين أو العلويين — ، وأعظام أمر الفرس — لأنهم أنصار بيته العباسى — . جعل المرجع فى الفقه والفتيا الى أهل العراق . وعرفوا بأهل الرأى أو القياس .

فانقسم بذلك عالموا الفقه الى قسمين : المدنيون ، وعلى رأسهم (مالك) — وهم المتمسكون بالتقاليد ، ولو أكل الدهر عليها وشرب

وأمست غير صالحة وغير موافقة لمقتضيات الأيام ؛ ونصرهم فيما بعد (الشافعي) و (ابن حنبل) ؛ — والعراقيون — : وهم المشغلون عقولهم فى استنباط القواعد على طريق الرأى والقياس . وزعيمهم (أبو حنيفة النعمان) ، ونصراؤه (ابو سيف) و (ومحمد بن الحسين) و (والحسن بن زياد) وغيرهم . على أن عقولهم ، لاسيما عقل الزعيم (ابى حنيفة) كان الغالب عليها التكييف الفارسي ، والصبغة الفارسية .

ولكن اذا اختلف الزعيمان (مالك) و (ابو حنيفة) فى الوجهة التى اتخذاها لفقههما ، فانهما شريكان فيما جرته عليهما من عذاب .

(فمالك) لانكاره البيعة لبنى العباس ، جرده عم (المنصور) — وكان أميرا على المدينة لابن أخيه — من ثيابه ، وضربه بالسياط ، وخلع كتفه ؛ و (ابو حنيفة) لانكاره رأى (المأمون) فى خلق القرآن ، ضرب بالعصى ضربا مبرحا .

وما لبث شيوع اللغة العربية فى البلاد المفتتحة ان أوجب اتجاه الافكار الى وضع ضوابط لها تقى متكلميها الاعاجم من اللحن . فشرع (ابو الاسود الدؤلى) المتوفى سنة ٦٩ هـ فى وضع القواعد النحوية بناء على رغبته ، وعملا بايعاز (زياد ابن ابيه) حاكم البصرة ؛ وقيل عملا باشارة (على بن ابى طالب) ، وحذا حذوه (عنبسه بن معدان المهرى) ، و (ميمون الأقرن) و (عبد الله الحضرمى) و (عيسى بن عمر) و (الخليل بن احمد) ، امام العروض . وأكمل سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ هـ عمل الجميع : فاصبح أمام النحو : وتهودى (كتابه) فيه كأفخر التحف .

وقد جرت العلوم السابقة الى البحث فى أساليب العرب وأقوالهم

وأشعارهم وأمثالهم . فنشأ عن هذا العمل (علم الادب واللغة) ، وانتشر بين الأعاجم على الأخص . وكان من أقدم المشتغلين فيه (ابو عمرو بن العلا التميمى) المتوفى بالكوفة سنة ١٥٤ ﻫ وهو عربى ؛ ثم نبغ فى العراق جماعة كبيرة من طلابه ، أشهرهم (الخليل بن احمد) المتوفي سنة ١٧٠ ؛ (وابو عبيدة) المتوفى سنة ٢٠٩ ؛ و (الاصمعى) المتوفى سنة ٢١٣ ؛ و (ابو زيد) المتوفى سنة ٢١٤ ﻫ

ولما نضج هذا العلم آلت الزعامة فيه الى اربعه لا يزالون أركانه وعمده ؛ وهم : (ابن قتيبة) بكتابه (أدب الكاتب) ؛ و (المبرد) بكتابه (الكامل) و (الجاحظ) بكتابه (البيان والتبيين) ، و (القالى) بكتابه (النوادر) .

واشتغال المسلمين ، في بادىء الأمر ، بتفسير القرآن وجمع الاحاديث اضطرهم الى جمع السيرة النبوية ، ليتحققوا الأماكن والاحوال التى أنزلت فيها الآيات أو قيلت بها الأحاديث . واشتغالهم فيما بعد فى ضرب الخراج على البلاد جر الى اختلافهم فى بعضها هل فتحت عنوة أو صلحا وفى شروط الصلح أو الأمان . فأجبرهم ذلك على تدوين أخبار فتح مصر على حدته . وكل بلد على حدتها .

فنشأ عن عملهم هذا علم التاريخ عندهم . وأول من دون السيرة النبوية (محمد بن مسلم الزهرى) المتوفى سنة ١٢٤ فى كتابه (المغازى) ؛ وقيل : بل (عروة بن الزبير) المتوفى سنة ٩٣ ﻫ . و (وهب بن منبه) المتوفى سنة ١١٤ﻫ . ثم (محمد بن اسحق) المتوفى سنة ١٥١ .

ولكن سيرهم ـ على أنها كتبت بعد الحوادث بعضها بما يقرب

من قرن وبعضها بما يزيد على قرن ، أو على قرن وربع قرن ، أى لما تمكنت الاهواء والأغراض من تغيير معالم الحقائق ، متى رأت فى تغييرها فائدة ، ومن إحلال ماولدته المخيلات محل ماولدته الأيام والليالى من الوقائع ، متى كان الاحلال مرغوبا فيه ـ سيرهم ضاعت جميعها ، وبات أقدم ما وصل الينا منها (سيرة) عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٣ : وكلنا نعلم مقدار ما فيها من الصحة ، ومقدار ما يحسن أن يلقى عليها من الاعتماد .

وأول من دون الفتوح (الواقدى) المتوفى سنة ٢٠٧ ؛ وكتابه مشهور ، ولكن خرافاته كثيرة . ثم كتب بعده (ابن الحكم) فى (فتوح مصر والمغرب) ؛ وهو أيضا من كبار المخرفين . ثم جمع (البلاذرى) المتوفى سنة ٢٧٩ كل تلك الفتوح فى كتاب واحد أسماه (فتح الأمصار) . فأخرج للناس كتابا فى تاريخ الصدر الاسلامى ، هو أوثق كتب الفتح وأشملها عند العارفين .

وحب النظر فى رواة أسانيد العلوم التى ذكرناها جر العرب الى الاكثار ـ فى باب التاريخ ـ من تراجم الافراد وحملهم على قسم رواة كل فن منها الى طبقات كطبقات الشعراء ، وطبقات الادباء ، وطبقات النحاة ، وطبقات المحدثين وهلم جرا . فنجم عن ذلك أن مؤلفاتهم فى تراجم أفراد الرجال فاقت مؤلفات جميع الأمم الأخرى عددا ، وان كان اكثرها تافها لا يؤبه به أو مملا لايمكن الاستمرار علي مطالعته .

وأول ما كتب من هذه الطبقات كتاب (طبقات الصحابة والتابعين والخلفا) (لمحمد بن سعيد) المعروف (بكاتب الواقدى) —

وهو كتاب قيم يجد فيه الراغب فى كتابة تاريخ الصدر الاسلامى مادة وفيرة ومصابيح عدة موضوعة تحت المكيال ، اذا ما نزع المكيال عنها بعثت الى أعماق ذلك العصر نورا خارقا — وكتاب (طبقات الشعراء) (لابن قتيبة) ؛ وكتاب (تاريخ الخلفاء الراشدين) للدنيورى المتوفى سنة ٢٨١ هـ .

***

على أن مطالعة هذه التواريخ والتراجم جعلت الناس يتشوقون الى معرفة شيء عن أمم الارض الاخرى غير الاسلامية : قديمها وحديثها . فرأى (ابن واضح) المعروف (باليعقوبى) أن يشبع شوقهم . فألف (تاريخا عاما) ذكر فيه ما وصل اليه من أنباء اليهود والهنود واليونان والروم والفرس وغيرهم ؛ ولكن مشوها أيما تشويه ؛ وانباء الاسلام من ظهوره الى أيام (المعتمد) العباسى سنة ٢٥٦ .

وبما أن ما ذكره ، لم يكن لقلته . وقلة جودة بضاعته ، حقيقا بأشباع المطالعين الراغبين فى معرفة أخبار الأمم ، شمر (ابو جرير الطبرى) عن ساعد الاقدام ، ودون تاريخه الكبير الذى بات رأسمال المؤرخين فى القرون التالية . ولكن (الطبرى) كان من كبار المفسرين . فلم يمكنه ، فى كتابة تاريخه القيم ، أن ينزهه عن الحكايات الخرافية التى دسها فى علم التفسير اليهود والفرس المسلمون ؛ فتجده ، لذلك مشوبا على ما هو عليه من قيمة عالية ، بما ينقص كثيرا من تلك القيمة .

وعيبه هذا هو عيب عموم مؤرخى الاسلام فى زمانه وفيما تلاه من الأزمنة يروون الحوادث على عواهنها وسواء أجازها العقل أم لم

يحزها — وهم بقص ما لا يجيزه . — العقل أكثر ولعاً منهم بحكاية مايجيزه . فتراهم شديدى الغرام برواية ما كبرت فيه المبالغة من الانباء وزاد فيه الجانب العجيب . وتراهم من جهة أخرى يجهلون تمام الجهل قواعد الانتقاء والاستنتاج . ومع انهم كانوا أكثر أمم الارض ولعاً بالحرية وبالحكمة التى فى الامثال ، فانك لاتجد أثراً بالمرة فى مؤلفاتهم — اذا استثنيت منها (مقدمة) ابن خلدون ، وقد كتبت بعد ذلك العصر بكثير — لروح الحرية والفلسفة . فهم اما رواة أخبار جافة ، واما خطباء يتوخون فى انشائهم السجع والزهور .

وعلم التاريخ يستلزم حتما معرفة الجغرافيا ؛ والا تخبط تخبط عشواء غير أن العرب لم يلتفتوا الى الجغرافيا الا فى القرن الرابع للهجرة . فلا محل الآن لما كتبوه فيها .

***

واستمر العرب ، طول مدة حكم بني أمية مقتصرين على العلوم التى ذكرناها ، لا يبغون عنها مخرجا ، رغم مساعى علماء الروم والفرس فى البلاد التى افتتحوها فى تحبيب علوم الأوائل لهم ، لا سيما الطب والفلسفة ، ورغم السعى الحميد الذى بذله فى السبيل عينه (خالد بن يزيد ابن معاوية) — ويسمونه حكيم آل مروان ؛ وكان طامعا فى الخلافة بعد وفاة أخيه (معاوية الثانى) ؛ ولكن (مروان بن الحكم) غلبه عليها . فلما يئس (خالد) منها انصرفت همة نفسه الكبيرة وذكائه الخارق الى اكتساب العلى بالعلم . فاستقدم راهباً رومياً اسمه (مريانس) من مدرسة الاسكندرية ؛ — ووجود هذه المدرسة فى أيام (مروان

ابن الحكم) دليل آخر على أن احراق مكتبة الاسكندرية لم يكن جناية على العلم الحقيق — ، وطلب اليه أن يعلمه صناعة الكمياء . فلما تعلمها أمر بنقلها الى العربية . فنقلها له رجل اسمه اصطفان القديم . (وذلك أول نقل فى الاسلام من لغة الى لغة) .

وكان (خالد) راغبا فى علم الفلك أيضا فأمر بترجمة شىء كثير منه الى العربية — ولكن الترجمة ضاعت ، لأنها أخرجت فى زمن لم يكن صالحا لمثل هذه العلوم . ولولا أن بعض الذين اطلعوا على مكتبة القاهرة فى أواسط القرن الرابع للهجرة شاهدوا فيها كرة من النحاس من عمل (بطليمس) ، مكتوب عليها : حملت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد بن معاوية لما وصلنا خبر ، عن اشتغاله بهذه العلوم .

ولكن عصر العباسيين ما لبث أن بزغ فى أفق الاسلام وسطعت فيه أشعة شمس حضارة وعلوم استنار بها العالم الشرقى باسره دهرا .

وكان أول علم عنى به علم النجوم — وهو علم فارسى — لميل (المنصور) اليه ميلا شديداً . لأنه كان كبير الاعتقاد بالتنجيم والمنجمين ، لا يفتأ مصطحبا معه حيثما توجه (نوبخت) الفارسى المجوسى ، بعد أن حمله على اعتناق الاسلام . ولقد ترجم آل (نوبخت) للعباسيين كتبا كثيرة فى الكواكب وأحكامها .

وباراهم فى هذا المضمار (ابراهيم الفزارى) وابنه (محمد) الفارسيان و (على بن عيسى الاسطرلابى) . وترجم (محمد بن ابراهيم الفزارى) كتابا فى النجوم أتى به الى (المنصور) عالم من الهند ، فسمى المنجمون ذلك الكتاب (السند هند الكبير) ؛ وظلوا يعملون به أصلا فى حركات

الكواكب الى أيام (المأمون)

وجرّ النظر فى الافلاك الى الهندسة . فكتب (المنصور) الى امبراطور الروم أن يبعث اليه بالكتب الموضوعة فيها . فأهداه كتاب (أقليدس) وبعض كتب أخرى ربما كان (مجسطى) بطليمس منها .

ثم أصاب (المنصور) مرض فى معدته قطع شهوته وكان سببا فى أن استقدم الى بغداد (جورجيس بن بختيشوع) النصرانى السرياني رئيس أطباء مارستان جنديسابور ، عملا باشارة أطبائه . فشفاه (جورجيس) من مرضه ونقل له كتبا طبية من اليونانية الى العربية . ثم توالى آل بختيشوع فى خدمة العباسيين . وخدموا العلم فى ظلهم خدمة نافعة جليلة .

وحدث ترجمة ما سبق ذكره من الكتب (بابن المقفع) الفارسى القح الى تعريب (كليلة ودمنة) وكتب فى المنطق والطب كان الفرس قد نقلوها عن اليونانية ؛ وكتب (لمرقيون) و (مانى) ، وكلاهما ممن ادعى الألوهية ، أو بالحرى ان الله ظاهر فيها ، وسبقا فى مضمار هذا الادعاء (بهاء الله) الفارسي ، زعيم مذهب البهائيين فى أيامنا هذه ، والمدفون فى (بهجة) عكاء .

فأحدث ذلك جميعه حركة فى الأفكار كيفتها تكييفا أصبحت معه صالحة لتناول المواضيع الفلسفية ، لا سيما في أيام (المأمون) لسبب متصل به نفسه . وذلك انه لما تعلم وتفقه وطالع ما نقل الى عهده من كتب القدماء ازداد رغبة فى القياس والرجوع الى أحكام العقل فى جميع أموره . وهى رغبة في القياس والرجوع الى أحكام العقل فى جميع

أموره . وهي رغبة أوجدتها أمة الفارسية في نفسه منذ نعومة أظفاره .

فتمسك بمذهب (الاعتزال) ، وقرب اليه أشياخه (كأبى الهزيل العلاف) و (ابراهيم بن سيار) ، وأخذ يناصر أشياعه ، وقال بخلق القرآن . وعمل على تأييد قوله بالمناظرة فاحتاج الى كتب فى الفلسفة والمنطق ليدعم بها صحة جدله . فأمر بنقلها من اليونانية الى العربية ؛ وشغف بذلك شغفاً جعله ينفق فى هذا السبيل بسخاء لا مزيد عليه ، حتى انه أعطى وزن ما يترجم له ذهبا . وكان يحرض الناس على قراءة تلك الكتب ويرغبهم فى تعلمها .

ولما كان الناس ، فى الممالك الاستبدادية ، على دين ملوكهم ، اقتدى (بالمأمون) كثيرون من أهل دولته ، وجماعة من أهل الوجاهه والثروة في (بغداد) فتقاطر اليها المترجمون من كل فج عميق ، ومعظمهم من غير المسلمين ، وأقدموا على تعريب الكتب الجليلة الموضوعة ، أصلا ، في اليونانية والفارسية والسريانية والسنسكريتيه والنبطية والعبرية ، والقبطية ، واللاتينية . وكثر فى بغداد الوراقون وباعة الكتب ، وتعددت مجالس الأدب والمناظرة ، وأصبح من أجلّ همّ الناس البحث والمطالعة . فنشأت عن ذلك ، النهضة العلمية المعروفة باسم « النهضة العباسية » وهى نهضة استمرت تمخر ، منفوخة القلوع ، في بحار العلوم مدة حكم المأمون و (المعتصم) ، و (الواثق) وبعض خلفائهم ، حتى نقلت أهم كتب القدماء الى العربية .

ويجدر بنا ، هنا ، ذكر أهم من تمت تلك النهضة على ايديهم . فهم :

١ — آل بختيشوع — وقد سبق لنا ذكرهم — واشتغلوا فى اعلاء منار الطب .

٢ — آل حنين، فعميدهم (حنين بن اسحق) وابن اخته (جيش الاعم) جاريا آل بختيشوع وبارياهم فى ميدانهم . و (اسحق ابن حنين) حرف عنايته الى نقل كتب الحكمة ، كمؤلفات ارسطوطاليس ، وغيره من فلاسفة اليونان .

٣ — آل ماسرجويه وهم يهود المذهب ، سريانيو الجنس ، سبقوا آل بختيشوع ، عصرا ، فى الاشتغال بترويج علم الطب .

٤ — آل ثابت ، وهم صابئة من المقيمين بحران ، أجاد عميدهم وهو (ثابت بن قرة) النقل والتصنيف فى الرياضيات والطب والمنطق . وباراه ابناه (سنان) وحفيده (ثابت) فى التصنيف فى العلوم عينها .

٥ — قسطا بن لوقا البعلبكى ؛ وكان طبيبا حاذقا وفيلسوفا جليلا؛ نقل وألف كثيرا فى الطب والتاريخ ، والفلسفة ، والفلك ، والجبر ، والمقابلة ، والهندسة ، والمنطق ، والأدب ، حتى قال عنه (أبو الفرج الملطى) : « لو قلت حقا ، لقلت انه أفضل من صنف كتابا بما احتوى عليه من العلوم وما رزق من الاختصار للالفاظ وجمع المعانى » . وربما كان أبو الفرج متغاليا فى قوله ، لوحدة الدين والمذهب بينه وبين موصوفه .

٦ — الحجاج بن مطر؛ وهو الذى نقل للمأمون كتاب (المجسطى) وكتاب (أقليدس) .

٧ — موسى بن خالد ، ويعرف بالترجمان ، نقل كتبا كثيرة (لجالينس) الطبيب .

٨ — البطريق ويحيى ابنه ؛ اجادا للمأمون النقل من اللاتينية .

٩ — آل نوبخت ، وقد سبق ذكرهم ، اشتغلوا فى النقل من الفارسية .

١٠ — آل برمك ، باروا آل نوبخت فى مضمارهم .

١١ — ابن المقفع ؛ وقد سبق ذكره .

١٢ — ابن دهن الهندى ؛ وكان اليه مارستان البرامكة ، ونقل من الهندى (السنسكريتى) الى العربى .

١٣ — ابن وحشية ؛ ونقل من اللغة النبطية (الكلدانية) الى العربية كتبا كثيرة .

١٤ — بنو شاكر أو بنو موسى ؛ وهم محمد وأحمد والحسن . فمحمد كان وافر الحظ فى الهندسة والنجوم والطبيعيات والرياضيات . وأحمد كان بارعا فى صناعة الحيل (الميكانيكيات) ، وفتح له فيها ما لم يفتح لأخيه . وأما الحسن فانه انفرد فى الهندسة، وفاق جميع معاصريه من علماء المأمون ؛ وقد برهن هؤلاء الثلاثة لذلك الخليفة العالم أن محيط الأرض ٢٤ ألف ميل . فلم يخطئوا الا فى ميل واحد .

وبينما كان جميع هؤلاء مجدين فى التعريب ، أكثر منهم فى التأليف ، رأى غيرهم أن يصرف عنايته الى التأليف البحت فى العلوم الدخيلة ، وتسمى « دخيلة » فى الاسلام كل العلوم التى ليس القرآن

مصـدرها ؛ أي بمعنى آخر : جميع العلوم ، ماعدا التفسير ، والحديث ، والفقه ، واللغة ، والتاريخ .

فقام في عصر المأمون ، والمعتصم ، والواثق ، والمتوكل ، (الـكندى) ، وهو أكبر فلاسفة المسلمين وأشهرهم وأسبقهم . واسمه (يعقوب بن اسحق بن الصباح الـكندى) ، وهو عربي الأصل دون سواه من الفلاسفة ، ويتصـل نسـبه بملوك كندة ، ولذلك سموه « فيلسوف العرب » . وألف في الفلسـفة ، والحساب ، والهندسـة ، والفلك ، والطب ، والجدل ، والسياسـة ، والمنطق ، والموسـيقى ، والأحكام ، وغيرها أكثر من مائتين وثلاثين كتابا .

وتلاه في المضمار عينه (أبو نصر الفارابى) المتوفى سنة ٣٩٩ هـ ، وقد ولد في بلاد الترك من أبوين فارسـيين . وكان فيلسوفا كاملا ، سبق واضعى « الانسيكلوبيديا » بكتابه « احصاء العـلوم والتعريف بأغراضها » ، وسبق (آدم سميث) بكتابه « السياسه المدنية » ، الذى هو الاقتصاد السياسى بالذات .

وقام (يوحنا بن ماسويه) ووضع في الطب كتابا كان أسبق الناس فيه الى وصف الحصبة والجدرى .

وحذا (سابور بن سهل) حذوه . فألف « اقرباذين » لتحضـير الأدوية والعقاقير ، كان به واضع الصيدلة وامامها .

ولا تأتى البراعة في الصيدلة الا اذا سبقتها البراعة في الـكيمياء وعلم النبات . ولا خلاف فى أن العرب هم الذين أسسوا الأولى بتجاربهم ومستحضراتهم وتآليفهم التى وضعها (جعفر الصادق) المتوفى سنة ٣٤٠،

وجابر بن حيان والـكندى وأبو بكر الرازى .

وقام غير بنى شاكر السابق ذكرهم (أبو معشر البلخى) المتوفى سنة ٢٧٢ ، وألف كثيرا فى علم النجوم . وحذا حذوه (احمد بن كثير الفرغانى ، (وسهل بن بشر) و (محمد بن عيسى) الماهانى ، (ومحمد ابن جابر) الحرانى المعروف بالنباتى ، وكان صائبا ، واشتغل بالرصد من سنة ٢٦٤ الى سنة ٣٠٦ ، فأثبت الـكواكب فى زيجه سـنة ٢٩٩ . وكان أوحد عصره فى فنه وتوفى سنة ٣١٧ .

وقام (أبوجعفر محمد بن موسى) الخوارزمى، وتناول أرقام الحساب من الهنود ؛ ووضع كتابه (الجبر والمقابلة) جمع فيه بين ما عثر عليـه من الأصول الجبرية عنـد اليونان والهنود والفرس . فاستخرج منـه الجبر العربى .

وحذا حذوه (أبو كامل شجاع بن مسـلم) و (أبو الوفاء البوزجانى) و (أبو حنيفة الدنيورى) المتوفى سنة ٢٨١ ، و (أبو العباس السرخسى) المتوفى سنة ٢٨٦ وغيرهم .

وبينما كان هؤلاء يشتغلون فى ميدان العـلوم ، كان غيرهم يشمر عن ساعد العمل فى ميدان الفنون الجميلة ؛ ولـكنهم اقتصروا منها على الموسيقى فى العصر الذى نحن فى شأنه ، لأن الـكراهة التى أثارها الاسلام للنصب والرسوم كانت لاتزال فى ابانها ، فلم يكن من الممكن قيام مثالين ومصورين ومن ذهب مذهبهم .

وأول من اقتبس الموسيقى عن الأمم غير الاسـلامية عبد مكى اسمه (سعيد بن مسجح) ، كان فى مكة عنـد حصار الأمويين لها .

فسمع فارسيا يغنى فطرب والتقط النغم منه ، ثم ساح فى الشام وفارس، واستخرج من الالحان الرومية والفارسية ، موسيقى عربية بحتة .

فأخذ عنه من جاء بعده ، واشتهر من المغنين : ابن سريج ، والغريض ، ومعبد ، وفليج بن أبى العوراء ، وسياط ، ونشيط وعمر الوادى ، وابراهيم الموصلى ، واسحق ابنه ، وزرياب ؛ ومن المغنيات : جميلة ، وحبابة ، وسلامة ، وعقيلة .

ولما اشتغل المسلمون فى نقل العلوم الدخيلة ، كان من جملتها كتب الموسيقى لليونان والهنود . فتناولها المسلمون ، ودرسوها ، ووفقوا على ذوقهم ، وصبغوها بصبغة ميولهم وطباعهم . فأصبحت الموسيقى لديهم علما ذا أصول ، خاصا بتمدينهم ، بلغ من الاتقان درجة حسنة . وكان للخلفاء عناية كبرى بالغناء ، يبذلون الأموال فى سبيل تنشيطه . ولكنهم كانوا يحتمون على المغنى أن يكون أديبا حفاظا للأشعار والنوادر ، سليم المنادمة ، والا نبذوه .

وقد جمع الموسيقيون المسلمون بين آلات الفرس والروم والأنباط والهنود الموسيقية ، واستخرجوا أحسنها ، وزادوا فيها ، وحسنوها . واخترع (الفارابى) الفيلسوف الألة المعروفة بالقانون وآلة أخرى مؤلفة من عيدان تختلف أنغامها باختلاف تركيب عيدانها هذه .

ويذكر (ابن خلكان) — على ذكر هذه الآلة — لطيفة لا بأس من ايرادها هنا ، وهى أن الفارابى حضر مجلس غناء لسيف الدولة ؛ ولم يكن أحد من الحضور يعرفه . فسأله (سيف الدولة)

« هل تحسن الغناء ؟ » ففتح خريطة واستخرج تلك الآلة ، وركبها . ثم لعب بها . فضحك منها كل من كان فى المجلس .

ثم فكها ، وركبها تركيبا آخر ، وضرب عليها . فبكى كل من كان فى المجلس .

ثم فكها وغير تركيبها ، وضرب ضربا آخر . فنام كل من فى المجلس حتى البواب ، فتركهم الفارابى نياما وخرج .

وهذه حكاية تشبه ما رواه قدماء اليونان عن تمكن (اورفيس) من تأليف نفس الوحوش الضارية والثعابين والحيات السامة بعذوبة أنغام عوده .

* * *

تلك كانت حركة العلوم فى العالم الاسلامى ، وتلك هى النهضة العباسية فما كان نصيب مصر منها فى مدة حكم العرب عليها ؟

نقول ، أولا ، ان من اعتقد أن احراق كتب مكتبة الاسكندرية اللاهوتية أنتج وقوفا فى سير التعليم بالمدرسة الاسكندرانية العلمية يخطىء خطأ فاحشا ؛ فان تلك المدرسة العلمية استمرت مزدهرة بعلومها وعلمائها دائبة على مباحثها وتجاربها ، طول القرنين الأول والثانى وبعض القرن الثالث للهجرة .

يدلك على ذلك ما سبق لنا ذكره من استقدام (خالد بن يزيد) الأموى ، فى حكم آل مروان ، الراهب (مريانس) من مدرسة

(الاسكندرية) سنة ٨٥ هـ ، ليعلمه صناعة الكيمياء ، التى كانت يومئذ رائجة فى تلك المدرسة ؛ وأن (حنين بن اسحق العبادى) شيخ المترجمين فى النهضة العباسية لما غضب عليه (يوحنا بن ماسويه) ، اسؤال لم يستلطفه منه ، وطرده من مجلسه الذى كان يعلم فيه الطب ببغداد ، ذهب الى (مدرسة الاسكندرية) وتعلم فيها اليونانية وآدابها ، وحفظ أشعار هوميرس[١].

فمدرسة الاسكندرية الأدبية العلمية ، والحالة هذه ، لم يمسها الفتح العربى بسوء ، ولا حمل العرب على ابطالها توالى غزوات الروم للقطر المصرى ؛ وهذا دليل آخر يؤيد رأينا الذى أبديناه فى مسألة احراق مكتبة الاسكندرية ، ويثبت أن الذى أحرق ، بايعاز المقوقس وقومه ، انما هو مجموع الكتب الدينية اليونانية التى كانت منزلتها من نفوس الأقباط ، منزلة الجمر من الجسم متى وضع عليه .

ولكن بما أن التعليم فى تلك المدرسة كان باللغتين اليونانية والقبطية فانه لم يفد من العرب الا من أقبل منهم على تعلم تينك اللغتين ، وان أفاد أقباط مصر فائدة كبرى ، فجعل العلوم والفنون التى رفعت مجد أجدادهم ، دائمة التوقد فيما بين المتعلمين منهم الى عهد (احمد بن طولون) ، اذ انجبت تلك المدرسة المهندس العظيم مُبارِى بناة الأهرام والمعابد المصرية القديمة ، بالمسجد الجامع الذي شيده لذلك العاهل ، والذى بقى قائما الى يومنا هذا أعجوبة فن المعمار فى ديارنا .

(١) طبقات الاطباء ج ١ ص ١٨٥

غير أن العرب قلما أقبلوا على تعلم شىء من علوم الأقدمين فى فى تلك المدرسة ، لانشغالهم عنها — فى بادىء أمرهم — بالحروب والثورات ؛ ولاقدامهم ، فيما بعد، على الأخذ بأسباب العلوم الاسلامية البحتة دون غيرها — وهى التى كانوا فى حاجة اليها لتوطيد دعائم سلطانهم السياسى والاجتماعى .

فلم يمض القرن الأول عليهم الا ورأوا أنفسهم محتاجين ، فى معاملاتهم ومقاضاتهم الى ما يتفهمون به، بالأحاديث النبوية ، ماغمض عليهم من أحكام القرآن وكيفية تطبيقها على أحوال معيشتهم الاجتماعية. فأكثروا من الترحل الى الآفاق ، وانتداب جماع للحديث وتقييده ؛ فعاد بعض من ترحل بعلم (العنعنة) الممل وأذاعوه ؛ فأصبح سمر المجالس برهة ، وعاد غيرهم الى القطر بعلم (مالك) المدنى ، وهو معتقد أنه انما أتى قومه (برأس كليب) على ما تقول العامة . فاعتقد القوم اعتقاده ، لعلو منزلة مالك فى العالم الاسلامى ، لا سيما بعد ما أصابه من أذى جعله فى صف الشهداء فى نظر الكثيرين من أهل التقوى والورع ، أو أهل التشيع للبيت العلوى ؛ وفشا فى الملأ العلم والفقه المالكيان .

ثم قدم مصر ، بعد حين ، (الشافعى محمد بن ادريس) العباسى ؛ وأخذ ينشر بين الناس أقواله سنة ١٩٨ هـ ، وكان فصيحا لبيبا ذا شخصية بارزة جذابة . فالتف حوله نفر من ذوى الرياسة والعلم ، وأخذوا يكتبون تعاليمه ويقوون مذهبه ، حتى بات يضارع ، فى انتشاره، المذهب المالكى .

فانحصر العلم ، منذ ذلك الحين فى (العنعنة) وفى هذين المذهبين ؛

ولم يوضع تأليف عربى بمصر الا فى الأحاديث والفقه؛ ولا اهتم جمهور طالبي العلم الا بتلمس العلوم الاسلامية فى مؤلفات الامامين المذكورين، طول مدة قيام دولة العرب فى القطر المصرى.

فنتج عن ذلك أن مصر الاسلامية ، بالرغم من وجود مدرسة الاسكندرية العلمية فيها ، ومن قيام الحركة العلمية القوية فى أقطار الامبراطورية العربية الشرقية ، ابان النهضة العباسية ، لم يكن لها من العلم الحقيق نصيب كبير، فالتحفت بعدم الاهتمام به ، ورقدت على فراش العلوم الاسلامية البحتة دهرا طويلا ، لم يضارع ما أصيبت فيه من الجدب سوى الجدب الذى أصابها وهى خاضعة لأحكام السلاطين من بنى عثمان.

وأما مصر القبطية ، فى العهد عينه ، فما عدا الطائفة القليلة من رجالها ، التى مافتئت تشتغل فى علوم المدرسة الاسكندرانية المجيدة ، بالرغم من الجهل المتزايد تفشيه يوما فيوما ، وبالرغم من الأعاصير السياسية والاجتماعية المتنابة بعنف الحياة المسيحية المصرية ، مصر القبطية — وقد كانت المباحثات والمناقشات اللاهوتية العقيمة السالفة قد أودت بذكائها وهمتها ، وضرب التنسك غشاء من الغباوة على عقليتها — أخذت تنحدر شيئا فشيئا الى هاوية سحيقة من الجهل والأمية.

الفصل الثالث عشر

الحياة الاجتماعية مدة الحكم العربى

لما احتل العرب القطر المصرى كان سكانه ينقسمون الى ثلاثة أقسام: الأقباط وهم الأغلبية الغالبة ومنهم المزارعون والحراث والصناع؛ والروم وهم أهل الدولة؛ واليهود وهم أهل التجارة .

فلما ساد العرب حلوا من القطر محل الروم ، وصبغوا حياته القومية بصبغة جنسهم ودينهم الخاصة . فبانت الهيأة الاجتماعية فيه مقسومة الى قسمين عظيمين : المسلمون وغير المسلمين . ولكل من القسمين مظهر حياة لا يشاركه الآخر فيه .

فأما المسلمون فكانوا أحرارا أو موالى أو عبيدا ، وكلهم فى مدة خلافة أبى بكر وعمر وبعض خلافة عثمان كانوا جندا مرابطا فى معسكرات منصوبة فى ضاحية كل مدينة كبيرة ، لا يبارحونها الا للقتال فى سبيل الله أو سبيل المطامع . فاذا جاء فصل الربيع من كل سنة سرحوا خيولهم للمرعى فى القرى يسوقها الأتباع من الخدم أو العبيد — ومعهم أحيانا طوائف من ساداتهم — فاذا فرغوا من رعاية الخيل عادوا الى خيامهم . وأما بعد عثمان فان الموالى شرعوا يتخذون من الحرف المادية معاشا ، ولو أنهم استمروا خاضعين لنظام التجنيد .

أما الاحرار فالعرب، واختصوا بالنجاة من الرق والسبي بقول النبي «لا سباء فى الاسلام، ولا رق على عربى فى الاسلام» واختصوا بأنهم مادة الاسلام وأصله، وبالترفع عن سائر الأمم، سواء أكانت ذمية أم مسلمة، فكانوا، فى صدر الاسلام ولغاية سقوط الدولة الأموية، يعدون أنفسهم فوق الجميع جبلة وخلقة وفضلا ويختصون دون غيرهم من المسلمين بالآية الكريمة: «وكنتم خير أمة أخرجت للناس!» فيعتبرون أنفسهم — بطبيعة الحال — أسيادا على غير العرب: خلقوا للسيادة وخلق غيرهم للخدمة، لذلك لم يشتغلوا فى صدر الاسلام الا بالسياسة والحكومة — ومنها القضاء، منعوا غير العرب منه دهرا قائلين: «لا يصلح للقضاء الا عربى»، كما منع الأتراك من القضاء الاكبر غير الأتراك فى البلاد التى امتد عليها ظل سلطانهم، وتركوا المهن والصناعات وسائر الأعمال الاخرى اليدوية لغيرهم — كما فعل بعدهم النبلاء فى الغرب حتى أواسط القرن الثامن عشر، ومن أمثالهم المأثورة عنهم: «ان الحمق فى الحاكة، والمعلمين والغزالين» لأنها صنائع أهل الذمة.

ويحكى أن عربيا ومولى تخاصما بين يدى عبدالله بن عامر صاحب العراق — وكان العربى تتمثل فى شخصه روح جنسه بأكملها — فقال المولى له: «لا كثر الله فينا مثلك!» فقال العربى: «بل لكثر الله فينا مثلك!» فقيل له: «أيدعو عليك وتدعو له؟» قال: «يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا!»(١)

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٠

ومع أن الموالى — بعد الاسلام — كانوا كلهم مسلمين، ولهم على الاسلام فضل كبير، فان العرب كانوا يحتقرونهم احتقارا يكاد لا يرتفع الا درجة واحدة عن احتقارهم الذميين. فكانوا يقولون: « لا يقطع الصلاة الا ثلاثة : حمار أو كلب أو مولى . » ويكرهون أن يصلوا خلفهم . فان فعلوا عدوا ذلك تواضعا منهم لله . ولم يكونوا يكنونهم بالكنى ولا يدعونهم الا بالاسماء والألقاب ويجتنبون المشى فى الصف معهم . ولا يدعونهم يصلون فى الجنائز اذا حضر أحد من العرب، وان طعموا أحدا منهم لسنه أو لفضله أو لعلمه أجلسوه فى طريق الخباز لئلا يظنه الناظر اليه عربيا .

وكانوا يحظرون عليهم التزوج بعربيات . فاذا خالف أحدهم، وبلغ أمره الوالى، طلق زوجته العربية منه وربما ضربه مائتى سوط، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه، كما فعل (ابو الوليد) والى المدينة ببعض موالى (الروحاء) [1]، ويحكى أن (سلمان الفارسى) — واليه مرجع الفضل فى الدفاع عن (المدينة) حينما حاصرها الأحزاب — خطب الى عمر بن الخطاب ابنته . فوعده بها، فبلغ ذلك (عبد الله بن عمر) ابنه، فغضب، وشكا أباه الى عمرو بن العاص ، فقال له عمرو « أنا أكفيكه !» وخرج حتى لحق سلمان وكان يعرف أنفته فقال له : « هنيئا لك يا أبا عبدالله : ان أمير المؤمنين يتواضع لله عز وجل فى تزويجك بابنته » فغضب سلمان وقال : « لا والله ! لا تزوجت اليه أبدا ! » .

(١) تاريخ التمدن الاسلامى لجورجى زيدان ج ٤ ص ٥٩ .

ولم يكونوا ليكترثوا ، أعاش الموالى أم ماتوا : فان (نافع بن جبير) التابعي الشهير كان ، اذا مرت به جنازة ، قال « من هذا ؟ » فاذا قالوا «قرشى» قال : « واقوماه ! » واذا قالوا : « عربى » قال « وابلدتاه ! » واذا قالوا : «مولى»: قال «هو مال الله. يأخذ ما يشاء ويدع مايشاء[١]»

بل انهم لم يكونوا — أحيانا — ينظرون اليهم الا كما كان (السبرتيون) ينظرون الى (الهيلوط) فيستخفون بأعمارهم كأنهم أغنام. ويذكر، تأييدا لذلك، أن معاوية أحس من تكاثر الموالى بخطر على دولة العرب ، فهم أن يأمر بقتلهم كلهم أو بعضهم. ولكنه، قبل مباشرة ذلك، استشار بعض كبراء الأمراء من رجال بطانته. فاستنكر (الأحنف بن قيس) الرأى، ولم يوافق عليه . واستحسنه (سمرة بن جندب) وطلب أن يتولى هو بنفسه نفاذه ، فيقتل شطرا ويترك شطرا لاقامة السوق وعمارة الطريق[٢]

وبلغ من غطرسة العرب ، وتكبرهم ، وسكرهم بخمرة النصر والفتح أنهم أخذوا يتوهمون الفضل على سائر الأمم فى ذات أبدانهم وأمزجتهم، فكانوا يعتقدون أنه لا تحمل فى سن الستين الا قرشية ، ولا تحمل لخمسين الا عربية ، وأن الفالج لا يصيب أبدانهم ولا يضرب أحدا من ابنائهم المولودين لهم من عربيات .

لذلك كانوا شديدى العناية فى حفظ أنسابهم من شوائب العجمة ، لا يزوجون أعجميا —ولو كان أميرا— عربية ولو كانت من أحقر القبائل .

(١) الأغانى ج ١٤ ص ١٥٠

(٢) تاريخ التمدن الحديث

من ذلك أن بعض دهاقين الفرس أراد أن يتزوج امرأة من (باهلة)، كانت فى بعض قصور الترك. فأبت المرأة زواجه، مع أن باهلة كانت أحقر القبائل العربية.

ويستقبحون زواج العربى بأعجمية ولا يعدون الأولاد المرزوقين له منها فى منزلة أولاد العربى القح من العربية البحتة — لذلك حرموا مدة منصب الخلافة على ابن الأمة ولو كان أبوه قرشيا. ويحكى أن هشام بن عبد الملك عند ما بلغه أن يزيد بن على بن الحسين قام يطلب الخلافة لنفسه قال: «بلغنى أنك تخطب الخلافة ولا تصلح لها لأنك ابن أمة». مع أن أمه كانت من بنات ملوك فارس. أسرت فأصبحت رقيقة. وانتفى قرن برمته قبل أن يلى الخلافة ابن أمة[١].

ومع أن العرب فى الأنفة والغطرسة والتصلف كلهم رجل واحد، ولم ير العالم لهم مثيلا فى ذلك جميعه بين أمم الأرض الفاتحة قاطبة، لا الرومان قبلهم ولا الترك بعدهم، الا أنهم كانوا يفضل بعضهم بعضا فى صدر الاسلام ثم فى عهد الخلفاء الأمويين، فى النبل والشرف فأشرف الأنساب عندهم أقربها الى النبى والى قبيلة النبى أى قريش؛ فالسابقون الى الايمان، فالصحابة من المهاجرين والأنصار — وأهل بدر أو (البدريون) أى الذين قاتلوا فى واقعة بدر أشرف الصحابة على الاطلاق. فالذين حضروا فتح مكة، فأهل القادسية، وهى الواقعة التى كانت عنوان فتح العراق وفارس، ثم أصحاب (الجمل)

(١) سراج الملوك على هامش مقدمة ابن خلدون ص ٢٨٨

فى مدة على بن أبى طالب ، وأصحاب صفين ، فى مدة معاوية ابن أبى سفيان .

جميع هؤلاء كانت لهم امتيازات خاصة بهم ، وفضلوا فى العطاء على سائر المسلمين — غير أن هذا التفاضل المبنى على الدين أو على ماله علاقة بالدين وتأسيسه ونشره مالبث بعد ذهاب دولة الخلفاء الأربعة الراشدين أن بات ثقيلا على القلوب والأرواح . لاسيما على قلوب المعتدين بأنسابهم ، فمالوا للرجوع عنه الى تفاضل عصبية النسب كما كانت قبل الأسلام . ويحكى تأييدا لذلك أن بعض الأنصار استأذنوا للدخول على معاوية فى ابان خلافته فدخل الحاجب وقال : هل تأذن للأنصار ؟ وكان (عمرو بن العاص) حاضرا ، فقال: «ماهذا اللقب يا أمير المؤمنين ، أردد الناس الى أنسابهم ! »

وذلك لأن عصر النبوة كان قد بعد عن الناس — وبانت عنهم ، وراء دخان حروبهم الأهلية ولهبها ، ذاتا أبى بكر وعمر العظيمتين . فان كبر هذا البعود شخصية النبى نفسه وعلا بها حتى أخذت تناطح السحاب وتنازع الشمس اللألأة والسطوع ، وما زال يعلو به حتى وضعها بجانب (الذات العليه) ! وأحاط وجهى شيخى الاسلام الجليلين بهالة من مجد فاق كل مجد بشرى ، غير أنه كان سببا أيضا فى أن مياه الجاهلية، فى كل ما لم يكن (الدين المحض) ، عادت الى مجاريها ، ولم يعد العرب يرون وجوب المحافظة على موضوعات أولدتها ظروف تغيرت تغيرا كليا — فطالما كان الاسلام مجاهدا فى سبيل الحياة والنفوذ ضمن دائرة البلاد العربية ، كان ينفعه أن يميز العرب المسلمون

بعضهم عن بعض بميزات من شأنها ايجاد روح المباراة فى صدورهم وانمائها ليتنافسوا فى اعلاء منار الدين الجديد وادعام سلطته . ولكن مذ أصبح العرب كلهم مسلمين لم يعد من شأن تلك المميزات الاقلب شرف الأنساب الأصلية المدنية رأسا على عقب ، واتخاذ دين ، جميع العرب أخوة فيه متساوون، ذريعة لاحلال وضعاء الأصول فى الجاهلية فوق عظمائها والصعاليك فوق الأكابر . وذلك لم يكن يوافق بخاصة آل أمية الذين لم ينسوا لحظة واحدة ، لاسيما بعد أن آلت اليهم الخلافة فى شخص عثمان بن عفان ، أنهم كانوا أسياد مكة وأصحاب الكلمة العليا فيها .

فعاد العرب اذن فى عهدهم الى ما كانوا عليه فى أيام الجاهلية من المفاخرة والمباهاة ومناشدة الأشعار والمناضلة فيهافى الأندية العمومية، كما كانوا يفعلون فى عكاظ ، وعادوا الى أصول تعصبهم فى الجاهلية وهى الأبوة والأمومة والخؤولة والحلف والاستلحاق . ثم نجم عن انسياحهم فى الأرض نوع تعصب آخر هو التعصب الوطنى ، وأصبح له على نفوسهم تأثير أكبر من تأثير الأصول السابق ذكرها . فكان اذا تحارب بلدان حارب رجال القبائل من أهل البلد الواحد رجال قبائلهم فى البلد الآخر ، كما حارب يمانيو البصرة يمانيي الكوفة ومضر البصرة مضر الكوفة وربيعة البصرة ربيعة الكوفة وقريش البصرة قريش الكوفة فى واقعة الجمل ، وكما قاتلت هذه القبائل بعضها بعضا فى واقعة صفين .

والذى حدا بالعرب للعود الى شعور الجاهلية وعاداتها هو أن

الاسلام – الذى اعتنقه معظمهم لغايات معنوية محضه – لم يهذب نفوسهم ولم يكسر من شكيمة أهوائهم وميولهم، رغم جميع ما فيه من حث على الفضائل، ونهى عن الرذائل. فاعتنقوه أولا كنظام يغنى من انضم اليه من غنائم حروب موفقة وأسلابها. واعتنقوه فى الآخر كنظام اجتماعى يلم شعث أمتهم المتشتتة المتنافرة المتعادية، فيمكنها من قهر الفرس والروم واذلالهم. أكثر مما اعتنقوه دينا يهذب أخلاقهم ويحولهم عن مطامع الدنيا الفانية الى الطمع فى الآخرة الباقية. على أن الأسلام عينه أبعد الأديان عن تعليم أتباعه الزهد فى الدنيا، وهو يتمثل لهم فى القول المأثور عن على بن أبى طالب: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لأخراك كأنك تموت غدا. وعلى الله أن يوفق بين العملين المتضاربين وما ذلك عليه سبحانه وتعالى بالأمر العسير»

وانا اذا استثنينا أبا بكر وعمر وأبا عبيدة الجراح ونفرا مجهولين من مؤمنى الساعة الأولى والثانية، لانجد لدى تصفحنا أنباء الصدر الأسلامى وأنباء خلافة بنى أمية أن الصحابيين عينهم استفادوا فى تهذيب أخلاقهم فائدة محسوسة من مصاحبتهم ومعاشرتهم للنبي (صلعم)، بل اننا نجد بالعكس أن خضوعهم لداعيات شهواتهم استمر هو كما كان فى الجاهلية.

فبينما نحن نقرأ عن أبى بكر وعمر وعلى وأبى عبيدة أن تقشفهم وزهدهم، وتدفعهم عن الدنيا بلغ أقصى ما يمكن أن يكون فى ذات النساك، لا فى الامبراطرة والملوك، وأنهم عاشوا على التمر واللبن

وخبز الشعير والحصير ولم يتركوا فى خزائنهم درهما واحدا حينما أتاهم الموت. نقرأ عن عثمان حرصه على اقتناء المال والضياع والخيل والابل، حتى بلغ ما كان عنده يوم مقتله ١٥٠٠٠ دينار و١٠٠٠٠٠٠ درهم، غير ضياع (بوادى القرى) و (حنين) وغيرهما، قيمتها ١٠٠٠٠٠ دينار، فضلا عن خيله وابله.

ونقرأ عن طلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وخالد بن الوليد ومعاوية بن أبى سفيان ومروان بن الحكم وعبد الله بن عباس، وغيرهم من كبار الصحابة، أنهم انما ألفوا فى الاسلام ميدانا رحبا للتنعم بملاذ الدنيا وزخرفها وتبرجها. وأنهم لم يستنكفوا — اتباعا لمطامعهم فيها — من ايقاد نيران حروب أهلية مزقت كبد الاسلام، وأن بعضهم لم يحجم عن ارتكاب أعظم الجرائم المدنية والأدبية وقعا كالقسم زورا ودس السم، والغدر بالخصم، متى رأوا فى ارتكابها تقديما لمصالحهم الخاصة.

هكذا أقدم محمد بن أبى بكر على تسور جدار بيت عثمان مع غيره، وعلى قتله، والرجل يقرأ القرآن [1] وكان الأجدر بمحمد أن تردعه عن اجتراح ذلك الاثم صداقة ذلك الشيخ لأبيه وهيبة لحيته البيضاء وجلال الكتاب المفتوح فى حجره.

هكذا أقسم عبد الله بن الزبير لعائشة كذبا — وهو يعرف أنه يكذب — أن الكلاب التى نبحتها لم تكن كلاب الحوائب:

---

(١) ابن قتيبة: الامامة والسياسة ج ١ ص ٤٥

الأمر الذى كان النبى قد خوفها منه ، وأتاها بأعراب شهدوا زورا بذلك [١] .

هكذا حمل معاوية بن أبى سفيان المقدم على أهل الخراج فى القلزم ، على دس السم فى العسل ، للأشتر النخعى مالك بن حارث ، أشد رجال خصمه على بن أبى طالب بأسا ، لما عينه على واليا على مصر ، وخاف معاوية أن تمتنع عليه ان هو وليها [٢] .

وهكذا رأى عمرو بن العاص أن يجترىء على الله لما بلغه خبر ماحل بالأشتر ويقول : « ان لله جنودا من العسل ! » كأنما الله شريك للآثم فى اثمه .

ولا نريد أن نذكر هنا اقدام خالد بن الوليد وضرار وجندل ، أبطال الفتح الأول ، على السكر وتأديبهم على يد عمر بن الخطاب ، ولا اقدام المغيرة بن شعبة على الزنا بأم جميل ، حينما كان واليا على البصرة ، بالرغم من أن عدد نسائه وسراريه كان يفوق الستين . ولا عزل عمر أبا موسى الأشعرى وسعد ابن أبى وقاص عن ولايتهما لسوء تصرفهما فى الأموال العمومية ، لأن ذلك خارج عن دائرة بحثنا .

ناهيك بالغلظة والقسوة المتناهيتين اللتين كانتا مادة أطباع أولئك العرب فى ذلك الصدر الاسلامى الأول وفى أيام بنى أمية : وهما ذات الغلظة والقسوة اللتان نراهما فى الجاهلية تحملان هندا أم معاوية

(١) ابن قتيبة ج ١ ص ٦٥
(٢) المقريزى ج ١ ص ٣٠٠

على ازدراد كبد حمزة بن عبد المطلب عم النبى ، بعد أن قتله وحشى العبد فى واقعة (أحد) ، واللتان لامثيل لهما الا فى حروب اليهود الأهلية وحروب (ماريس) و (سيلا) الرومانيين ، ثم فى الحروب الدينية التى أدمت أوروبا وأسيا ما بين القرن الحادى عشر والقرن السادس عشر ، وعرفت بالحروب الصليبية ، فبحروب الاصلاح الدينى وأشهرها مجزرة (الهيجينوت) فى ٢٤ اغسطس سنة ١٥٧٤ م .

فانت قد علمت أيها القارىء كيف أحرقت جثة محمد بن أبى بكر فى جيفة حمار . فما قولك فيما فعله (بسر بن ارطاة) قائد جيش معاوية بأصحاب على فى المدينة ومكة ، وفيما فعله بابنى عبيد الله ابن عباس عامل على على اليمين ، اذ أخذهما وذبحهما بيده بمدية كانت معه ؟ (وذكروا أن الغلامين كانا عند رجل من كنانة بالبادية فقال لبسر : أتقتل هذين ولا ذنب لهما ؟ فان كنت قاتلهما فاقتلنى معهما ! فقتله) . وما قولك فيما فعله جيش الأمويين لما دخل المدينة وسفك دماء أهلها ، ودخل الأنباط والأقباط على نساء قريش ينزعون خمرهن عن رؤوسهن وخلاخلهن من أرجلهن بسيوفهم على عواتقهم ، والقرآن تحت أرجلهم ! (١) . ناهيك بمن قتلوه من الصحابة والتابعين وأهل التقوى حسرا .

ولم يكن بقاء العرب على غلظة أيام الجاهلية وقسوتها بالشىء العجيب ، وخلفاء بنى أمية وعمالهم كانوا مثال تينك الغلظة والقسوة شخصهما — والناس كما تعلمون على دين ملوكهم .

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٧٤

فكانوا يقتلون الخارجين عليهم ويمثلون بقتلاهم ارهابا لاحزابهم. فيطوفون بالرؤوس على رماح ثم يضعونها فى خزانة أنشئت فى دار الخلافة لذلك الغرض: كل رأس فى سفط خاص، ويصلبون الجثث حيث تزحم الأقدام، وتارة يحرقونها.

وكان الحجاج عامل عبد الله بن مروان على العراق يأتى بالقصب الفارسى فيشقه ويشده على الرجل وهو عار، ثم يسله قصبة قصبة حتى يقطع جسده، ثم يصب عليه الخل والملح حتى يموت.

والحجاج هذا من أكبر طغاة عصر بنى أمية. يروى عنه أنه قتل صبرا نيفا ومائة وعشرين ألف نفس، وأنه كان فى سجنه لما داهمته الوفاة خمسون ألف رجل وثلاث آلاف امرأة.

وعبد الملك بن مروان الخليفة الذى كان الحجاج عامله، ولو أنه من أكبر الخلفاء سياسة ودهاء، كان شديد الوطأة كالحجاج وجريئا مثله على الغدر والقتل. بل هو أول من غدر من ملوك الاسلام بعد أن أعطى الأمان، وحكايته مع (عمرو بن سعيد الأشدق) أشهر من أن تذكر[1].

---

(١) كان عمرو أحد أمراء عبد الملك قد طمع بالملك لنفسه. فاغتنم خروج عبد الملك من دمشق سنة ٦٩ لحرب مصعب بن الزبير فى العراق. وجاء الى الشام ووضع يده عليها. فما بلغ عبد الملك نبأ ذلك الا ورجع حالا وقاتل عمرا أياما، ولما لم يقدر عليه احتال فى عقد صلح معه رضى عمرو به. فكتب بينهما كتاب فيه أمان عبد الملك له ودخل كلاهما دمشق. ثم بعد أربعة أيام استدعى عبد الملك عمرا ليلا. فأتاه فى مائة من مواليه أبقاهم خارجا. فاستقبله عبد الملك وأجلسه معه على السرير وجعل يحادثه ثم قال له: أتطمع أن تجلس معى متقلدا سيفك؟ فأعطاه عمرو السيف. فقال له عبد الملك يا أبا أمية انك حينما خلعتنى آليت بيمين ان أنا ملأت عينى منك وأنا مالك لك أن أجعلك فى

وكان الخوارج وهم أشد الناس تعصبا للدين، على ما يفهمونه، يفعلون أشنع من ذلك بمن ظفروا به من أعدائهم. حتى لقد يضعون الأطفال فى القدور وهى تفور(١). وانا لايدهشنا أن لايكون الاسلام أثر تأثيره المطلوب على قلوب العرب، والعالم حولهم كان كله غلظة وقسوة وفظاعة، والشرق والغرب كانا يتباريان فى هذا الميدان الفظيع — بالرغم من انتشار المسيحية والأسلام فيهما — مباراة يقشعر لها التاريخ.

كما أنه لايدهشنا أن لاتتمكن الأديان مهما كانت سامية ومهذبة من نزع الوحشية من قلب الانسان. لأن الأديان من شأنها اثارة العواطف وهزها هزا عنيفا فى النفوس. ومع أنها انما تبغى من هذه الهزة الصعود بالقلوب الى البر والكمال، غير أنه يلزم — لكى يتسنى لها ذلك — ظروف خاصة من التربية والبيئة والعقلية والعصر. فان لم تتوافر تلك الظروف، تشكلت ثورة العواطف الدينية بشكل

جامعة. فقال بعض الحضور: ثم تطلقه يا أمير المؤمنين؟ قال نعم، وما عسيت أن أصنع بأبى أمية؟ فقالوا لعمرو: أبر قسم أمير المؤمنين! فقال: قد أبر الله قسمك يا أمير المؤمنين. فأخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة وقال: ياغلام قم فاجمعه فيها، فجمعه الغلام. فقال عمرو: أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن تخرجنى فيها على رؤوس الناس! فقال. أمكر يا أبا أمية عند أمية، لا والله! ما كنا نخرجك فى جامعة على رؤوس الناس! ثم جذبه جذبة فوقع وأصاب فمه السرير فكسر ثنيته. فقال عمرو. اذكر الله يا أمير المؤمنين. كسر عظم منى. فلا تركب ما هو أعظم من ذلك؛ فقال عبد الملك: والله لو أعلم أنك تبقى على لو أبقيت عليك وتصلح قريتى لأطلقتك. ولكن ما اجتمع رجلان فى بلدة قط على ما نحن عليه الا وأخرج أحدهما صاحبه. فلما رأى أنه يريد قتله قال: أغدرا يابن الزرقاء، ثم قتله عبد الملك.

هكذا ابن الاثير ج ٤ ص ١٦٤

(١) المسعودى ج ٢ ص ٢١٣

تربية أصحابها الوحشية و بيئتهم وعقليتهم وعصرهم ، وزادت غلظتها وقسوتها انفعالا .

ولم تكن الفتوحات التى أقدم العرب عليها — عقب اعتناقهم الاسلام — من شأنها أن تجعل تعاليم دينهم الجديد الفاضلة تثمر فى قلوبهم اثمار الرحمة والحنان والعرف والمحبة الانسانية . لأن من شأن الفتح والاكتساح تغليظ الأكباد وتقسية القلوب ، واثارة كل ما فى الانسان المتمدين ذاته من وحشى وضار كمين . فلم يكن يهم العرب — اذن — فى الصدر الأول سوى ممارسة تلك الفضائل الرجلية التى امتازوا بها فى الجاهلية ، وكانت — بعد أن جمع الاسلام شتاتهم — علة انتصاراتهم الباهرة على امبراطوريتى الأكاسرة والقياصرة المتداعيتين ، وسبب مجدهم وسؤددهم : ألا وهى الأريحية الفائقة ، والبسالة المتناهية ، واقراء الضيف ، والوفاء ، والجوار ، وترييض الأجسام على المتاعب والنفوس على المكاره ، وطلب العلاء بالأعمال المخلدة للذكر ، والجرأة فى قول الحق ، والأنفة من الضيم والذل ، والعمل على اذلال الغير .

وكان الخلفاء الأمويين يرسلون أولادهم الى البادية . ليشبوا على جميع هذه المبادىء ، وتتشبع أنفسهم بها . فلا غرو اذا دام سلطان هذه المبادىء سائدا على العرب طول مدة سلطانهم فى عهد الراشدين وعهد بنى أمية وطول مدة منازعة الفرس والترك اياهم ذلك السلطان ، حتى قضى عليهم الخلفاء العباسيون .

وانما قضوا عليهم متوسلين بمبدأ العصبية عندهم ، وهو أساس

تعاظمهم وتفاخرهم واحتقارهم لسواهم : فكأنما هم قتلوهم بما قد كان السبب الأكبر فى تنافسهم على المعالى واقدامهم على الفتوحات . وهذا من عجائب الزمان .

واجمال ذلك أن المنصور وخلفاءه ، عملا بنصيحة (قثم بن العباس ابن عبيد الله بن عباس) وارشاده ، بذروا بذور الشقاق والعداوة اللدودة بين اليمنيين والمضريين ، فضربوهم بعضهم ببعض ، ومازالوا بهم حتى محقوا دولتهم محقا (١)

* * *

ذلك كان شأن العرب الأحرار .

وأما الموالى فشىء قبل الأسلام وشىء بعده .

فالمولى فى الجاهلية وسط بين العبد والحر . وهو اما عبد معتق ، واما مولى عقد ، واما مولى رحم .

فالمولى المعتق اما عبد أطلق سراحه مكافأة له على احسان أتاه — وكثيرا ما استعان الاسلام فى كفاحه للانتشار والقضاء على الشرك فى البلاد العربية بالعبيد ينقضهم على أسيادهم بطريق الاعتاق . كما فعل النبى (صلعم) لما امتنعت عليه مدينة (الطائف) ؛ فانه أطلق مناديا ينادى على مسمع من أهلها : « أيما عبد نزل فهو حر وولاه لله ورسوله ! » فنزل من العبيد جماعة كبيرة فأعتقوا . واما عبد أطلق سراحه لافتدائه نفسه بمال اتفق عليه بمكاتبة مع سيده وأدى .

(١) اقرأ ذلك مفصلا فى ابن الأثير ج ٥ ص ٢٨٥

واما عبد أطلق سراحه بالتدبير، وذلك أن يقول الرجل لعبده : أنت حر بعد موتى فلا يرثه أهله .

وولاء العبد المعتق لاحسان أتاه كان لسيده . وولاء العبد المعتق بمال أدى كان لمؤدى المال أو لسيد العبد على حسب الاتفاق – ثم نهى الاسلام لعلل سياسية عن أن يكون الولاء لغير مؤدى المال . وولاء العبد المعتق تدبيرا لآل المعتق .

وربما كانت العتاقة فى كل ما ذكرنا سائبة ، أى أن العبد يعتق ولا ولاء عليه لأحد .

ومولى العقد – ويقال له أيضا مولى الحلف أو الاصطناع – رجل انتمى الى رجل بالخدمة أو بالمحالفة أو بالمخالطة أو بالملازمة ، وتعاقد الاثنان على شروط معيشة اتفقا عليها . وربما كان المولى فى الجاهلية نصرانيا أو يهوديا أو مجوسيا ، فيهود (يثرب) كانوا موالى (الأوس)، و (الخزرج) موالى حلف . و (عدس) مولى عتبة بن أبى ربيعة كان من أهل (نينوى) وقتل يوم بدر فى صفوف قريش ، وهو على النصرانية.

ولكن الاسلام مالبث أن جعل الولاء خاصا بالمسلمين بالآية المعروفة : « يا أيها الذين أمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء » ألخ . وذلك لأن الأولياء كانوا كأنهم من أسرة من لهم ولاؤهم ، يطالبونها بحق الحماية كما أنهم ملزمون بالدفاع عنها .

ومولى الرحم رجل تزوج من والى رجل آخر ، فاكتسب

ولايته ، ونسب الى قبيلته ، كسديف الشاعر كان مولى (خزاعة) ثم تزوج مولاة لآل أبى لهب فادعى ولاء بنى هاشم .

والمولى لايعامل معاملة الحر فى الزواج والميراث . فلا يتزوج حرة . واذا قتل فلا تدفع عنه الا نصف دية الحر .

ومولى العتاق يورث ولا يرث ، ومولى العقد لايرث ، ومولى الرحم يرث ويورث .

تلك كانت حال الموالى فى الجاهلية .

وأما فى الاسلام فتغيرت ، وأصبح الموالى فى عهد الراشدين هم أسرى الحروب الذين اعتنقوا الاسلام ، فأعتقوا (على أن يبقى قدرهم أحط من قدر العرب) ، والموالى من العرب الذين كانوا موالى قبل استتباب الاسلام .

غير أن الأمويين ما لبثوا أن سموا « موالى » جميع المسلمين غير العرب ودعوهم « الحمراء » ، فدخل فى هذا التعريف كل الأنباط والقراقيين والفرس والترك والهنود والسوريين والمصريين والمغاربة والأندلسيين المسلمين ، واعتبروا بعد اسلامهم موالى العرب .

فلا غرابة فى أن عددهم ما لبث أن فاق عدد العرب مواليهم بكثير . وفى أن نسبة الموالى الى الأحرار ممن يخرجون الى الحرب ، بعد أن كانت فى أيام على بن أبى طالب واحدا الى خمسة ، باتت فى أيام الأمويين كنسبة ثمانية الى خمسة ثم كنسبة عشرة الى واحد .

وانما الغرابة فى أن تستمر منزلة الموالى — بالرغم من هذا التكاثر —

منحطة ، وأن يستمر العرب على النظر اليهم بعين الازدراء والاحتقار التى سبق لنا بيانها ، بالرغم من الأسوة الحسنة التي سنها النبي (صلعم) لهم بعتقه (زيد بن حارثة) وتزويجه من ذات بنت عمته (زينب بنت جحش) صاحبة القصة المشهورة المذكورة فى القرآن الشريف ، وبالرغم من ثلاثة أمور كان من شأنها وجوب تعديل ذلك النظر فيهم .

فأما الأمر الأول فهو أن الموالى كانوا فى بدء أمرهم — أيام أن كانوا مع العرب جيشا مرابطا فقط — يتفانون فى نصرة العرب ويستميتون فى الدفاع عن مصالحهم . بل كانوا أكبر عوامل الفتوح الخارجية التى تلت فتوح العرب الأولى . شأنهم فى ذلك شأن شعوب ايطاليا مع الرومان .

والأمر الثانى هو أن معظم الحفاظ وأهل التفسير واللغة والسير وسائر العلماء وأكثر النابغين كانوا من الموالى ، لاشتغال العرب عن ذلك جميعه بالسياسة والسيادة والتنازع على السلطة .

والأمر الثالث هو أن الموالى — فى صدور الاسلام — تولوا كثيرا من مصالح الدولة التى تفتقر الى أمانة وثقة ، فضلا عن العلم والدين ، فقاموا بأعبائها خير قيام دل على أن كفاءتهم لم تكن دون كفاية العرب فى شيء . ولكنهم رغم ذلك جميعه استمروا محقرين فى مدة بنى أميه التحقير الذى بيناه . شأنهم فى هذا أيضا شأن شعوب ايطاليا مع الرومان. ومع أن معاوية بن أبى سفيان جعل لكل واحد منهم عطاء قدره خمسة عشر درهما أبلغه عبد الملك بن مروان الى عشرين و سليمان ابنه

الى خمسة وعشرين وهشام الى ثلاثين ، فان ذلك الفرض قلما أعطى لهم . لأنهم لم يعودوا كالعرب منقطعين عن كل حرفة غير حرفتى الحرب والسيادة ، بل احترفوا مهنا أخرى للتعيش والاثراء . واستمر العمال يستخدمونهم فى الحروب والفتوح ، ولكن فى الغالب بلا عطاء ولا رزق .

وليتهم اكتفوا بذلك ! ولكنهم عمدوا الى تحصيل الجزية ممن أصبح من أهل الذمة مواليا باعتناقه الاسلام ، فأوجب ذلك، فى بعض البلاد ، فتنة ارتد فيها عن الاسلام جمهور كثير ، لا سيما فى خراسان .

ومع أن فضل العرب على ماسواهم كان قضية مسلما بها فى صدر الاسلام ،لا تحتاج الى دليل (اقرأوا فيما بعد ما قاله فيهم ابن المقفع) وكان الموالى يعتقدون الحطة التى كان العرب يعتقدونها فيهم ، وعدم الكفاية التى كان العرب يزعمون أنها ملازمة لهم - حتى لقد كانوا يستكبرون التزوج بعربية أو تزويج أولادهم بعربيات[1]، ويأبون أن يزوجوا بناتهم لأحد مالم يستشيروا مواليهم ، فان رضوا زوجوهن والا فلا . وان زوج الأب أو الأخ صبيته بغير رأى مواليه ، فسخ عقد الزواج. وان دخل زوجها بها عد زواجها عند نفس الموالى سفاحا - وهو مالم تصل اليه غطرسة النبلاء فى عهد نظام الاقطاع نحو مواليهم من رقيقى الأرض - الا أن مبالغة العرب ومغالاتهم فى ازدراء الموالى

---

(١) الأغانى ج . ص ١٣٦

فى عهد الأمويين وفى غمطهم حقهم وامتهانهم أديتا في نهاية االأمر الى نفور الموالى من الدولة الأموية ، وأعدتا نفوسهم للقيام عليها اذا ما ساعدتهم الظروف على ذلك .

وكأنى بالعرب قد أحسوا بانقلاب عواطف مواليهم . فعمدوا من جهة الى ادعام قوائم حبهم فى نفوسهم بالاكثار من وضع الأحاديث المعظمة شأنهم من أمثال : « من أبغض العرب أبغضه الله » ، وعمدوا من جهة أخرى الى اتخاذ وسائل ضغط شديد ضدهم .

أما الأحاديث فلم تفلح ، لعلم الموالى بما انطوى الأمويون عليه من الاستخفاف بالدين والحط من قدر النبى (صلعم) : فما عمله حزب معاوية بالتعس الحظ محمد بن ابى بكر أخى زوج النبي المحبوبة ، وما عمله عامل يزيد بن معاوية بالحسين ابن بنت النبى ، وما قاله الحجاج مقارنا بين عبد الملك والنبى : « أخليفة أحدكم فى أهله أكرم عليه أم رسوله فى حاجته ؟ » وما قاله خالد العشرى عامل هشام بن عبد الملك على مكة مرددا قول الحجاج : أيها الناس أيهما أعظم ، خليفة الرجل على أهله أو رسوله اليهم ؟ وما وقع لخالد العشرى هذا عينه – وكان قليل العناية فى حفظ القرآن ، فاذا تلا آية أخطأ فيها ولحن فى نطقها (وربما كان ذلك لأن أمه كانت نصرانية فلم تحسن تربيته العربية) — اذ وقف مرة للخطابة وأراد ذكر آية قرآنية ، فارتج عليه وفشل : فنهض صديق له من قبيلة تغلب وقال : خفض عليك أيها الأمير ولا يهولنك ، فما رأيت قط عاقلا حفظ القرآن وانما

يحفظه الحمقى من الرجال ، فقال خالد : صدقت يرحمك الله ![1] وما فعله الوليد بن اليزيد سكير بنى مروان اذ عاد ذات ليلة وهو سكران بمصحف وفتحه فوافق ورقة فيها : واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ! فأمر بالمصحف : فعلقوه . فأخذ القوس والنبل وجعل يرميه حتى مزقه ثم قال :

أتوعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد
اذا لاقيت ربك يوم حشر فقل يارب مزقنى الوليد

وما لم ينفك معظم الأمويين يفعلونه فى أهل بيت النبى ، كل ذلك لم يكن يخرج من ذاكرة الموالى ، ولم يكن من شأنه حملهم على حب العرب أنصار البيت الأموى ، مهما أكثروا من اختلاق الأحاديث المحببة فيهم أو المعظمة من قدرهم .

وأما اتخاذ وسائل الضغط ومنها ما ذكرنا من مبالغة العرب فى استخدام الموالى مشاة ، وعدم اعطائهم أعطيتهم المربوطة لهم ، ولاشيئا

(١) الاغانى . ج ١٩ ص ٦٣ . كان (خالد بن عبد القسرى) سيدا من سادات اليمن ولاه (هشام بن عبد الملك) امارة العراق ، ثم عزله لوشاية أثرت فى نفسه وولى مكانه (يوسف ابن عمر الثقفى) وكان يوسف هذا من ذوى الاخلاق المتناقضة . طويل الصلاة ملازما المسجد ضابطا لحشمه وأهله من الناس لين الكلام متواضعا حسن الملكة كثير التضرع والدعاء ، يصلى الصبح ولا يكلم أحد من يصلى الضحى ومع هذا شديد العقوبة مسرفا فى ضرب الابشار . يأخذ الثوب الجديد فيمر ظفره عليه : فان تعلق به طاقة ضرب صاحبه وربما قطع يده . ولما أخلف (الوليد الثاني) (هشاما) طلب الي (خالد بن القسرى) أن يبايع لابنيه (الحكم) و (عثمان) بولاية العهد من بعده . فأبى . فغضب عليه (الوليد) وأرسله الى (يوسف بن عمر الثقفى) . فنزع (يوسف) ثيابه وألبسه عباءة وحمله فى محمل بغير وطاء وعذبه عذابا شديدا وهو لايكلمه ثم حمله الى (الكوفة) . فعذبه عذابا شديدا حتى مات .

من الغنائم أو الفيء : وتشددهم في منع اختلاط أنسابهم بانساب الموالي — ولا تشدد بطريقي روما الجمهورية في أيامها الأولى في منع تزوج السوقة بيطريقات والبطارقة بسوقيات — اتخاذ وسائل الضغط زاد نفور الموالي من العرب زيادة عظيمة جدا .

وبما أن الحكم الأموي كانت تتمثل فيه الروح العربية البحتة وأنه كان هو وعماله أكبر عوامل التعصب العربي على الموالي ، أصبح هؤلاء عونا لكل من خلع الطاعة أو طلب الخلافة سيانا عندهم أكان من العلويين والعباسيين أم من الخوارج

فنراهم في سنة ٦٦ هـ يتطوعون في جيش (المختار بن أبي عبيد) القائم في العراق للمطالبة بدم (الحسين) ، بحيث بلغ عددهم أضعاف عدد الأحرار ؛ ونراهم يبلون معه أكثر من ابلاء الأحرار ، بحيث بلغ عدد قتلاهم في احدى المعارك خمسة آلاف وثلثمائة بينما العرب الأحرار لم يقتل منهم فيها سوى سبعمائة

وكان أكثر الموالي حقدا على العرب الفرس . لسببين عظيمين : الأول هو ما ذكرنا ، والثاني : وهو ما كان يجعل امتهان العرب أشد وقعا على نفوسهم ، هو أن الفرس ، كانوا قبل الاسلام ، دولة رفيعة العماد أخضعت لسلطانها عرب العراق وعرب اليمن واستخدمت العرب في بعض دواوينها ، وبلغت من الشوكة والرفعة والسؤدد ما جعل كل فارسي في أيام عزها ، يعتقد نفسه حرا دون غيره ، وسيداً دون غيره ، ويعتقد أن ما سواه من الناس عبد له .

فلما جاء الاسلام وقضت رجولة العرب على دولة الفرس بجملتها

هباء منثورا ، ومزقت دينهم المجوسى كل ممزق لتحل مكانه فى قلوبهم دين النبي العربى ، أصاب الفرس المقهورين ما يصيب عادة كل أمة تقهرها غيرها وتبدل بعاداتها عاداتها ، وبعلومها علومها من الذهول العميق والاعجاب الكبير بالفائزين ، وانزالهم من النفس منزلة رفيعة تتدنى أمامها منزلة المقهورين مهما كانت فى حد ذاتها عظيمة.

لا بل أصاب الفرس أكثر من ذلك . لأن العرب لم يكتفوا بان أحلوا عاداتهم وميولهم وعلومهم الدينية ونظامهم الاجتماعى محل عادات آل فارس وميولهم وعلومهم ونظام هيئتهم الاجتماعية ، لكنهم أحلوا أيضا دينهم ولغتهم محل دين الفرس ولغتهم فكيفوا عقليتهم كما شاؤا ، وجعلوا ذلك التكييف طبعا ، كله فى مصلحة العرب ، كما فعلوا بمصر تماما . وحذو النعل بالنعل .

فبات الفرس وقد أمسوا مسلمين ، ينظرون الى العرب ، كما ينظر الولد الصغير الى العملاق الكبير ، والتلميذ الناعم الأظفار الى الأستاذ الطائر الصيت . وخير ما يعبر به عن شعورهم نحوهم ما قاله فيهم (ابن المقفع) — وكان عريقا فى النسب الفارسى — وهو : « العرب أعقل الأمم . واذا فاتنى حظى من النسبة اليهم ، فلا يفوتنى حظى من معرفتهم حكموا على غير مثال مثل لهم ، ولا آثار أثرت عليهم . أصحاب ابل وغنم . وسكان شعر وأدم . يجود أحدهم بقوته ، ويتفضل بمجهوده ، ويشارك فى ميسوره ومعسوره ، ويصف الشىء بعقله : فيكون قدوة . ويفعله فيصير حجة ، ويحسن ما شاء فيحسن ؛ ويقبح ما شاء فيقبح . أدبتهم أنفسهم ، ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم

وألسنتهم . ولم يزل حباء الله فيهم ومباؤهم في أنفسهم . حتى رفع لهم الفخر وبلغ بهم أشرف الذكر . وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر . وافتتح دينه وخلافته بهم الى الحشر ، على الخير فيهم ولهم .

وانما قال ابن المقفع قوله هذا في العرب . معبرا عن شعوره وشعور بني جنسه من الفرس نحوهم في أيامه بحكم مؤثرات الدين عليه وعليهم وبحكم مؤثرات الفتح .

ولكن الفرس — لتجردهم من نوع عصبية العرب ، التي مكنت بني أمية من التغلب على بني هاشم — لما رأوا الخلافة تنتقل الى غير بيت الرسول ، وتؤول بين يدي الأمويين الي ملك عضوض ، لم يستطيعوا الارتياح الى الواقع المخالف لميل عقليتهم في الملك وذويه ، وأبوا الاذعان اليه . فشدد بنوا أمية عليهم النكير . فزاد نفورهم منهم وسخطهم عليهم . وأخذت مراجل الأحقاد تغلي في صدورهم ضدهم . والحقد يحمل الحاقد على الحط من قدر المحقود عليه والاكبار من قدر الحاقد .

فمالبثوا اذن وهم تحت تأثيره ، أن أخذوا يعودون الى أنفسهم . ويذكرون أيام عزهم الماضي وحقارة العرب الماضية . ثم تخطوا تلك الذكرى الى تمني تغيير مجاري الأمور . وقلب الحال الى حال لايكونون هم فيها الموالي المحقرين ، بل الأسياد الموقرين . ولكن ضمائرهم — لعدم رغبتهم في الاقلاع عن الاسلام الذي اعتنقوه وتوطدت دعائمه في أفئدتهم وصميم أرواحهم مع تمادي الأيام — ما باتت أن وقعت في حيص بيص : كيف يوفقون بين تمسكهم بالاسلام ونقمتهم على

العرب . وانما العرب خلاصة المسلمين وانما هم أمة (النبي) المدين الفرس لدينه بالهدى والصراط المستقيم .

ولكنهم ما عتموا أن اهتدوا الى حل تلك المشكلة العويصة .

نعم : العرب خلاصة المسلمين . ولكن العرب ضلوا سواء السبيل بتخليهم عن (آل البيت) وتمكين الأمويين من الايقاع بهم ، فالفرس بانحيازهم الى (آل البيت) لا يوجدون ، فقط ، لأنفسهم سببا فى التخلص من الذل الذى تضربهم به حكومة أولئك الأمويين الأشرار ، النافخة فى نار عصبية العرب ، لتستعين بها فى الركوب على الرقاب ، ولكنهم يكونون مسلمين أكثر من العرب أنفسهم : ألم يرد فى الكتاب العزيز : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ومن أتقى ممن ينصر نبى الله فى أشخاص آله ، على أعدائه ؟ ألم يكن الأمويون أعداء بيت (هاشم) ، ألم يكن (أبو سفيان) زعيم المشركين فى واقعة الخندق وواقعة أحد ؟ ألم يكن معاوية ابنه عدو على ابن عم النبى الأعز على قلبه ، وزوج ابنته الوحيدة التى لا يزال دمه حيا فى ذريتها ، وبطل الاسلام ونصيره فى حروب نشأته ؟ ألم يكن يزيد بن معاوية قاتل الحسين أعز حفيدى النبى عليه ؟

نعم . انما أراد الله أن يلتف العرب حول (البيت الأموى) ليلتف الفرس حول (البيت النبوى) فتنتقل السيادة من العرب المسلمين الى الفرس المسلمين ، لتنحى العرب عن نصرة الرسول واقبال الفرس على نصرته ، فان الرسول ان بعث من العرب فانما بعث لعموم العالمين . ألم يضع هو نفسه الأسوة الحسنة فى ذلك : ففضل

(أنصاره) من آل مكة وآل المدينة على أهله وأعمامه أجمعين ، الا من نصره منهم ؟ ألم يكن أنصاره من آل مكة وآل المدينة أقرب الى نفسه ممن كانت تجمعه بهم صلات الأرحام ويبعدهم عنه تنافر القلوب ؟

فليلتف الفرس اذن حول راية (آل محمد) تحسن حالهم ويرتفع قدرهم . ليتخذوا بيت (آل محمد) بيتا ملكيا لهم بدل بيت (آل ساسان) يصبحوا أصحاب السيادة كما كانوا . ولئن لم يكن بد من بقائهم (موالى) فانهم اذن يكونون موالى (آل محمد) فقط ، وأسياد الآخرين : وأى شرف أعلا من هذا الشرف ؟

* * *

فلما توفق الفرس الى هذا الحل تشيعوا كلهم للبيت النبوى وصمموا على نصرته . ولكنهم لم يكونوا فرسا للاشىء : فان ميل عقليتهم الى التفتق فى المذاهب ما لبث أن جعلهم شيعتين : احداهما تقول : ان البيت النبوي انما هو ولد على من فاطمة الزهراء . والأخرى تقول : ان البيت النبوى انما هو بيت على ابن أبى طالب ، لأن النبى استخلف عليا على أمته .

فالشيعة الأولى بايعت عليا بن الحسين المعروف بزين العابدين ، ثم بايعت بعده ثمانية أئمة آخرين من نسله : محمد الباقر وجعفر الصادق وموسى الكاظم وعلى الرضا ومحمد التقى وعلى التقى وحسن العسكرى ومحمد المهدى . وهؤلاء الثمانية مع على والحسين ابنه وزين العابدين حفيده و (المهدى) المنتظر هم الأئمة الاثنا عشر المشهورون فى تاريخ الشيعة .

والشيعة الثانية – وعرفت بالكيسانية . نسبة الى (محمد بن كيسان) مولى (محمد بن على بن أبى طالب) – بايعت محمدا هذا ، وهو ابن على من امرأته الحنفية ، بعد أن قتل الحسين أخوه . وكان محمد قد أوتى من الطبيعة مزية التدبير والتنظيم . فولى على شيعة كل بلد رجلا منهم وأمره باستدعاء من قبله منهم فى سر وتوصيتهم ألا يبوحوا بمكتومهم الا لمن يوثق به حتى يرى – هو – للقيام موضعا . ففعلوا فقوى شأنهم تحت طى الخفاء .

ولما مات (محمد بن الحنفية) بايعت شيعته ابنه (عبدالله) المكنى (بأبى هاشم) فعلم بنو أمية بأمره . فاستدعوه اليهم ودسوا عليه من سمه فى لبن وهو عائد الى المدينة . فلما شعر أبو هاشم بالسم عرج الى ضيعة من أعمال البلقاء بالشام يقال لها الحميمة كان يقطنها بنو العباس ونزل عند (محمد بن على بن عبد الله بن عباس) وأوصى له بالخلافة بعده وسلمه شيعته وأوصاهم به ، وكانت شيعة قوية . فتهوس (محمد العباسى) بالخلافة ودبت المطامع فيها بقوة بعد وفاته ، فى قلب (ابراهيم) ابنه : فتلقب (بالامام) وبث دعاته فى انحاء الامبراطورية الأموية على ألا يدعوا للعباسيين بالذات ، بل لآل محمد ، ليلتبس الأمر على شيعتى البيت العلوى .

ولعل قيام نسبة العباس الى النبى صلى الله عليه وسلم واذاعتها بين الملأ بعد ذلك وشيوعها وذيوع ما بات يقال فيما بعد عن حوادث (للعباس) ووقفات مشرفة فى تاريخ (النبى) تعلى من

شأنه وتدفع من قدره وتقدس من اسمه دون باقى عمومة الرسول. لعل ذلك كله يرجع أوله الى هذه الفترة من الزمان، ولعل حديث العباس بأسره فى التاريخ الاسلامى كحديث (عبيد الله) مؤسس الدولة الفاطمية. الله أعلم.

وكان قد تكون، فى جسم الدولة العربية، من المتشيعين لبنى فاطمة الزهراء من على بن أبى طالب حزب خفى جمعت أعضاءه بعضهم الى بعض وحدة الميول الجنسية والمذهبية، والمواثيق والعهود الغليظة المأخوذة تحت طى الخفاء من الزعماء على المنضمين اليهم، ووحدة مرامى النفوس. وأصبح هذا الحزب فى هيكل تلك الدولة ما كان حزب (الكربونارى) فى أوائل القرن الماضى وأواسطه فى جسم الدولة النمساوية. له فى شخص (أبى سلمة الخلال) الفارسى المثرى الشهير القاطن بضواحى الكوفة زعيم، لم يكن دون (موزينى) زعيم (الكربونارى) همة ونشاطا وتفانيا فى سبيل نشر دعوة (آل البيت)، اذا كان دونه فى بعد النظر وثبات العزيمة وله فى شخص (أبى مسلم) الخراسانى رجل كتب له أن يكون فيما بعد (جاريبلدى) ذلك الحزب فى بسالته واقدامه، وأكثر من (جاريبلدى) فى تفوقه العسكرى.

فلما انبثت دعاة (ابراهيم الامام) فى (خراسان) وفارس والعراق — وهى شيعة البيت — يدعون بالبيعة الى (آل محمد) عملا بوصية ابراهيم ذلك الداهية، التبس الأمر فعلا على شيعتى (على) وأقدموا يبايعون

أولئك الدعاة وهم يعتقدون أنهم منهم واليهم .

فامتزجت بذلك الشيعتان وأصبحتا شيعة واحدة ومذهبا واحدا ، غرضه قلب عرش الأمويين لاقامة عرش لآل محمد — هكذا انضم (كربوناري) موزيني الى حزب بيت (سافويا) الايطالى حينما رأى (كافور) أن يجمع كل جهود الايطاليين الناقمين على الحاكم الأجنبي في ايطاليا حول راية الدفاع عن استقلالها .

ولما كانت مبايعة القوم دعاة ابراهيم الامام على طاعة آل محمد ، على شاكلة دخول الناس اليوم فى الماسونية العصرية ، أى أنهم لا يعلمون سرها وكنهها الا متى لا يعود يمكنهم التنكب عنها ، أو على شاكلة كربونارية موزيني ، لا يخرج منها المنضم اليها الا وهو يعرض بنفسه للقتل ، أمكن دخول كبار نقباء شيعة البيت العلوى ، ومن ضمنهم (أبو مسلمة الخلال) و (سليمان بن كثير) و (أبو مسلم) فى مبايعة ابراهيم الامام ، وهم لا يدرون بل وهم ربما يجهلون أن هناك عباسيين وأنهم يمتون عن طريق جد لهم يقال له (العباس) بقرابة لرسول الله . وأمكن عدم انتباههم الى الشراك الذى وقعوا فيه الا لما بات الخروج منه ، لا بل محض محاولة الخروج منه ، عبارة عن التعرض للقتل . فكظموا ما فى أنفسهم لئلا تذهب سورة غضبهم بهم وبأمانيهم معا وأخذوا يتحينون الفرص لتحويل دفة البيعة الى العلويين .

ثم وقع فى خلد أبو مسلم — لما كبرت شهرة ابراهيم الامام — أن يتعرف به وبالعلويين معرفة شخصية ويقف بنفسه على مقدار كفاءته وكفايتهم للنصب الخطير . فتسلل الى (مكة) وفى فد من آل خراسان

يقوده (سليمان بن كثير) و (قحطبة بن شبيب). وأخذ يتردد فى بادىء أمره على العلويين الذين كان متشيعا لهم فى سره الى ذلك الحين. وكانت منهم جماعة كبيرة فى (أم القرى) من بيتى الحسن والحسين، فحادثهم كثيرا وسبر غورهم فلم يجد فى أحد منهم صفة من صفات الرياسة أو خلة من خلال المقدرة المدنية وألفاهم كلهم أحد رجلين: رجلا حصر مطامعه كلها فى المال واكتنازه، ورجلا تنكب عن الدنيا الى التعبد والتزهد. وهم جميعا عرب قح لا يخطر على بال أحد منهم البتة فكر تحرير الفرس من ذل السيادة العربية وتخليص الموالى من امتهان التعصب العربى.

فتحول عنهم وقصد ابراهيم الامام، وقضى فى محادثته ساعة طويلة، فألفاه رجلا من كبار الدهاة: ناقما على العرب عموما، وعلى (مضر) منهم على الأخص — ومضر القبيلة التى منها (قريش) وقريش عنوان روح تعصب العرب على الموالى وبطانة بنى أمية التى يركبون النير بواسطتها على رقاب الفرس ويتساعدون بها على الفتك بآل (بيت محمد).

وفى هذا دلالة على أحد أمرين: اما أن ابراهيم الامام، كان أجنبيا عن قريش، واما أنه كان داهية دهاة زمانه. وقد يكون فى هذا دلالة على الأمرين معا.

وألفى من أسرته (كقثم بن العباس بن عبد الله بن عباس) ومن أولاده (كأبى العباس) و (أبى جعفر المنصور) رجالا متفوقين فى

خلال الرياسة والسياسة يحسنون ادارة أزمة الأحكام اذا ما ألقيت اليهم، وكلهم متشبعون ببغض العرب والميل الى الفرس.

وكان أبو مسلم سليل بيت من بيوتات الأساورة العريقين فى الحسب والنسب. يمثل فى شخصه أحقاد آل فارس وامتعاض أنفسهم وأمانيهم وتطلعهم الى تحقيقها مع المحافظة على دين الاسلام.

فارتاح فؤاده الى العباسيين، وهنأ نفسه على بيعة لهم ربطت خلسة فى رقبته، وهو يظن أنها تربط للعلويين، ووطد عزمه على خدمتهم بأمانة واخلاص، ليتساعد بهم على تحقيق آماله وآمال أمته.

وألفى ابراهيم الامام فيه رجلا رجح عقله وكبر ظرفه، وأنس فيه شدة ودهاء قلما يوجد لهما نظير. فارتاح هو أيضا اليه، وبعد أن استوثق منه اختاره قائدا عاما على نقبائه ودعاته وبثه ضميره بصراحة فقال له مكنيا — فدل بذلك على مخالفته لتقاليد العرب — « يا أبا عبد الرحمن انك الآن رجل منا (أهل البيت)، فاحفظ وصيتى. أنظر الى هذا الحى من اليمن (واليمنيون خصوم المضريين الألداء): فأكرمهم فان الله لا يتم الأمر الا بهم!» (لأن قيامهم مع الموالى كتفا لكتف ضد مضر يفت فى ساعد العصبية العربية ويذهب بريحها) «وانظر الى هذا الحى من ربيعة، فانهم معهم. وانظر الى هذا الحى من مضر، فانهم العدو القريب الدار. فاقتل من شككت فى أمره ومن وقع فى نفسك منه تهمة. وان استطعت أن لاتدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل وأيما غلام بلغ خمسة أشياء واتهمته فاقتله [1]».

(١) الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ٢ ص ٣٢٨ وابن الأثير ص ١٦٥

فكم فى هذا الكلام من أشعة ساطعة تنفذ الى صميم التاريخ وتوقظ الشبهات القوية فى صحة نسب العباسيين، بل فى صحة شخصية (العباس) ذاتها، وتوجد اليقين بأن «التاريخ العربى»، كما هو الآن بين يدينا، فى حاجة بينة الى من يغربله وينخله بعناية فائقة لفرز غثه الكثير عن سمينه الكثير !

فأبرقت أسرة جبين أبى مسلم سرورا وازداد فى عزمه على خدمة ابراهيم الامام رسوخا وقال: «أيها الامام فان وقع فى أنفسنا من رجل هو على غير ذاك، أأحبسه حتى تستبينه ؟» قال: «لا. السيف السيف لاتثق العدو بطرف!» فازدادت أسرة أبو مسلم اشراقا، وتيقن ابراهيم تمام اليقين أنه هو الرجل المطلوب فجمع شيعته كلها الموجودة فى المدينة وقال لهم: «من أطاعنى فليطع هذا. فمن عصاه فقد عصانى»[1].

فسار أبو مسلم من مكة الى خراسان بوصية امامه، وقد أصبح (الشرق الأعظم) لتلك الماسونية الغريبة، وعول على وصية استاذه وعمل بها. فقتل كل من اتهمه أو شك فيه من المندمجين فى الشيعة، ومن الخارجين عنها، حتى بلغ عدد الذين قتلهم فى سبيل تلك الدعوة، صيدا بدون حرب، فى بضع سنين سواء أكان فى مدة حياة ابراهيم الامام أم فى عهد ولديه أبى العباس و أبى جعفر: ستمائة ألف نفس. فى جملتهم جماعة من كبار الشيعة وغير واحد من جلة النقباء وكبار الدعاة، كأبى سلمة الخلال (موزيرى الشيعة وعميدها) وسليمان بن كثير

(١) ابن قتيبة: الامامة والسياسة ج ٢ ص ٣٢٨

(أكبر دعاة الدولة العباسية) أما الأول فان ميوله ما فتئت للبيت العلوى ، حتى بعد استتباب الأمر للعباسيين ، وبالرغم من أنه أصبح وزير أبى مسلم والاستمرار على البيعة التى أخذها منهما خلسة للعباسيين سوى ما شاع بين شيعة العلويين عن اجتماع أعيان بنى هاشم بمكة ، بعد موت ابراهيم الامام ، وتداولهم فى قرب انحلال الدولة الاموية وفى من يخلفها من أهل البيت واجماع رأى الكل — بما فيهم أبو العباس وأخوه عبد الله أبو جعفر وريثا دعوة ابراهيم الامام — على مبايعة وجه العلويين يومئذ وهو (محمد الحسنى) الملقب بالنفس الزكية[1]. فلما رأى أن العباسيين لا يبالون البتة بتلك البيعة ولا يفكرون الا فى ابقاء السلطة فى أيديهم أخذ يسعى في الخفية الى نزعها منهم وايتائها العلويين. فخابر أبو العباس أبا مسلم فى شأنه . فأرسل أبو مسلم قائدا من لدنه قتله فى الليل وسلم جثته لأبى العباس ، فصلبها على باب دار الامارة .

وأما الثانى ، فان أبا مسلم بلغه عن علاقاته بالعلويين شبه ما بلغ (السفاح) عن علاقات (أبى سلمى) بهم . وبالرغم من أن (سليمان) كان شيخا جليلا لم يدخر وسعا فى نصرة الدعوة العباسية ، فأحرز ثقة ابراهيم الامام فى حياته ، لدرجة أن هذا الداهية لما صرف أبا مسلم من عنده بوصيته المشهورة : « من اتهمته فاقتله ! » قال له مشيرا الى سليمان « لا تخالف هذا الشيخ ولا تعصه! » فان أبا مسلم أحضره اليه وقال له «أتحفظ قول الامام لى؟ من اتهمته فاقتله!» قال «نعم» ! قال فانى اتهمتك»

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٣ . وابن الاثير ٥ ص ٢٤٣ . والفخرى ص ١٤٧

فخاف سليمان وقال « أناشدك الله ! » قال « لا تناشدنى . فأنت منطو على غش الامام ! » وأمر بضرب عنقه (١) .

ومع أن ابراهيم الامام لم تطل حياته بعد أن أقام أبو مسلم رئيسا عاما على شيعته وقتله بعد ذلك بقليل مروان الحمار بن محمد الجعدى آخر خلفاء بنى أمية فى الشرق ، فان أبا مسلم استمر يبذل المجهود تلو المجهود ويغتنم كل فرصة من شأنها خدمة مساعيه الحثيثة الموجهة الى قلب الدولة الأموية — لاسيما الحرب الأهليـة التى قامت بين (نصر بن سيار) عامل مروان على خراسان و (الـكرمانى) القائد عليه — ويخادع اليمانيين مرة والمضريين مرة أخرى ، وابن سيار طورا والكرمانى طورا ، حتى اذا علم علـم اليقين بأن اليمانيين باتوا بلا نصير فى خراسان ، أظهر أمره علنا ونشر فى الملأ رايات العباسيين السوداء ، فتقاطرت اليه الموالى شيعيون وغير شيعيين من كل فج عميق : وقام حزبه كله قومة الرجل الواحد في جميع كور خراسان وفارس والعراق ، ونزع رجاله بيعة الأمويين ، فأظهروا أمر أبى مسـلم قائدهم الأكبر — ومن ضمنهم أبو مسلمة الخلال فى الكوفة — فعلم بذلك أبو مسلم فأرسل رجلا من قواده الى الـكوفة بألفى فارس ، فأخرج أبا العباس من بيت لأبى سالمة — وكان أبو العباس قد التجأ اليه مع أبى جعفر أخيه بعد قتل ابراهيم الامام أبيهما — وذهب به الى المسجد فنودى به خليفة على المسلمين وكان ذلك بدء الدولة العباسية .

فما لبثت واقعة (الزاب الـكبير) أن وطدت سلطانها . ثم ثبتت

---

(١) ابن الاثير ج ٥ ص ٣٠٨

دعائمها نهائيا واقعة (أبي صير) ومجزرة الأمويين التى أمر بها السفاح باغراء أبي مسلم وتحريض (سديف) الشاعر .

أما أبو مسلم فانه أصبح بعد ذلك عبئا ثقيلا على (أبي جعفر المنصور)، فاحتال عليه حتى ملكه وهو أعزل فقتله، ضربا بالسيوف . ولا بد أن أبا مسلم تذكر وهو يقتل ما عامل به هو سليمان ابن كثير وما عامل به عبد الملك بن مروان قائده عمرو ابن سعيد الأشرق .

وأما سديف الشاعر فما لبثت علويته أن تغلبت على عواطفه، فهجا العباسيين بأشعار بلغ خبرها المنصور فأمر بأخذه ودفنه حيا، ففعل .

***

على أن العباسيين – اذ تخلصوا من كبار الموالى الذين كانوا السبب فى ازالة دولة الأمويين واقامة دولتهم على أنقاضها – حاذروا جد الحذر اغضاب جمهور الموالى، لا سيما الفرس منهم، لعلمهم أن دولتهم انما تقوم بهم، لا بالعرب المتعصب معظمهم لبنى أمية أو لبنى على .

فجعلوا عاصمة ملكهم بين شيعتهم فى العراق، فكانت الكوفة أولا، ثم (الهاشمية)، وأخيرا بغداد التى ابتناها المنصور على نهر دجلة . واستندوا على موالى الفرس، لاسيما آل خراسان، فى ادارة شئون ملكهم، فجعلوهم بطانتهم ورجال دولتهم، واختصوا دون الكل بالذين حاربوا مع أبي مسلم فى طلب الخلافة لهم، وأشهرهم (خالد بن برمك) جد (الوزراء البرامكة) وكان من قواد جند (أبي مسلم) وشهد معه وقائعه

وأبلى بلاء حسنا فى نصرة (أهل البيت) ولم يجعل للعباسيين محلا للشك فى صداقته .

واستعمل المنصور الموالى فى مهماته وقدمهم على العرب ، ولما حضرته الوفاة أوصى بثلث ماله لمواليه وأوصى باكرامهم . ومن أقواله فى وصيته (للمهدى) ابنه : « وانظر الى مواليك فأحسن اليهم وقربهم واستكثر منهم . فانهم مادتك لشدتك ان نزلت بك . وأوصيك بأهل خراسان ، فانهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم فى دولتك ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم كما كان منهم . وتخلف من مات منهم فى أهله وولده » .

واقتدى خلفاء المنصور به . وكان المهدى اذا أراد الشورى جمع خاصته للمداولة وأول من يتكلم منهم الموالى .

فأصبحت بطانة الخلفاء ورجال دولتهم وخاصة حكومتهم من الموالى لا سيما الفرس . وهم الذين نظموا الحكومة ودواوينها ، ورتبوا أحوالها ، ومنهم الوزراء والقواد والعمال والكتاب والحجاب ، كأنها دولتهم . بحيث كانت المناصب تنتقل فيها من الرجل الى بعض أولاده ، واشتهرت بعض البيوتات بالوزارة والولاية كآل برمك وآل وهب وآل قحطبة وآل سهل وآل طاهر وغيرهم .

وكانت أمور الدولة ترجع الى الوزراء من الموالى : يولون ويعزلون. واذا تولاها أحدهم ولى الأعمال رجالا من أصحابه أو مريديه . فتغيرت الأحوال على أهل البلاد ، واطمأنت خواطرهم ، وتفرغوا للعمل فى

التجارة أو الصناعة أو الزراعة ، ونسوا ما كانوا فيه من ضغط بنى أمية واستبدادهم . وأطلقت حرية العمل وحرية الدين وذهبت عصبية العرب وذهبت معها روحهم الفتية ، وثوراتهم الدائمة ، ورتع الناس فى بحبوحة الأمن (١)

ومما ساعد على الذهاب بعصبية العرب وكرامتهم من نفوس الأمم التى أخضعوها ، هو أن الموالى — بعد أن تمكنوا من نزع الدولة من أيدى بنى أمية ، أى من العنصر العربى البحت ، وتسليمها الى بنى العباس ، أى الى قوم يكرهون العرب ، وان كانوا هم عربا على ما يزعمون ورأوا مع ذلك أن العرب لا يزالون لغاية أيام الرشيد عاملا كبيرا فى جسم الدولة الجديدة ، لما وفر فى النفوس من فضلهم على سائر الأمم ، وتفوق مزاياهم على مزاياها — عمدوا الى الحط من شأنهم وتحقيرهم ، والى الطعن عليهم باللسان طورا ، وطورا باليراع . فتسموا بالشعوبية وشمروا فى عهد المأمون عن ساعد العمل ، وعن قدم السعى ، للقضاء على هيبة العرب وكرامتهم ، كما قضوا على دولتهم من قبل . فألفوا الكتب الجمة فى ذكر مثالب العرب والرد على القائلين بتفضيلهم على سواهم من الأمم ، وقالوا بالمساواة بين بنى الاسلام عملا بقول النبي : « المسلمون اخوة تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على سواهم » وقوله فى خطبة الوداع : « ليس لعربى على أعجمى فضل الا بالتقوى » . (وقد يكون مدسوسا على الخطبة من الموالى أنفسهم) وعملا بما جاء فى القرآن الكريم : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم »

(١) التمدن الاسلامى لجورجى زيدان ج ٤ ص ١٢٠

فأخذت بذلك تزول العقبات فى الزواج التى أقامها العرب بينهم وبين الموالى، وأخذت تزول بالتدريج وفى الحياة العملية مبادىء التكافؤ المشهورة التى وضعها للتزاوج العلماء من فقهاء العرب، ولو أنها بقيت نظريا فى مدونات كتبهم.

وبما أن الشعوبية كانوا، كمدلول اسمهم، من عامة الشعوب التى اعتنقت الاسلام، فانهم كانوا يقابلون تفاخر العرب بالعظماء من رجالهم والجليل من أعمالهم، بذكر الفراعنة والنماردة والعمالقة والأكاسرة والقياصرة الذين نبغوا فى أحضانهم قبل الاسلام. ويفتخرون بسليمان الحكيم، واسكندر الأكبر وغيرهم. فاذا فاخرهم العرب بالأنبياء أجابوا أنهم جميعا شعوبيون الا ثلاثة (هود) و (صالح) و (محمد). واذا فاخروهم بالعلم والصناعة والفلسفة — وقلما كان ذلك قبل عصر المأمون — ذكروا الشطرنج ورمانة القبان والاسطرلاب، وتفاخروا بفلسفة اليونان وأشعارهم وسائر علومهم، وعلوم المصريين والهنود والفرس وغيرهم

وبلغ من جسارة بعض الشعوبية فى ردودهم أن قالوا: «فما الذى تفخر به العرب على العجم؟ فانما هم كالذئاب العادية والوحوش النافرة يأكل بعضها بعضا، ويغير بعضها على بعض. فرجالهم قبل الاسلام موثقون فى حلق الأسر، ونساؤهم سبايا مردفات على حقائب الابل [1]». واستشهدوا على ذلك بأبيات من أقوال العرب لا محل

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٦٩

لايرادها هنا ، ولكن المبالغة والتحامل باديان على قائليها . وقالوا : لا يفلح عربى ان لم يكن معه نبى ينصره ! وعيروهم باستلحاق الأدعياء ونظموا الأشعار طعنا فيهم . وممن عمل ذلك الحسن بن هانىء وبشار بن برد وغيرهما — على أن بشارا كان تارة معهم وتارة عليهم .

فقام العرب والمتعصبون لهم للرد على تلك المثالب والمطاعن والفوا كتبا ضخمة فى ذلك أشهرها كتاب « تفضيل العرب » لابن قتيبة .

ولكن المأمون كان ينصر الشعوبية ويقربهم ويجعلهم من بطانته ويجيزهم ، ومنهم سهل بن هرون قيم بيت الحكمة — وكان شديد التعصب على العرب — و (أبو عبيدة) الراوية الشهير و (علان الشعوبى) وغيرهم .

وانما كان المأمون يفعل ذلك لأن الشعوبية نصروه فى حربه مع الأمين أخيه ، وأما العرب فنصروا الأمين ، وكان ذلك آخر نزاع قام بين الأمتين العربية والفارسية وانتهى بفوز الفرس نهائيا .

فاستفحل أمر الموالى فى أيامه وازداد العرب ضعفا حتى أنهم كثيرا ما كانوا يتعرضون للمأمون فى الشوارع يشكون اغضاءه عنهم . ومن أقوالهم فى ذلك : « يا أمير المؤمنين انظر الى عرب الشام كما نظرت الى عجم خراسان ! »[١]

* * *

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ١٧٦

هذا ما كان من شأن الموالى. وحالتهم فى مصر كحالتهم فى باقى أقاليم الدولة، بقدر ما كان ذلك يتفق مع ماذكرنا من أحوال الاقليم المصرى خاصة من ثوران وفتن وحروب أهلية.

***

وأما العبيد فان سوقهم كانت رائجة فى أيام الجاهلية عند العرب لأن القوم كانوا كباقى الأمم يسترقون أسرى الحروب أو يبتاعونهم ممن جاورهم من الشعوب كالحبشة وغيرها، ويبيعونهم فى أسواق جزيرتهم فى مواسمهم. وكانت قريش تتجر بالرقيق اتجارها بسائر السلع، ومن أشهر نخاسيها (عبدالله بن جدعان) زعيم (حلف الفضول) وصاحب الوليمة التى حضرها النبى صلى الله عليه وسلم وهو حدث، فزاحمه (أبو جهل) عليها: فوقعه النبى. فوقع أبو جهل على ركبتيه فجرح جرحا أثر فيها، فكان ذلك أول العداء بينه وبين الرسول. وكان اذا اشترى أحدهم عبدا وضع فى عنقه حبلا، وقاده الى منزله كما تقاد الدابة. واذا كان العبد أسير حرب جزَّ سيده ناصيته وجعلها فى كنانته حتى يفتدى العبد نفسه.

وكانوا يتهادون الأرقاء ويتوارثونهم، كسائر الأمتعة. وقد يخرجونهم فى جملة صداق العرائس. ولم يكن شريف من أشراف العرب يخلو منزله من عبيد يستعملهم فى قضاء حاجات منزله. ويستخدمهم لمصلحته فى المهن المتعددة المعروفة فى تلك الأيام. ويخرج أحيانا بهم للحرب ويكون سهمهم فيها له. على أنهم قلما كانوا يثقون بأماناتهم

ولا غرابة فى ذلك .

وكانت العرب تتزوج الاماء . فاذا ولد لهم منهن أولاد استعبدوهم . فاذا نجب أحدهم الحقوه بأنسابهم واعترفوا به ؛ والا بقى عبدا — وفى هذا مادة لتأملات القائلين بأن عواطف الأبوة مطبوعة على قلوب الآباء بطابع الطبيعة عينها .

ولم يكونوا يعتقون عبدا من عبيدهم الا لسبب هام . والا فالعبد عبد ما عاش ، وأولاده عبيد من بعده .

***

فلما جاء الاسلام وكثرت الفتوحات راجت سوق الرق فى الدولة العربية رواجا هائلا لكثرة من وقع فى أيدى العرب من الأسرى .

فكانوا اذا ما فتحوا بلدا عنوة ، أسروا رجاله وسبوا نساءه واطفاله ؛ وختموا فى أعناقهم جميعا ، ثم اقتسموهم على الأسهم : فربما أصاب الفارس الواحد منهم مائة أسير ومائة جارية فى وقعة واحدة . وذلك يؤيد ما يذكر عن عثمان بن عفان من أنه كان عنده ألف عبد .

على أن الأسرى — اذا كانوا كثيرين — يبعوا غالبا بالجملة قبل تفريق الأسهم . فينادون على الأسير بمائة درهم أو ألف درهم وأقل او أكثر . وربما اقتضت عدة شهور لبيع أسرى معركة واحدة ، فقد ظلوا يبيعون أسرى الأندلس وغنائمها ستة أشهر (١) .

وذلك لأن عامة الجند من المسلمين كانوا يفضلون بيع أسراهم

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢١٣

واحراز ثمنهم على ابقائهم لديهم ، لعجزهم عن القيام بمعاشهم .

وكانت أحكام الأسرى فى ذلك الزمان — الذى يتلذذ الطاعنون على المدنيـة الحاضرة ، بالطنطنة بمفاخره ومكارمه وانسـانيته — أن الخليفة ، أو من يقوم مقامه ، كان مخيرا بين أربعة أشياء : اما القتل واما الاسترقاق واما الفداء بمال أو المن بغير فداء . فان أسلم الأسـير سقط القتل ، وكان الخليفة أو الحاكم على خياره فى أحد الثلاثة الباقية .

ومن ملك رقيقا بالأسر أو الشراء أو غـير ذلك كان مخيرا فى استبقائه أو بيعه أو عتقه . فان أعتقه صار مولاه .

وقد حرض الاسلام على العتق تحريضا كثيرا . فكان المسلمون يعتقون عبيدهم اذا أظهروا التقوى أو الغيرة على الدين ، كعبد الله ابن عمر بن الخطاب ، مثلا ، أعتق على هذه الصورة ، ألف عبد ، وأعتق (محمد بن سليمان) سبعين ألف مملوك ومملوكة . وتأمل أحوال عصر كان الأفراد يملكون فيه هذا القدر من العبيد ، وتأمل روحه ! — أو كانوا يعتقونهم فداء عن يمين أو وفاء لنذر ، أو التماسا للثواب ، أو شـكرا لله على نعمة ، أو نحو ذلك . بل كان بعض الورعين يبتاعون العبيد ويعتقونهم ابتغاء مرضاة الله ! — فياطوباهم !

ومنهم من كان يعتق العبيد ترغيبا لهم فى الجهـاد . فيبعث من ينادى فيهم « أى عبد قاتل فهو حر » فيقاتل العبيد قتالا عجيبا لينالوا حريتهم .

ولم يكونوا يعاملون العبد فى الأحكام الشرعية الا بمثابة نصف حر فاذا أذنب ضربوه نصف ما يضرب الحر .

وأما معاملاتهم لهم اجتماعيا ، فانها كانت غاية فى العطف ، بالنسبة لمعاملة الرومانيين مثلا لعبيدهم ، وبالنسبة لمعاملة الأوروبيين الحديثين لأرقائهم فى مستعمراتهم . وفى الحقيقة أن الاسلام جاء رحمة للأرقاء ، فالنبى أوصى بهم خيرا بقوله : « لاتحملوا العبيد مالا يطيقون ، وأطعموهم مما تأكلون » . وقال : « لا يقل أحدكم عبدى وأمتى ، وليقل فتاى وفتاتى ! » وهذا آخر مايصل اليه التأنق فى الانسانية والذوق الرقيق والقرآن أمر بالاحسان اليهم ، اذ قال : « وبالوالدين احسانا ..... وما ملكت أيمانكم ! »

على أن معاملة العرب لأرقائهم المسلمين لم تبلغ من الطيبة والتسامح ما بلغت اليه معاملة المسلمين عامة لهم فى تابع الأيام . فلم يزوجوهم ، مثلا ، من بناتهم ، ولا عاملوهم معاملة الأبناء .

كذلك لم يعاملوا رقيقاتهم كما عاملهن خلفاؤهم من المسلمين قاطبة . ولو أن معاملة الرقيقات لم تخل من قسوة وغلظة وقلة مراعاة للشعور النسائى على ممر الأيام .

وكان ثمن العبيد ابان الفتوح وفى أيام الأمويين زهيدا ، وذلك لكثرتهم . فأسرى الحروب كانوا يعدون بمئات الألوف ، وفوق ذلك فان بعض العمال ، لاسيما فى افريقيا وتركستان ومصر ، كانوا يؤدون بعض خراج أعمالهم من الرقيق . وكان فريق من أهل الذمة يقدمون ، بدل الجزية ، رقيقا أيضا من أولادهم .

فكان العبد أحيانا بمائة درهم . فاذا علا سعره فبمائة دينار . فاذا

كان يعرف صناعة فمائتى دينار ؛ واذا كان يحسن رواية الشعر فبستمائة دينار . وأما العبدة فان سعرها كان يعلو وينخفض على نسبة نصيبها من الجمال أو المهارة فى صنعة أو فى فن ، وعلى الأخص فى الغناء .

***

بقى علينا أن ننظر ما كان عليه غير المسلمين .

فغير المسلمين كانوا اما عبيدا واما أهل الذمة .

فأما العبيد منهم ، فان حالتهم الاجتماعية كانت كحال العبيد المسلمين لا تمتاز عنها فى خير أو شر الا الامتياز فى المعاملة الفردية الذى يوجبه الشعور الدينى فى قلوب الأفراد . على أن العبيد المسلمين كانوا الى العتق أقرب من العبيد الغير المسلمين ، الا اذا أعتق هؤلاء فداء .

والفداء اما بالمال واما بالبدل .

أما فداء المال فلا يقع تحت حصر لانه فردى . وأما فداء البدل فبين دولة المسلمين ودولة الروم ؛ وأشهر ما وقع منه كان فى ابان حكم العباسيين .

***

وأما أهل الذمة فاليهود ، والنصارى ، والمجوس المستوطنون بلاد الاسلام على عهد عوهدوا عليه والتزم المسلمون بموجبه الدفاع عنهم مقابل جزية يدفعونها اليهم . فاذا عرض للمسلمين ما يمنعهم عن حمايتهم أمسكوا عن دفعها .

ومعاملة المسلمين أهل الذمة كانت تختلف باختلاف العهود المعطاة

لكل طائفة منهم وباختلاف اخلاق القابضين على زمام الأحكام من المسلمين .

وانما وجد الاختلاف فى العهود التى أعطيت لأهل الذمة بسبب شدة المقاومة التى أبدوها ضد المسلمين أو قلتها ؛ وبسبب اقبالهم على مساعدتهم ، أواحجامهم عنها . وبالنسبة لكثرة أو قلة ثقة المسلمين فى من عاهدوه منهم .

والاختلاف منحصر فى أن من تلك العهود ما اشترط فيه المستحق فقط ومنها ما اشترط فيه المستحق والمستحب .

فأما المستحق فستة شروط : (١) ألا يذكر أهل الذمة كتاب الله بطعن فيه ولا تحريف له . (٢) ألا يذكروا رسول الله (صلعم) بتكذيب له ولا بازدراء . (٣) ألا يذكروا دين الاسلام بذم له ولا قدح فيه . (٤) ألا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح . (٥) ألا يفتنوا مسلما عن دينه ولا يتعرضوا لماله ولا دمه . (٦) ألا يعينوا أهل الحرب ، ولا يأووا أغنياءهم .

وأما المستحب فستة شروط أخرى وهى (١) أن يغير أهل الذمة هيئاتهم بلبس الغيار وشد الزنار (٢) ألا يعلوا على المسلمين فى أبنيتهم (٣) ألا يسمعوهم أصوات نواقيسهم . (٤) ألا يجاهروهم بشرب الخمور ولا باظهار صلبانهم أو غيرها من شعائر دينهم (٥) أن يخفوا دفن موتاهم (٦) أن يمنعوا من ركوب الخيل عتاقا وهجانا .

فنبط العراق ، وصابئة حران ، ومجوس فارس ، ويهود كل بلد عوهدوا فى بادىء أمرهم على الشروط الستة المستحقة فقط .

وأما النصارى ، لاسيما نصارى الشام ، فانهم عوهدوا على المستحق والمستحب معا من الشروط ؛ ما عدا أقباط مصر ، فقد عوهدوا على المستحق فقط مقابل الشروط الستة التى تعهد لهم المسلمون بها ؛ وسبق لنا ذكرها فى غير هذا المكان .

وأما السبب فى أن العرب الفاتحين عاملوا النصارى بأشد مما عاملوا غيرهم من الملل ، بالرغم من قول القرآن : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا . ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا « انا نصارى ! » ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا ؛ وانهم لايستكبرون! » لسبب واضح وهو : أن المسلمين، بعد ان قضوا القضاء المبرم على دولة فارس ، لم يعودوا يخافون لها رجوعا . وأما الصابئون واليهود ، فلم تكن لهم دول يوجس العرب منها خيفة . فكان لهؤلاء اذن من قيام أولئك فى عزلة اعتقادية من باقى الأمم ، وفى تشتيت قوميتهم وبعثرة شملهم ، وكره الملل الأخرى لهم ، داع الى الاستيثاق من اخلادهم الى الاستكانة والاستمرار على الخضوع .

كذلك كانت كراهة أقباط مصر للحكم البيزنطى ولمذهب امبراطور القسطنطينية ، . المساعدة التى بذلوها أولا للعرب فى تغلبهم على لروم وطردهم من القطر سببا فى المجاملة الكبيرة التى عاملهم العرب بها فى أول ما تعاهد به كل من الفريقين للآخر .

وأما باقى النصارى ، وعلى الأخص نصارى سوريا ، فقد كان بينهم وبين دولة الروم رابطة دينية متينة . تجعلهم ينظرون الى احتلال العرب

بلادهم ، وطردهم الروم المسيحيين منها ، نظر الكاره الناقم ، نظر مسلمى مصر ، قبل الحرب ، الى الاحتلال البريطانى .

والرابطة الدينية أقوى الجامعات فى الشرق بلا خلاف : فكل طائفة شرقية على الاطلاق تفضل أن يحكمها حاكم من مذهبها ولو كان عتيا ظالما ، على أن تخضع لحاكم من غير دينها ، ولو كان تقيا عادلا . وقد لا يشذ عن ذلك الآن ، بعد أن قلبت الحرب الكبرى العالم ، وكيفت العقلية البشرية تكييفا بليغ الآثار ، قد لا يشذ عن ذلك الا جمهور من أقباط مصر و نصارى سوريا متشبع بالمبادىء الوطنية الحديثة أكثر من تشبعه بالمبادىء الدينية القديمة : والأمر مع ذلك مشكوك فيه كثيرا عند فئة عظيمة من الناس .

فاذا كانت حال الطوائف الشرقية الآن هى هذه ، فكيف بها فى تلك العصور البعيدة ، والدين اذ ذاك مرتبط بالسياسة أكثر من ارتباطه بها الآن ألف مرة ؟

والنصارى اذا أذعنوا فى ذلك الحين ، للجزية ودخلوا فى سلطان المسلمين وذمتهم ، فانما كان ذلك رغم أنفسهم ؛ على أنهم لم ينفكوا يؤملون عودتهم الى احضان الحكم الرومى . ولم تبرح أنظارهم متجهة الى قيصر القسطنطينية . يعتبرونه فى صميم أفئدتهم ملكهم الوحيد وسيدهم الفذ ، كما كانت أنظار مسلمى مصر ، قبل الحرب ، لا تنفك متجهة نحو سلطان القسطنطينية ، وكانوا يعتبرونه ، جهارا صاحب ولائهم ومولى نفوسهم ويمنون أحلامهم بالعودة الى حكمه .

وقد كانت رابطة اللغة تجمع أيضا معظم نصارى سوريا ، وبخاصة

المتعلمين منهم بالامبراطورية البيزنطيـة لأنهم كانوا كرعايا تلك الامبراطورية يتكلمون باليونانية ، ثم ان أساقفتهم وكهنتهم لم يفتأوا يجددون فى قلوبهم عوامل الميل الى قيصر القسطنطينية ، بما كانوا يحيونه فيهـا من الآمال بقرب الخلاص على يديه من حكم أعراب البادية المسلمين ، وبما كانوا يغرسونه فيها من حبـه وتعظيمه ، ومن الاعتقاد بأنه حامى حمى النصرانية ونصيرها الأكبر .

هكذا كنا نرى فى أيامنا هذه ، كهنة الكثلكة فى الدولة العثمانية يغرسون حب فرنسا فى قلوب التابعين للسدة البابوية ؛ ونرى كهنة الارثوذكس يعلقون رعاياهم الروحيين بحب قيصر الروس وتعظيمه ويفهمونهم أنه نصيرهم الأكبر وحصنهم الأعز ؛ ونرى خدام الدين البروتستانتى يعظمون ، أمام أعين كل من اتبع تعاليمهم ، شأن دولة الانجليز أو الألمان حسبما كان أولئك الخدام انجليز أو ألمانيين . فلا غرابة اذن فى أن نصارى سوريا لم يخلصوا الخضوع للعرب ، ولم يدخروا وسعا في سبيل اعادة البلاد الى قيصر الروم ، الذى كان لا يزال يرجو استرجاعها الى سـلطانه ؛ ولا غرابة فى أنهم انما كانوا فى وسط العالم الاسلامى المحيط بهم — لا سيما بعد ما كان من تسرعهم الى تسليم أنطاكية للروم — كالشوك الواخذ ، وكالعيون المفتوحة ، وكالعدة المعدة لأن يستعملها أعداء الدولة الاسلاميه ، عند سنوح الفرصة الممكنة من ذلك . وعليه فلا غرابة اذا توقع العرب منهم أن يؤوا جواسيس الروم ويعينوهم على استطلاع أخبارهم ويدسوهم بين المسلمين ، وهم فى

لباسهم ، وقد نقشوا أسماءهم على خواتمهم مثلهم ، لا بل ويحفظوهم شيئا من القرآن ليوهموهم أنهم منهم .

ولا عجب اذا رأوا اتقاء ذلك بأن يلزموهم شروطا تعجزهم عن الاضرار بهم وتكفيهم شرهم . وانما العجب فى أن يكون العرب قد لجأوا الى هذه الوسيلة التى ، على ما فيها من شدة ، انما تدل على مقدار رفعة أنفسهم بالنسبة لروح تلك العصور الغليظة ، بدلا من أن يعمدوا الى استئصال شأفة أولئك النصارى استئصالا كليا ، كما كان فى امكانهم .

فتضييق العرب على النصارى ، اذن ، لم يكن منشؤه فى ذلك الحين التعصب الدينى الاسلامى أو الكراهة للنصرانية ، كما توهم ولا يزال يتوهم بعض المؤرخين من المسيحيين . وانما كان لقلة ثقة العرب فى اخلاصهم وتوجسهم منهم خيفة بالنسبة لعلاقاتهم بالدولة الرومية وتمسكهم بها . فالتعصب الدينى كان من جانب النصارى لا من جانب المسلمين من العرب .

فلما أفضت الخلافة الى بنى أمية ، وبات من المؤكد لدى الجميع أن الاقدار قررت نهائيا استتباب الحكم الاسلامى على البلاد التى فتحها العرب لاسيما فى آسيا ، وأنه لم يعد ثمة خوف عليها من الضياع ، كان الواجب اذن أن تمحى من العهود التى أعطاها الفاتحون للنصارى السوريين : شروط الجزاء المستحب كلها . ولكن الواقع كان على عكس ذلك ، فان الأمويين زادوا فى شدة تلك الشروط ، وأغضوا

النظر عما كان عمالهم يرتكبونه أحيانا من المظالم فى حق أولئك النصارى ومن الاضطهاد الغليظ لهم . وهى مظالم واضطهادات كان نصيب المصريين منها بليغا ، ذكره المقريزى فى الجزء الثانى ص ٤٩٢ و ٤٩٣ من خططه .

فمن ذلك أن عبد العزيز بن مروان صادر بطرك الأقباط مرتين ، أخذ منه فيهما ستة آلاف دينار ؛ وأمر باحصاء الرهبان وأخذ الجزية منهم عن كل راهب دينارا . فخالف بذلك نص المعاهدة التى أبرمت مع عمرو بن العاص .

واشتد على النصارى عبد الملك بن مروان و (قرة بن شريك) وعبد الله بن الحبحاب متولى الخراج ، وعلى الأخص أسامة بن زيد التنوخى متولى الخراج عليهم : فانه أوقع بهم وأخذ أموالهم ووسم أيدى الرهبان بحلقة حديد فيها اسم الراهب واسم ديره وتاريخه . ثم قطع يد كل من وجده بغير وسم ، وكتب الى الأعمال بأن تؤخذ عشرة دنانير من كل من وجد من النصارى وليس معه منشور . ثم كبس الأديرة وقبض على عدة من الرهبان بغير وسم . فضرب أعناق بعضهم وضرب باقيهم حتى ماتوا تحت الضرب . ثم هدم الكنائس وكسر الصلبان ومحا التماثيل وكسر الأصنام بأجمعها ، وكانت لا تزال كثيرة — والمقصود هنا بالتماثيل والأصنام صور القديسين وأيقوناتهم وشخوصهم .

واقتدى بالتنوخى (حنظلة بن صفوان) ، فتشدد على النصارى وزاد فى خراجهم وجعل على كل منهم وسما صورة أسد ، وتتبعهم .

فمن وجده بغير وسم قطع يده . ولربما رجع أصل دعوة « جاك أسد » التى لا نزال نسمعها الى يومنا هذا من نســاء مصر ، الى ذلك الوسم !

وبطش مروان بن محمـد الجعدى لدى قدومه مصر هاربا من بنى العباس بالبطرك ميخائيل ، وأنزل به وبالنصارى بلاء كبيرا ! وأسر عدة من النساء المترهبات ببعض الديارات وراود واحـدة منهن عن نفسها . فاحتالت عليه ودفعته عنها بأن رغبته فى دهن معها اذا دهن به الانسان لا يعمل فيه السلاح . وأوثقته بأن مكنته من التجربة فى نفسها فتمت حيلتها عليه ، وأخرجت زيتا ادهنت به ثم مدت عنقها فضربهـا بسيفه أطار رأسها . فعلم أنها اختارت الموت على الزنا .

ولا ندرى مقدار الصحة فى هذه الحـكاية . ونستبعد أن يكون قد بلغ الحمق بمروان الحمار هذا الحد ، على ما هو مشهور عنه من الذكاء والمواهب العقلية ، ولو أن فى اقدامه على اضطهـاد الأقباط بمصر وهو لاجئ اليها - اذا صح أنه اضطهدهم — ما لا يخفى من قلة التدبير وسوء السياسة .

وما زال مروان واضعا البطرك وكبار النصارى فى الحديد الى أن قتل بأبى صير . ولعله فعل كل ما ينسب اليه — اذا هو فعله — لشعوره بأن للنصارى ضلعا مع العباسيين ، فان المقريزى يقول : ان أهل الذمة ساعدوا (أبا عون) القائد العباسى على التمـكن من مروان والفتك به انتقاما وتشفيا لأنفسهم مما فعله فيهم وفى اخوتهم .

وانا لا نذكر الا من باب التلميح فقط اقبال الوليد بن عبد الملك على هدم بيعة دمشق المجاورة للمسجد الأموى وتولية بعض ذلك بيده ،

كأنه يقصد من الأمر ثوابا ! وما كتبه عمر بن عبد العزيز الى عماله بالتزام من كانوا على غير الاسلام أن يضعوا العمائم ، ويلبسوا الأكسية ولا يتشبهوا بشيء من المسلمين ، وبألا يترك أحد من الكفار يستخدم واحدا من المسلمين ، وبألا يستخدم أحد من أهل الذمة فى مصالح الحكومة ، وألا يسمح للنصارى بضرب النواقيس وقت الأذان .. الخ .

فما الذى حدا بالدولة الأموية الى معاملة النصارى من رعاياها تلك المعاملة الخشنة التى لم يعد يبررها تخوفها من اتحادهم مع الروم عليها ؟

يخيل الينا أن الذى حملها على ذلك ثلاثة أمور :

الأول : أن ما كان أبداه النصارى فى أول الحكم العربى من الميل الكلى الى الروم ، وقلة الاخلاص والأمانة للحكم الاسلامى ، وتمنى زواله فى القريب العاجل ؛ وقيامهم بعد ذلك لنصرة الروم كلما عن لهؤلاء مهاجمة المسلمين ، قياما ان لم يكن دائما ظاهرا فخفيا ، ذلك جميعه أوجد جفاء فى قلوب العرب من جهة النصاري ونفورا منهم : فتحقق فى شعورهم المتبادل البيت القائل

ان القلوب اذا تنافر ودها   مثل الزجاجة كسرها لا يجبر

فنجم عن ذلك أن النصارى أخذوا يقارنون بين المعاهدات التى أبرمت معهم والمعاهدات التي أبرمت مع سواهم ويقيمهم الى الانتقاض على المسلمين ما يرونه فيها من فروقات شديدة الوطأة عليهم وأن العرب ، كلما أنسوا من النصارى روح التمرد عليهم أو ألفوهم يتمردون فعلا ، زادوا عليهم ضغطا فى اذلال .

الثانى : أن الأمويين كانوا كما قلنا ، مثال الترفع والكبرياء العربيين .

فاذا هم احتقروا الموالى لكونهم ليسوا بالعرب مثلهم ، مع أنهم مثلهم مسلمون ، فكم كان من شأن كبريائهم وأنفتهم أن تحملاهم على احتقار رعاياهم الذين لم يكونوا غير عرب فقط ، بل كانوا ، أيضا ، غير مسلمين ؟ ومن احتقر انسانا ، هان عليه امتهانه واعتبار الاساءة اليه أمرا لا يؤبه به .

والأمر الثالث والأخير أن الأمويين كانوا فى حاجة الى المال الكثير لاصطناع الأحزاب والرجال ، للمحافظة على رياستهم وسيادتهم ، لأنهم كانوا أعلم الناس بأنهم اختلسوها اختلاسا من عامة المسلمين ، واستبدوا بها كأنها حق من حقوقهم ، وانه يجدر بهم اذن بذل المال بكف سخية لتخدير الأعصاب به . فجرهم ذلك الى خرق كثير من القواعد التى وضعها الخلفاء الراشدون للخراج والجزية والصدقة وتفريق محصولها ، والاغضاء عن كثير من الأحكام القرآنية المحتمة حسن معاملة أهل الذمة فأخذوا يكتبون الى عمالهم بجمع الأموال وحشدها كيفما كانت الكيفية — كمعاوية ؛ كتب الى زياد : « أصطف لى الصفراء والبيضاء » — وكان عمالهم من الرجال الأشداء الذين لا يبالون بالدين ولا أحكامه فى سبيل أغراضهم ، مثل زياد المذكور ابن أبى سفيان وعبيد الله بن زياد ، والحجاج بن يوسف وخالد العشرى ، وغيرهم . فلم يروا حرجا فى ابتزاز الأموال من أهل البلاد ، وارهاقهم بالمظالم ، لا سيما أهل الذمة منهم كما سبق لنا القول . لا سيما وأن هؤلاء العمال أنفسهم كانوا يختصون بجانب من تلك الأموال ، وينفقونها على لذاتهم . ولقد بالغوا فى ذلك

الى حد أن أمية بن عبد الملك كتب الى عبد الملك بن مروان يقول : « ان خراج خراسان لا يفى بمطبخى » . وليس ثمة من يحاسبهم على ذلك الانفاق الفاحش . غاية ما فى الأمر أن الخلفاء ، متى رأوا استئثار عمالهم بالأموال ، وعلموا أنهم أصبحوا من هذا الباب ، أصحاب ثروة ، عمدوا الى مصادرتهم ، وأنفذوا اليهم من يقبض عليهم وعلى أموالهم ويتولى العمل مكانهم ! كما جعل يفعل ، بعدهم ، سلاطين بنى عثمان بولاة ممالكهم الشهانية ، وعلى الأخص بولاتهم على مصر .

فلا غرابة اذا أغلظ بنو أمية معاملة أهل الذمة لاستخراج أموالهم منهم . فانهم زادوا الخراج زيادة عظيمة عما كان عليه على ذات المسلمين؛ وضربوا ضرائب جديدة لم يكن لها وجود ، بل باعوا الأعمال ، أحيانا بالرشوة ، خصوصا فى أواخر أيامهم (كما فعل السلاطين من بنى عثمان فى أواخر أيامهم أيضا على الأخص ، وحذو النعل بالنعل !) ولا غرابة اذا أطلقوا أيدى عمالهم وقوادهم فى أهل الذمة . لأنهم كانوا يرون فى ذلك تشجيعا لأولئك العمال على خدمتهم وتنفيذ أغراضهم ، واذ أن التعصب يوجب تعصبا مثله فقد انتهى الأمر ببعضهم الى امتزاج شىء من التعصب الدينى فى شعورهم نحو من خالفهم فى العقيدة .

* * *

فلما آل الأمر الى العباسيين ، وأخذ الموالى الفرس فى تنظيم الحكومة وترتيب دواوينها ، أحسوا بافتقارهم الى من يعينهم على ذلك من أهل الذمة ، لأنهم كانوا أهل معرفة فى الحساب ، والكتابة

والخراج ، فضلا عن العلوم الأخرى . فقربوهم اليهم ، وأكرموهم ، وسهلوا لهم أسباب المعيشة ، وأغدقوا عليهم الرواتب الضخمة فتقاطر أهل الذمة اليهم ، وخدموا الدولة العباسية بعقولهم وأقلامهم ، بأمانة وأخلاص .

أما اليهود فتولوا الصرافة ، فكان معظم الجهابذة منهم . وأما النصارى ، فتقلدوا الوظائف الكتابية ، وترقى بعضهم فيها ترقيا عظيما جدا ، لا سيما فى عهد الخلفاء المعاصرين للطولونيين ، كما سنرى .

واستخدم الخلفاء والأمراء الأطباء من أهل الذمة ، والحكماء والتراجمة كما سبق لنا القول . وكثيرا ما كانوا يكرمون الأساقفة ويجالسونهم ؛ كالهادى مثلا ، كان يستدعى اليه الأسقف (تيموتاوس) فى أكثر الأيام ، ويحاوره فى الدين ، ويبحث معه ويناظره ، كذلك كان يفعل معه أيضا هرون الرشيد وغيره . وكثيرا ما كانوا يغضون عما فى العهود التى أخذت عليهم من التضييق على مظاهر عباداتهم ، فلا يمنعونهم من احداث الكنائس أو الاحتفال بالأعياد ، كما أنهم لم يمنعوهم من خدمة الدولة .

غير أن ذلك كله انما كان منحة يجود بها على أهل الذمة كرم اخلاق بعض الخلفاء العباسيين وسماحة صدورهم ، فيقتدى عمالهم بهم أحيانا . ولكنه لم يكن ليمحو العهود المعطاة والمأخوذة فى أيام الفتح الأولى ، ولا لينشىء حقوقا جديدة لأهل الذمة فى دستور الحكم الاسلامى . فكان اذا تغير عليهم خاطر خليفة ، ولو كان متسامحا ، عمد الى تنفيذ تلك العهود عليهم كما فعل موسى الهادى مثلا فى كنائس مصر

سنة ١٦٩ هـ. اذ هدمها على يد عامله على بن سليمان العباسى ؛ وكما فعل هرون الرشيد لما امتنع (نيقوفور) امبراطور الروم عن دفع الجزية المربوطة من الدولة العباسية على الامبراطورة (ايرينى) سلفته ؛ فاضطر الى محاربته ، ورأى من مساعدة النصارى له ما ساءه . وأما الخلفاء غير المتسامحين لا سيما المتوكل ، فانهم كانوا شديدى الوطأة على أهل الذمة ؛ لا يرون فيهم سوى تنفيذ عهود السابقين ، وتنفيذها بغلظة . فالمتوكل مثلا ، أمر بهدم جميع الكنائس المحدثة بعد الاسلام ؛ ونهى عن أن يستعان بأهل الذمة فى الأعمال ؛ وعن أن يظهر النصارى الصلبان فى شعانينهم ، وأمرهم أن يجعلوا على أبوابهم صور شياطين من الخشب ؛ وأن يلبسوا الطيالسة العسلية ، ويشدوا الزنار ، ويركبوا السروج بالركب الخشب بكرتين فى مؤخر السرج ؛ وأن يرقعوا الباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب ، قدر كل واحدة أربع صوابع ، ولون كل واحدة غير لون الأخرى . وأن تلبس من خرجت من نسائهم آزارا عسليا ؛ وألا يلبسوا المناطق وهلم جرا . فما كان أتعس حالة أهل الذمة ، فى تلك العصور ، وما كان أمر الحياة على نفوسهم المقهورة .

والسبب الذى حمل المتوكل على هذا التشديد هو أن نصارى حمص ساعدوا أهلها المسلمين حينما وثبوا بعاملهم سنة ٢٤١ ، وعاونوهم عليه . فأخذ جميع النصارى بجريرة بعضهم . وأية جريرة ! ولا عجب فى أن تكون الغباوة فى المتوكل غالبة على ذكائه . فقد كان لديه أربعة آلاف جارية ، وطأهن جميعا !

غير أن تشدد الحكام على أهل الذمة لم يكن من باب التعصب الدينى البحت الا فى النادر جدا ؛ وانما كان من باب الحكمة السياسية كما أبنا . فان الخلفاء الأمويين ذاتهم ، على حبهم فى أن يسلم غير المسلمين ، لم يكرهوا أحدا منهم على اعتناق الاسلام مطلقا ، وما يروى عن شمعلة الفارسى من أن بعض خلفاء بنى أمية قال له : « اسلم يا شمعلة » ، فقال « لا والله ! لا أسلم الا طائعا ، اذا شئت » فغضب الخليفة ، وأمر فقطعت بضعة من فخذه ، وشويت بالنار وأطعمها ، انما هو رواية فردية ، لا يصح أخذها حجة على مدلولها . فقد كان أولئك الخلفاء يقدمون الشعراء من النصارى اليهم ، ويرتاحون الى محادثتهم ارتياحا كبيرا ، كما كان يفعل عبد الملك بن مروان مع الأخطل .

ونفس الخلفاء العباسيين المتشددين على أهل الذمة — كالمتوكل — لم يقع فى خلدهم مطلقا اجبارهم على اعتناق الاسلام .

ولكن العامة ، لم تكن كذلك . وانما كانت تكره غير المسلمين لأنهم من المغضوب عليهم عند الله ، لا لغير ما سبب . فكثيرا ما كانت تسعى لمضايقتهم فى حياتهم ، وحمل الحكام على اتخاذ اجراءات قاسية ضدهم . بل كانت تعمل على ذلك عملا حثيثا : شأن كل عامة فى الأجيال والقرون المظلمة والنيرة على السواء ، وشأنها أيضا فى عصرنا هذا ذاته وهو أبهر العصور نورا .

وكان ذلك الكره يزداد كلما ازداد تقدم غير المسلمين على المسلمين فى المصالح العمومية وخدمات الحكومة . وهو أمر شاهدناه فى مصرنا

هذه بين مسلميها وأقباطها فى عهد الاحتلال ؛ وطالما سودت من أجله صحف يومية وأسبوعية ، لا سيما ابان حركة (الحزب الوطنى) فى أوائل هذا القرن ، مع أنه أمر كان يتكدر له تكدرا عظيما كل مصرى محب لمصر ، سواء أكان مسلما أم قبطيا : لأنه كان يدل دلالة واضحة على عدم وجود روح وطنية فى القطر ، وعلى أنه لا عصبية عندنا الا عصبية المذهب والدين ، وهى عصبية استفاد الشرقيون منها فى الماضى فائدة كبيرة ؛ ولكنهم لم يكن فى مكنتهم أن يجنوا منها فى أيامنا هذه سوى الانفكاك والضعف ولا أن يؤسسوا عليها دولا ، لأنها مخالفة لروح المدنية الحاضرة ، والمدنية الحاضرة لا تقاوم ؛ لأنها قوة لم ير العالم لها مثيلا فى كل دائرة قرونه وعصوره . لذلك كان من أجل نعم حركتنا الحاضرة التى نرمى بها الى تكوين أمة مصرية جديرة بالاستقلال وبالجلوس فى مصاف الدول الراقية على كرسى كريم فى عصبة الأمم ، الائتلاف والأخاء بين مسلمينا وغير مسلمينا وزوال جميع الفوارق الدينية من نفوسنا ليحل محلها روح الأخوة الوطنية !

فتعصب العامة المسلمة ، اذن ، على غير المسلمين كان من شأنه أن يجعل حياة هؤلاء بائسة ، منقضية في ذل وحقارة . فاذا أتيحت لهم ظروف لتحسين حالهم من بلوغ بعضهم درجات رفيعة فى خدمة الحكومة ، أو استحواذه على ثقة خليفة أو وزير أو حاكم وعلى مودته ، فان ذلك كان لا يلبث أن يزيد نار أحقاد العامة عليهم ضراما : فتجد لها وقودا من حسد حساد أولئك النابغين ؛ فلا ينفكون يسعون الى

الايقاع بهم وبقومهم حتى ينالوا مرامهم وتكون نتيجة التحسين المؤقت الذى ناله أهل الذمة ازدياد الوبال عليهم ، وتضاعف الشقوة .

***

وكانت هذه العامة فى المدن طبقتين : الطبقة الأولى ، المرتزقون بالصناعة والتجارة وهم طائفتان : (١) الصناع أصحاب الصناعات اليدوية كالحدادين والحائكين والخياطين والحلاقين والنجارين والصيادين والخبازين والطحانين ومن جرى مجراهم و (٢) الباعة الذين يبيعون البقل واللحوم وغيرهما من أصناف المأكولات على أنواعها وبعض المنسوجات والسلع الدنيئه ، وهم طوائف كثيرة ، كالزياتين والبقالين والجزارين وباعة الأقمشة الرخيصة والطحين والخضر ونحوها.

أما التجار باعة السلع الثمينة التى تقتضيها الحضارة ، كالمجوهرات والمصوغات والرياش الثمينة والثياب الفاخرة والآنية والرقيق ، والصناع المتفنون كالذين نشروا السكر فى العالم وأنشأوا له المعامل ، وأتقنوا صناعة الورق ، وعمموا استعماله ، وأخرجوا الوشى المذهب والأسرة المرصعة والفسفيساء المفضضة والزجاج المصنوع من حجر ، والساعات الغريبة الصنع ، والآلات المائية وغير المائية المركبة من البكر ، والأنابيب ، والأمخال ، وغيرها للرفع والجر والنقل ؛ هؤلاء جميعهم ، كأهل الفنون الجميلة ، ويسميها العرب « الآداب الرفيعة » — وهى التصوير ، والشعر ، والغناء — وان اعتبروا من العامة ، الا أنهم كانوا أعلى طبقة من الأولين ، وعرفوا فى العصر العباسى — وهو العصر الذى تكونت

فيه طبقتهم — بتعريف خاص بهم . وهو (المقربون من الخاصة) . وسنتكلم عن الخاصة فيما بعد .

والطبقة الثانية من العامة ، الرعاع المرتزقون بالدعارة ، والنهب واللصوصية . وهم أصناف كثيرة نشأت فى بلاد الاسلام لا سيما فى الشرقية منها ، على أثر الفتن والحروب الأهلية والانشقاقات بين أهل الدولة ، التى ذكرناها ؛ وعرفت بأسماء شتى . منها المخنثون والعيارون ، والشطار والصعاليك ، والزواقيل ، والحرافيش وغيرها . وانما انفسح المجال لهم على الأخص عند اضطراب حبل الدولة العباسية ، بعد عصرها الأول .

أما المخنثون — وهم جماعه من أهل الخلاعة — فكانوا فى الحجاز قبل الاسلام . ثم انتشروا فى المدينة بعد الاسلام ، على أثر ظهور اللهو والقصف وكثرة الأموال . وكثيرا ما كانوا يفسدون النساء على أزواجهن ، بتوسطهم بينهن وبين الرجال . وكان أحسن المغنين منهم . فلما انتشر الغناء فى الامبراطورية الاسلاميه ، انتشر المخنثون معه وتكاثروا فى العراق والشام ومصر وسائر المغرب . على أن بعض الخلفاء من مستهجنى فن الغناء ضيقوا ، أحيانا ، تضييقا كبيرا عليهم ؛ ويحكى عن سليمان ابن عبد الملك أنه أمر بهم فخصاهم أجمعين .

وأما باقى صنوف الرعاع الذين ذكرناهم ، فان ظهورهم كان فى غير مصر ، وفى غير الآونة التاريخية التى نحن فى صددها ؛ ولذلك لا يسعنا الا التلميح اليهم دون الاسهاب .

فالعيارون ظهروا ببغداد فى أواخر القرن الثانى للهجرة ، وقاتلوا للأمين — وهم خمسون ألفا وكلهم عراة — جنود المأمون التى حاصرته . فأبلوا بلاء حسنا ، هم ورجال معهم جعلوا فى أعناقهم الجلاجل والصدف الأحمر والأصفر ومقاود ولجما من مكانس ومذاب : كأنما الحرب مولد الفار ، أو نوع من أنواع المسخرة .

ثم تكاثرت تعدياتهم كلما تكاثرت الفتن ، وما زال أمرهم يرتفع وغيهم يتمادى فيه الى أن تسلطوا على بغداد ، وظهروا فى سائر المدن الاسلامية ، وعظم شأنهم ؛ واشتهر من رؤسائهم (الطقطق) و (على الزيبق) بطل القصة المشهورة . وبات الوزراء وأرباب الحل والعقد يخافونهم ، فيقاسمونهم سرقاتهم ويسكتون عنهم ، كما تجرى الأمور فى بعض مدن الولايات المتحدة الأميريكية ، الآن : مما يدل على أن الثمار الفاسدة تكاد تكون واحدة فى مختلف المدنيات .

والشطار طائفة لصوص أخرى كانوا يمتازون بملابس خاصة بهم . ظهروا فى الأندلس ، ثم انتشروا فى المملكة الاسلامية كلها . وكانت لهم نوادر وتنكيتات وتركيبات ، وأخبار تملأ الصحف الكبار لكثرتها ، وتضحك الثكلى ؛ ومن شاخ منهم وتاب ، دخل فى خدمة الدوله العباسية فى شرطتها . فتكونت منهم طائفة قيل لهم (التوابون) — وربما كان (أباش) اليوم أقرب الطوائف الساقطة الحالية الى الشطار .

والصعاليك والزواقيل والحرافيش وغيرهم طوائف لصوص

أخرى مكونة من أشق الخلائق وأحطها أخلاقا ، كان طلاب السلطة يستعينون بهم فى حروبهم بعضهم على بعض ، ويعدون بالألوف . فقد كان مع (أبى دلف) عشرون ألفا من الصعاليك وكانوا أشبه شىء بالقتلة وقطاع الطريق الذين عرفوا باسم البراق فى ايطاليا فى القرن السابع عشر للميلاد ، وورد ذكرهم مفصلا فى كتاب (العريسين المخطوبين) للكاتب الشهير (اسكندر منتزونى) .

وكثيرا ما كان العبيد يدخلون فى معنى هذه الطوائف المتجمهرة للارتزاق بالتعدى على أصحاب المال ؛ وذلك عند ما يأنسون ، من اختلال الأحوال ، وضعف أسيادهم ، وذهاب هيبتهم من قلوبهم ، فرصا سانحة لهم للنهوض مع الناهضين .

وكان أقرب الناس الى انهاض هؤلاء العبيد ، لاسيما السود منهم ، من انتحل لهم دعوة دينية ، كما فعل (صاحب الزنج) فى أواسط القرن الثالث للهجرة فانه قام قرب البصرة باسم الشيعة العلوية ، وكان فى ضواحيها جماعة من العبيد يكسحون السباخ . فدعاهم الى النهوض معه ، على أن يحررهم من الرق ، ويريحهم من التعب . فتبعه منهم مئات الألوف ، واستفحل أمرهم وضربوا أسيادهم بالسياط ، انتقاما من ضرب أسيادهم لهم ؛ وحاربوا الدولة العباسية بضع عشرة سنة ، قتلوا فى أثنائها مليونين وخمسمائة الف نفس من الرجال والنساء والأطفال قتلا تقشعر له الأبدان — فكانت فتنة تعد بجانبها مهزلة ثورة العبيد تحت قيادة (سبرتكس) على الجمهورية الرومانية عقب موت (سيلا) .

* *
*

بيد أننا ، اذا قلنا ان هذه العامة التى ذكرناها ، كانت تكره أهل الذمة على الأخص ، وغير المسلمين على العموم ، لمجرد مخالفتهم لهم فى الدين ، فانا لم نقصد من قولنا هذا ، أن تلك العامة كانت على شىء من الدين أو حسن المعتقد . كلا . بل بالعكس ، فانهم كانوا لا يعرفون من الدين غير اسمه . ولو سئل أحدهم عن اعتقاده لما أحسن جوابا — شأن العامة من الدين فى كل زمان — وكانت بساطتهم وسذاجة أفكارهم مدهشتين ؛ وكان جهلهم فى سائر الأمور عاما .

فيحكى أن معاوية بن أبى سفيان ، قضى على كوفى بأن يسلم الى دمشقى من العامة ناقة ادعى هذا أنها أخذت منه فى صفين ، وأتى بخمسين شاهدا من أمثاله على صحة ادعائه ، فقال الكوفى للأمير : « أصلحك الله ! انه جمل وليس بناقة ! » فاستدعاه معاوية سرا وأعطاه ضعفى ثمن بعيره وبره ، ثم قال له : « أبلغ عليا انى أقابله بمائة ألف ، ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل ! »

وبلغ من أمر العامة فى طاعة معاوية أنه ، عند مسيره بهم الى صفين ، صلى بهم الجمعة فى يوم الأربعاء ، وأنهم ركنوا الى قول عمرو ابن العاص لهم ان عليا هو الذى قتل (عمار بن ياسر) أحد كبار الصحابة ، حين أخرجه لنصرته .

ورفع رجل من عامة بغداد وشاية الى بعض الولاة برجل من علماء الكلام ، زعم أنه يتزندق . فسأله الوالى عن مذهب الرجل ، فقال : «انه مرجىء ، قدرى ، أباضى ، رافضى ، يبغض معاوية بن الخطاب ، الذى قاتل على بن العاص ! »

وكان جماعة من علماء ذلك العصر يجتمعون فى بغداد للمناظرة فى أبى بكر وعمر وعلى ومعاوية ، فيأتى بعض العامة ، فيستمعون . فتصدى أكبرهم لحية ، ذات يوم ، لبعض المباحثين ، وقال له : « كم تطنبون فى على ومعاوية ، وفلان وفلان ؟ » فقال له الرجل : « فما تقول أنت فى على ؟ » قال : « أليس هو أبا فاطمة » قال « ومن هى فاطمة ؟ » قال : « امرأة النبى عليه السلام ، بنت عائشة ، أخت معاوية » .

وهذا الجهل المطبق لا يزال شأن العامة فى كل زمان ومكان . وهم عندنا فى ذات عصرنا هذا لا يميزون النصرانى من اليهودى والمجوسى والرفضى ، ويعتقدون أن كل من لبس برنيطة نصرانيا ، ولو كان يهوديا قحا أو مسلما متغربا ، لأن الدين عندهم باللبس لا بالايمان .

***

على أن العامة فى المدن لم تكن وحدها فى كراهة أهل الذمة ، والعمل على نكايتهم ، بل كان معظم الخاصة يشاركونها فى شعورها ومجهودها ، فى أيام الأمويين ، وبعضها فقط فى أيام العباسيين .

والخاصة ، فى عصر الراشدين والأمويين ، العرب على الاطلاق وكبراؤهم على الأخص . وأما فى عصر العباسيين فخمس طبقات : (١) الخليفة ، (٢) أهله ، (٣) رجال دولته ، (٤) أرباب البيوتات ، (٥) توابع الخاصة .

أما الخليفة ، فكان يعتبر ظل الله على أرضه ، بعد أن اعتبر فى بادىء أمر الخلافة ، ظل نبيه فقط . فكانت أوامره نافذة فى الأموال

والرقاب ، ولو تمشت مع مجرد الأهواء وكان رائدها الجور المحض . ولم يكن للرعية — مهما بلغ أفرادها من التفوق ورفعة الشأن — ما تأمن به بطشه ، الا الثورة عليه : لا دستور يحد سلطته ، ولا شورى تقيد رأيه ، ولا نظم مرعية يلزمه احترامها ؛ وبلغ من اغراق الخلفاء فى الغطرسة والصلف والعسف ، أنهم لم يوقروا المجد ذاته وضربوا باستهانة غريبة الرؤوس المكللة بأبهى أكاليل الغار والمتوجة بأسنى هالات الفخار : فما فعله سليمان بن عبد الملك بن مروان (بمحمد بن القاسم) فاتح السند ، و (وبموسى بن نصير) فاتح الاندلس لا يزال اذا قرىء يدمى القلوب ، واذا سمع يستمطر اللعنات ، كذلك ما فعله المنصور بأبى مسلم والرشيد بآل برمك .

وقد سبق لنا أن تكلمنا كثيرا عما كان للخلفاء العباسيين من شأن فلا نظن أنفسنا محتاجين الى الاسهاب فى موضوعهم .

وأما أهل الخليفة فيهم ، فبنو هاشم . وكانوا أرفع الناس قدرا بعده . ويسمونهم (الأشراف) و (أبناء الملوك) . لهم الرواتب الباهظة ، فضلا عما يحاطون به من نعيم وهدايا ، ولهم المناصب العالية فى الجندية والسياسة ، الا من خافه الخليفة منهم : فاما أسكته بالمال الكثير ، ليلهو بالقصف واللذات عن القيام لطلب الملك ؛ واما عمد الى الفتك به .

وقد خالف الأمويون والعباسيون فى تقليد الأمراء من آل بيتهم المناصب العالية فى الجندية والسياسة — هذا التقليد الذى سنراه باديا بجلاء فى أسماء من تولوا أمارة مصر من أسرتيهم — سيرة السلاطين من

بنى عثمان الذين أخلفوهم على سرير الخلافة والملك ، والذين قضت سياستهم المبنية على الجفاء العائلى والمظنة باستئنائهم سنة اقدام المرتقى منهم سرير الملك على الفتك بجميع اخوته أو على سجنهم سجنا أبديا .

وأما رجال الدولة ، فالوزراء والقواد والكتاب ومن ماثلهم من أرباب المناصب العاليـة . وجلهم من الفرس . وكانوا يختلفون نفوذا وسطوة باختلاف الخلفاء وأخلاقهم . على أن السجية الغالبة على الجميع — الا شواذ قليلة - كانت خنوع المرؤوس منهم لرئيسه ، واستبداد الرئيس بالمرؤوس ، وبالرعية على العموم .

وأما أهل البيوتات ، فالأشراف من غير (الهاشميين) ؛ ومرجع شرفهم الى اتصال حبل قرباهم ، اما عن صحة واما عن مجرد زعم مسلم به ، بالنسب النبوى أو بقريش . وكان الخلفاء يراعون جانبهم ، ويفرضون لهم الأعطية والرواتب ويقدمونهم فى مجالسهم ، الى أن أفضى الأمر الى (المعتصم) ، فقطع رواتبهم فى جملة ما قطعه من أعطيات سائر العرب .

هذه الطبقات من الخاصة كانت ، فى الغالب واقتـداء بالخلفاء ، متسامحة فى شعورها الدينى ، غير متعصبة ، لا تنظر الى الرجال الا من حيث هم ، بقطع النظر عن مذاهبهم وأديانهم .

فالشريف الرضى ، وهو من الدوحة العباسية رثى (أبا اسحق الصابى) بقصيدته المشهورة التى مطلعها :

أرأيت من حملوا على الأعواد ؟ أرأيت كيف خبا ضياء النادى ؟

فلم يقع ذلك موقع الاستحسان عند العامة، وعابه بعضهم لكونه وهو شريف، يرثى صابئا؛ فقال: «انما رثيت فضله!»

***

وأما الطبقة الخامسة من الخاصة، وأعنى بها توابعهم، فكثيرا ما كانت تجارى العامة فى شعورها وانفعالاتها، لأنها، فى الحقيقة، من العامة وانما أخرجتها منها طبقات الخاصة التى ذكرناها، بما خصت رجالها به من أسباب القربى أو الخدمة.

وأتباع الخاصة هؤلاء كانوا أربع طبقات: (١) الجند، (٢) الأعوان (٣) الموالى، (٤) الخدم.

فالجند، بعد عصر الأمويين الأول، فرق كثيرة تختلف أصلا ونظاما، مما لا سبيل الى بيانه هنا. وانما نقول بالاجمال أن منهم من كانوا رجال الخليفة يأتمرون بأمره. ومنهم من كانوا رجالا لبعض الخاصة من الوزراء والعمال، ينفق هؤلاء عليهم من أموالهم، وربما ابتاعوهم غلمانا وربوهم للاستعانة بهم على أعدائهم وقت الحاجة

وقد كان (لريشلييه) وزير (لويس الثالث عشر) حرس خاص به يعرفه قراء روايات (اسكندر ديماس) ويجعلنا لا نستغرب أن يكون وزراء الدولة العباسية قد اختصوا بجنود لا يعرفون غيرهم سيدا.

وأما جند الخليفة، فالغالب على نظامهم أنه كان على كل عشرة منهم عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير؛ وعلى كل الجيش رئيس عام هو أمير الامراء.

وأما جنود الوزراء والعمال، فمتى كثر عددهم قلدوا فى نظامهم

جند الخليفة ؛ ومتى كان عددهم قليلا ، كانوا تحت قيادة نقيب من قبل سيدهم ، يتخذ منهم نوابا عنه بقدر حاجته اليهم ، كما فعل ، فيما بعد ، الأمراء فى ايطاليا ، وكبار القوم مدة الاحتلال الاسبانى فيها ، لما اتخذ كل منهم جندا لأغراضه من فئة (البرافى) السابق لنا ذكرها .

والأعوان خاصة الرجل ورفاقه . فقد كان للخلفاء والأمراء والعمال والأشراف رفاق يصاحبونهم ويجالسونهم ويعيشون فى منازلهم ، ولهم عندهم رواتب شهرية يتقاضونها . فكانوا أشبه شىء ببطانة الملوك والأمراء فى أيامنا هذه .

والموالى قد فصلنا عنهم الكلام فيما سبق .

وأما الخدم . فان أكثرهم كان من الرقيق الأبيض والأسود ، ذكورا واناثا . وقد اصطلحوا على أن يسموا الأرقاء البيض مماليك . والسود عبيدا . وكانوا ينقسمون الى ثلاثة أقسام : الأرقاء ، والخصيان والجوارى .

أما وقد تكلمنا عن الأرقاء ، فانا لا نضيف الى ما قلنا عنهم سوى أن بعض الخلفاء ، وأولهم المعتصم ، أصبحوا يتخذون من مماليكهم جندا يحرسهم ، فيعلمونهم لهذا الغرض ، ضروب الحرب والقتال ، وربما ابتاعوهم فى الأصل ليولوهم ، فيما بعد ، هذه المهمة ، ومن لم يدخل فى زمرة الأجناد ، علم الصنائع اللازمة لتدبير المنزل ، واتخذ منهم الطباخ والخازن والوكيل او النقيب ، والبواب والملاح ، والركابى ؛ ومن كان أصبح الوجه ، مليح القوام اتخذ وصيفا .

وأما الخصيان ، فأول من استخدمهم من العرب يزيد بن معاوية ، اتخذ منهم حاجبا لديوانه اسمه (فتح) . فأدى ذلك الى اقتداء الرؤساء به ؛ ومع أن الشريعة الاسلامية تحرم الخصاء تحريما ؛ الا أن استعمال الخصيان شاع عند المسلمين شيوعا مهلكا ، بعد أن شاع الحجاب بينهم .

فعمد تجار الرقيق - وأكثرهم فى ذلك الزمان من اليهود — الى خصاء بعض الأرقاء وبيعهم بأثمان غالية . ولما رأوا أنها لبضاعة رابحة ، أنشأوا فى الشرق والغرب ، « لاصطناع » الخصيان معامل عديدة — أشهرها معمل (فردين) — فى فرنسا ، كانوا يخصون أولئك المساكين فيها وهم أطفال ، فيموت معظمهم على أثر العملية . ولكن الناجحين منها كانوا يباعون بأثمان باهظة تعوض على التجار أضعاف ما كانوا يفقدونه بموت من لم ينجوا .

تلك كانت حضارة خلت ؛ والحمد لله على ذهابها فى الغرب والشرق على السواء : وأصبح عظماء القوم ، فى البلاد الاسلامية وغيرها ، بتوالى الأزمان ، يتهادون الخصيان ، كما يتهادون الخيل والأثاث أو الآنية . وتكاثر الخصيان فى بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق لحراستهم الخاصة ، وحتى أصبحوا — مع المماليك — زينة كل احتفال يقام فى القصور ، بما كانوا يلبسونهم من الملابس الموشاة بالذهب ، والمحلاة بالجوهر .

***

وأما الجوارى ، فهن — فى الأصل — النساء والبنات المسبيات

فى الحروب ؛ ثم النساء والبنات المشتريات بالمال .

فانه لما تعود الناس اقتناء الجوارى ، اشتغل النخاسون فى استجلابهن من أقاصى البلاد ، صغارا وكبارا ، وفيهن البيضاء والسمراء والحمراء والبربرية والزنجية وهلم جرا . وهن اما مولدات ، ولدن فى بلاد التكلم بالعربية غالب عليها — وكن أثمن الجوارى — واما جلبيات مجلوبات من بلاد العجمة غالبة عليها ، وفيهن النصرانية واليهودية ، والمجوسية والوثنية .

ولما أفضت أحوال المسلمين الى الترف والقصف ، وكثرت فى بلادهم الثروة ، جعلوا يتهادون الجوارى تهادى الخصيان والحلى والجوهر وأخذ كل من أحب التقرب من كبير، أهدى اليه جارية فيها خلة تجعلها مقبولة جدا لديه .

الى مثل هذا الحد تدنأت قيمة الانسان فى الحضارات السالفة ؛ والى مثل هذا الحد انحطت فيها كرامة الأخلاق !

وكثيرا ما كان العمال والأمراء يتقربون الى الخلفاء بأمثال هذه الهدايا . فان (ابن طاهر) مثلا ، أهدى الى الخليفة المتوكل على الله هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف .

وأصبحت الزوجات ذاتها تهدى بعولهن الجوارى ، وتحبب اليهم القرب منهن ، ليستعن بذلك على استبقاء حبهم لهن . كذلك فعلت (زبيدة) مع هرون الرشيد : أهدته عشر جوارى ، منهن (مارية) أم المعتصم و (مراجل) أم المأمون ، لتشغله بهن عن سماع غناء (دنانير) جارية جعفر البرمكى ، وكان الرشيد قد ألفها ، ووهبها هبات سنية .

واقتدت زبيدة ، فى القرن الثامن عشر ، مدام دى پمبادرو حظية (لويس الخامس عشر) ملك فرنسا ؛ ولكن اقتداء أفظع من الأصل . فانها كانت تحضر الى ذلك الملك المفسود الأخلاق مئات من جميلات الفتيات ، تحتال على اقتناصهن برجال من بطانتها ، ومعظمهن فوق البلوغ بقليل ، وتقدمهن الى خليلها فيما عرف باسم «حديقة الظبا» لتستبقى لنفسها ، بذلك ، منزلتها لديه ! ومتى فسدت أخلاق العظماء فى البلاد الخاضعه لسلطة استبدادية ، فقل على الانسانية وفضائلها الحقة ، السلام ! الا ماندر ! .

واتخذ بعضهم تعليم الجوارى وتربيتهن بابا للكسب الواسع . فكانوا يذهبون الى دار الرقيق ، ويبتاعون الجوارى اللواتى يتوسمون فيهن الذكاء فيثقفوهن ويروونهن الأشعار ، أو يلقنونهن الغناء ، أو يحفظونهن القرآن ، أو يعلمونهن الأدب أوالنحو أو العروض ، أو فنا من الفنون المنزلية ؛ ثم يبيعونهن فيكسبون بذلك خمسة أو ستة أضعاف ما صرفوا ؛ أو يهدونهن الى الخليفة ، أو الوزير ، أو الأمير ، فيصبحن وسيلاتهم لديه فى نفوذ كلمتهم عنده .

فتعددت الجوارى فى دور الكبراء ، وتسابق أهل الترف الى التفنن فى تزيينهن .

وطبيعى فى ربات الجمال والحسن أن يكن نافذات الكلمة ، وأن يتسلطن على ألباب الضعفاء من الرجال . (فحبابة) لعبت بعقل يزيد بن عبد الملك الأموى أكثر مما تلعب الخمر بالرؤوس ؛ و (ذات الخال)

ملكت قياد الرشيد الى حد أنه حلف يوما — كهيرودس لابنة هيروديا على رواية الانجيل — أنها لا تسأله شيئا في يومه ذاك الاقضاه لها . فسألته أن يولى (حمويه) الحرب والخراج بفارس سبع سنين . ففعل ، وشرط على ولى عهده أن يتمها له ، ان لم تتم فى حياته ! — ولعل حمويه هو من وهب الرشيد ذات الخال !

وكثيرا ما انشغل الخلفاء والأمراء عن رعاية الملك بالجوارى الحسان ؛ لا سيما المغنيات . لذلك كان رجال الحيلة يستخدمونهن للجاسوسية ، أو نيل رتبة أو منصب . فالمأمون كان يدس الوصائف هدية ليطلعنه على أخبار من شاء : وقد فعل فعله (الخديو اسماعيل) فيما يكاد يعاصر أيامنا ! ولذلك كان أرباب الدهاء من الخلفاء والأمراء يتباعدون عن الجوارى اذا أهدين الى أحدهم ، لا سيما مؤسسو الدول كمعاوية والمنصور وغيرهما .

على أن حياة الجوارى ، رغم جميع مظاهر العظمة والدلال الساطعة حولهن ، كانت فى غالب الأحايين شقية تعسة . فكم أخفت من قهر وغم وألم وعذاب جدران تلك القصور الذهبيـة التى كانت الجوارى سجينات فيها يبكين حريتهن المفقودة ، وكرامتهن الضائعة !

ومن جهة أخرى ، فان تهافت الرجال على فراشهن قد أدى ، نهاية الأمر ، الى انفكاك عرى الفضائل فى الزوجات ، وفساد الدم فى عروق الذرارى . وان المؤرخ المحقق ، اذا استند الى هذه النظرية ، لا يتعب فى الاهتداء الى سبب ارتخاء مفاصل جميع الدول الاسلامية

الكبرى ، التي قامت في الشرق والغرب بعد مضي قرنين ، بالأكثر على قيامها .

فالأمويون فقدوا مزايا جدودهم بعد بضع وخمسين سنة من تأسيس دولتهم . والعباسيون أضاعوا خلال أجدادهم بعد بضع وستين سنة من قيام أمرهم على أنقاض الدولة الأموية . وأمويو اسبانيا لم يحافظوا أكثر من قرنين على سجايا جدهم (عبد الرحمن الداخل) ، صقر (قريش) ؛ وأما فاطميو مصر ، فلم يحافظوا الا بضع وستين سنة على فضائل الرجولة التي مكنت مؤسسهم (المعز لدين الله) من اقامة دولتهم في قطرنا هذا .

وبنو عثمان ، منذ أن أخذوا في الاكثار من السراري ، لم يمض عليهم الا نيف ومائة سنة ، وباتوا أشباح ما كانوا .

وانما ذلك نتيجة طبيعية لعدم العمل بالحديث المشهور ، سواء أكان موضوعا أم صحيحا : « تخيروا لنطفكم : فان العرق دساس ! » فالأولاد يأخذون عن أمهاتهم بقدر ما يأخذون عن آبائهم ، ان لم يكن أكثر . وقلما تحفظ الجوارى ، أو يستطعن أن يحفظن ، في أفئدتهن ، في وسط ذلهن ومهانتهن ، وقصفهن ، كرامة نفوس ونبالة أخلاق .

أما ضياع الفضائل في الزوجات ، فأمر يتضح جليا من مقارنة بسيطة بين حال المرأة في الجاهلية ، وحالها بعد أن زاحمتها الجوارى على فراش زوجها . فالمرأة ، في الجاهلية ، كانت عظيمة الشأن ، عفيفة النفس ، مستقلة الفكر ، أبية الضيم ، مترفعة عن ارتكاب الدنايا ؛

صاحبة أنفة ورأى وحزم تشارك زوجها فى جميع أطوار حياته ، وتصحبه ، بالرغم من تعرضها لأشد الأخطار ، الى ميادين القتال ، تداوى الجرحى ، وتحمل قرب الماء لتسق العطشى ، وتشجع على البسالة والاقدام ، وكثيرا ما تخوض المعمعة و تقاتل بجانب بعلها قتال الأبطال . نرى جميع هذا متجليا خير تجل فيمن بلغتنا الانباء عنهن من نساء صدر الاسلام ، والفترة التى سبقته بقليل .

فلما أتى الاسلام ، زاد ، فى بادىء أمره ، تلك المناقب رونقا وجمالا ، كما أنه زاد فى رونق وجمال مناقب الرجال ، وهى : النجدة ، والوفاء والجوار ، والكرم ، والشجاعة ، والأريحية ، والعفة ، والاباء ؛ ووجه قوى المرأة الى سداد الرأى ومزاولة الأدب والشعر ، مع بقائها على خصال الجاهلية الحميدة . (فعائشة بنت طلحة) — وكانت مفرطة الجمال — و (سكينة بنت الحسين) — ودعيت هى وعائشة بنت طلحة معاصرتها : (عقيلتى قريش) — و (أسماء بنت أبى بكر) المعروفة (بذات النطاقين) و (ليلى الأخيلية) ، و (الخنساء) و (عمرة الجمحية) كلهن نساء كن قلادة سنية فى جيد الزمان وتاجا متلألئا على رأس الاسلام

ولكن كثرة التزوج والتسرى ما لبثت ، منذ عهد الراشدين أنفسهم ، أن أخذت تبدل طباع المرأة وتقلقل قواعد عفتها : فالنبى (صلعم) ، لأسباب سياسية واجتماعية وتشريعية لا محل لذكرها هنا ، عقد ، فى حياته ، على ثلاث عشرة امرأة ؛ منهن تسع مات عنهن ، أى أنهن كن زوجاته فى آن واحد . وتسرى ، فوقهن ، بواحدة هى مارية القبطية .

وأبو بكر تزوج أربعا ؛ وعمر تزوج ثمانى فارق منهن اثنتين ، فى هدنة (الحديبية) ، وطلق واحدة ؛ وعثمان تزوج ثمانى أيضا ، وتوفى وعنده أربع ؛ وعلى تزوج تسعا ، وكانت له أمهات أولاد شتى ؛ فهو أول خليفة أكثر من السرارى ؛ وكان ، فى ذلك ، قدوة لمن جاء بعده و (الحسن) ابنه أكثر من الزواج والطلاق الى حد ضج معه العرب أنفسهم فى أيامه ؛ وذلك ، فوق ما كان له من السرارى العديدة . ومعاوية بن أبى سفيان تزوج أربعا فقط . طلق منهن واحدة ومات عن اثنتين . ونكتفى بذكر هؤلاء عن ذكر ما كان عليه من تعدد الزوجات وكثرة السرارى كبار الرجال فى عهد الراشدين كعمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وسعد بن أبى وقاص ، والمغيرة بن شعبة ، وعبد الرحمن ابن عوف ، والزبير بن العوام وغيرهم عديدين .

وما لبث عهد الأمويين بما زاد من تكاثر الجوارى والغلمان فيه وانتشار المخنثين ، وتغير خلال العفة والاباء فى الرجال أن عبث بعفة النساء المقلقلة ، وبكثير من أخلاقهن الحميدة .

فلما أتى العصر العباسى ، وكانت الجوارى قد أصبحت طوفانا ، وقد شاع تسرى الرجال بهن شيوعا عاما ، وذهبت الغيرة من قلوبهم حتى صاروا يتهادون بهن ، انحطت المرأة ، وذهبت عزة نفسها ، وضاع استقلال فكرها ، وفقدت عفتها واباءها . فاحتقرها الرجل وأساء الظن بها ؛ وأخذ يوصى بعدم الركون اليها ، ويقفل عليها النوافذ ويوصد الأبواب ، ويسد فى وجهها الطرق والمسالك ، ويمنعها من

الخروج ، لئلا يرى قوامها ! ومن الكلام ، لئلا يسمع صوتها ؛ ويتحاشى ذكرها ؛ ويأبى أن تذكر أمامه الا بعبارات مبهمة لا تحضر شخصها الى ذكر السامع .

وزاد الطين بلة ما أدخلته أخلاق الفرس ، من التضييق على تربية النساء وما أحاطتهن به عقليتهم وغيرتهم من الريب المتفاقة والتحفظ البالغ ، فى الحياة الاجتماعية الاسلامية .

فتطرف المسلمون فى ذلك تطرفا ازداد شدة كلما ازداد بعد رجالهم عن جادة الفضائل . وأخذوا يطعنون فى طباع المرأة وسوء سريرتها ، وينظمون فى ذلك الشعر ، ويضعون الأحاديث والروايات . فزاد جميع هـذا في انحلال العائلات ، وكان ضغثا على ابالة .

والابالة التسرى ، وتعددالزوجات وشيوع الطلاق .

أما التسرى ، فلا مشاحة فى أنه عنوان استسلام الرجل الى شهوات الجسد . وهي شهوات اذا استسلم المرء اليهاواندفع مع تيارها ، أضعفت قوى جسمه ، وانهكت قوى عقله . فالرجل العفوف عن لذة الجسد هو الرجل القوى ، حقا . ونحن لا ندرى كيف أمكن عقليتنا الشرقية ألا تعتبر الشراهة فى الجماع عيبا فى الانسان ورذيلة ممقوتة كالشراهة فى الأكل والشرب ؛ وأن تعتقد أن الفضل كل الفضل ، والزهد كل الزهد ، والتقشف كل التقشف فى الامساك عن التنعم فى المأكل والمشرب والمرقد والملبس أي فى الاكتفاء بالقليل من اللبن والتمر ، والخبز الأسود اليابس ، والثوب المرقع والفرش الخشن ، مع الاغراق

والنهمة فى التمتع بالنساء ، من جهة ، والاستسلام الى عوامل الانتقام والأخذ بالثأر ، من جهة أخرى ؛ مع أن الفضل لا يصح أن يكون الا على قدر المجهود فى مقاومة الشهوة ؛ والزهد على قدر عظم اللذة المرغوب عنها والتقشف على قدر وطأة المهجور من النعيم على النفس . ولاجدال فى أن الانسان لا يحتاج فى مقاومة شهوة الاكل الطيب والمشروب اللذيذ والثوب الجميل والفراش الوثير، الى عشر جهده فى مقاومة شهوة الجسد وحب الانتقام ؛ وأن لذة الجماع ونشوة الأخذ بالثأر لاعظم عنده من كل لذة ونشوة سواهما الا نادرا

وقد كان من أسوأ نتائج هذه العقلية الغريبة عندنا ، نحن الشرقيين أن مزية تقدير الفضائل والرذائل البشرية ضعفت فينا ضعفا محزنا مخجلا ، واننا بتنا لا نميز الا قليلا بين الغث والسمين من مزايا الرجولة الحقة ، والفضل الصحيح . وكان ذلك من أكبر أسباب انحطاطنا .

واننا مادمنا لا نفهم أن التسرى — وقد قام مقامه فى الحضارة الحالية ، وياللأسف الفحش الرسمى — لمن أكبر العيوب والنقائص الفردية والاجتماعية ، وان الاستسلام اليه والانهماك فيه لذاهبان فى أغلب الاحيان بالرجولة والمروءة فانه لا يرجى لقوميتنا نهوض

***

أما تعدد الزوجات ، فان لم يكن له من بعض الظروف الشخصية والاجتماعية مبرر ، وكانت رغبة التلذذ بالجماع هى الداعية الوحيدة اليه ،

لهو من باب التسرى ؛ وهو كالتسرى ، رذيلة فردية واجتماعية ضارة .

وانما يبرره من الظروف الشخصية ، الرغبة فى الاولاد ، عندعدم وجودهم ؛ أو الرغبة فى أن يكثروا ، عند الاحتياج الى كثرتهم أو مرض فى الزوج يمنع عن أداء واجبات الزوجية ، مع بقاء الرغبة فى التمسك بوثاقها .

ويبرره من الظروف الاجتماعية ، زيادة النساء على الرجال زيادة بينة ؛ أو احتياج القوم الى أن يكثر فيهم الرجال ليتقوا بعددهم عدد الرجال المتزايد ، فى قوم يعادونهم – ولو أن الاكثار من النسل بالتزاوج المبكر قد يكون وسيلة أنجع – أو احتياج بلاد واسعة الأرجاء الى أذرعة كثيرة تعمل فيها لاستغلال ثروتها ، اذا تعذر ايجاد تلك الأذرعة بوسيلة أخرى ؛ وهلم جرا مما يشابه ذلك

***

وأما الطلاق ، فان لم يكن للقضاء على حالة منزلية يضر بقاؤها بأخلاق الأولاد ويحول دون تربيتهم تربية حسنة ، أى كما توجبها روح العصر ومقتضيات الأيام أو لعقم فى ائتلاف الزوجين ؛ وكان الغرض الأصلى منه الميل مع الشهوة وحب التنقل من فراش الى فراش ، فانه هو أيضا عيب ونقيصة فردية واجتماعية مرذولة (١)

على أن تعدد الزوجات والطلاق كانا قد شاعا فى الدولة العربية ،

(١) لذلك كان الاصلاح الذى أدخله الغازى مصطفى كمال باشا على الحياة الاجتماعية التركية بتحظير تعدد الزوجات وبتقييد الطلاق ، اصلاحا خطيرا ، سيكون له فى مستقبل الأمة التركية أعمق الاثر .

شيوعا هائلا ، وقلما كانا مبنيين ، لا سيما فى عهد العباسيين ، على سبب من الاسباب التى تبرر وجودهما .

فان احتاج العرب فى بادىء دولتهم ، وفى عهد الأمويين ، لما اتسعت أمامهم دائرة الفتوح ، وباتوا أقلية فى وسط الأمم التى أخضعوها الى الاكثار من التزوج ليكثروا جنسهم ، ويقووا مراكزهم بعديد الرجال ؛ وان سلمنا أنهم احتاجوا ، فى أوائلهم ، الى الطلاق لقلة استئناسهم ، فى بعض أزواجهم ، بيئة صالحة لنمو أولادهم على المبادىء المطلوبة لبقاء دولتهم ، فان الأحوال ، فى عهد العباسيين ، كانت قد تغيرت كلية ؛ ولم يبق من موجب لتعدد الزوجات ، وشيوع الطلاق الا ضعف النفوس أمام سلطة الهوى ، وميلها الى اشباعه ، فأدى هذا الضعف وهذا الميل ، اذن ، الى انحلال العائلات ، وضياع عصبتها ، وكانت المضار الناجمة عن ذلك أبلغ بالنسبة لانحدار النفوس وضياع قوة الأجسام .

أما النفوس ، فانحطت مذ فقدت الفضائل والمناقب التى مكنت العرب ، بعد اعتناقهم الاسلام دينا ، من البلوغ الى أوج كل عظمة بشرية دنيوية . وأما الأجسام فضعفت ، مذ تغير عليها المسكن والغذاء والملبس ، وحل منها الترف والكسل محل شظف العيش والرياضة .

* * *

والسبب فى أن النفوس تجردت من الفضائل والمناقب الحميدة هو أن الأمويين احتاجوا ، فى توطيد سلطانهم ، الى الغدر والفتك :

فأضاعوا الوفاء ؛ والى تقييد الأفكار والألسنة : فأضاعوا استقلال الضمير ، وحرية القول ، وعودوا الناس التمويه ، والرياء والسكوت عن الحق ؛ واحتاجوا ، فى تأليف القلوب على ودهم ، الى استرضاء العامة بالطعام ، اقتداء بملوك الفرس السابقين ، والأمبراطرة الرومانيين ، فكانوا ينصبون الموائد على الطرق فى الصباح والمساء ؛ ويدعون الى الأكل كل من شاء من العامة . وكان الحجاج يضع فى كل يوم من أيام رمضان ألف خوان ، وفى سائر الأيام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشرة أنفس وعشرة ألوان ، وسمكة مشوية طرية ، وأرزة بسكر . وكان يدور ، هو بنفسه على الموائد يتفقدها ، يحملونه اليها فى محفة ، وينتقلون به من خوان الى خوان . فاذا رأى أرزة ليس عليها سكر أمر الخباز أن يجيء بسكرها ، فاذا أبطأ حتى أكلت الارزة بلا سكر ، أمر به فضرب مائتى سوط .

وكذلك كان يفعل عمال الحجاج فى سائر المدن . فكان بعضهم ينصب الموائد ، مرتين ، فى اليوم للغذاء والعشاء فيجتمع عليها الألوف من العوام . وكان (يوسف بن عمر) عامل هشام بن عبد الملك ، الذى أسلم الوليد الثانى الى يده خالد القسرى ففعل به ما فعل ، ينصب خمسمائة خوان ؛ و (يزيد بن هبيرة) يضع ألف خوان لاطعام الناس .

وسنرى أن (ابن طولون) بمصر كان يفعل ، أيضا ، مثل ذلك ؛ وأن موائده الجامعة كان يحضرها الخاص والعام .

فأدى ذلك الى ضياع الهمة ، والنشاط ، والاقدام ، وإلى اعتياد

الناس الكسل وضعة النفس ، المتولدة حتما فى فؤاد الطفيلى والسائل ، وأدى الى أن الأصاغر – لما هانت عليهم نفوسهم – باتوا يرون تقدمة الهدايا الى الأمراء واجبة . فصاروا ، اذا ما ولى عليهم وال جديد ودخل بلدهم ، يرسلون اليه الأموال والجوارى والدواب والثياب ؛ وهو يبعث بجانب عظيم منها الى من ولاه . فاذا أمسك عن ارسالها ، سنة ، عد متمردا .

واحتاج الأمويون – هم والعباسيون بعدهم – الى بذل الأموال لاصطناع الخاصة والرؤساء والموظفين : فأضاعوا زهد العرب أولا ، فالمسلمين قاطبة ، فى الدنيا ؛ وجعلوهم يعملون لها فقط ، ولا يعملون شيئا لآخرتهم ؛ مع أن رغبة العرب عن الدنيا ، ورغبتهم فى الآخرة كانتا ، فى بدء الاسلام ، خير مايخيفون به أعداءهم ويسقطون نفوسهم ويقعدونها به عن قتالهم .

ثم احتاج العباسيون ، فى نشر دعوتهم وسعيهم الى اغتصاب الدولة من الأمويين ، الى الأخذ بالظنة ، والقتل على التهمة : فأضاعوا النجدة والجوار ؛ واحتاجوا ، فى توطيد دعائم سلطتهم ازاء مطامع الطامعين فى اغتصابها منهم ، الى استعمال سياسة التقسيم والتفريق ، وبث الجواسيس ، واتخاذ أقرب أقارب الرجال عيونا عليهم : فأضاعوا العصبية والقومية ، وأوجدوا روح المداهنة والمجاملة الكاذبة . وأدى التسرى ، بما حط من شأن المرأة ، بما حول من فكر الرجل عن خطوبة اعجابها به ، الى فقدان تلك الأريحية التى كانت تحمل العرب على أن يعرضوا بأنفسهم للموت ، رغبة فى حسن الأحدوثة عند

النساء ، كما فعل (عيسى بن مصعب بن الزبير) وهو مع أبيه فى مقاتلة محمد بن مروان ، فى العراق سنة ٧١ ، اذ تحقق مصعب أنه مقتول فأوعز الى عيسى ابنه أن يطلب النجاة ، فقال : « والله ! لا تتحدث نساء قريش أنى خذلتك ، ورغبت فى نفسى عنك ! » — هكذا حمل الاسكندر على العظائم شخوص عينيه دائما الى ما يقوله عنه الاثينيون !

* * *

وأما السبب فى تغيير المسكن والغذاء والملبس وفى الاتراف ، فأخذ العرب منذ أيام بنى أمية بأطراف الحضارة التى وجدوها فى العراق وفارس وسوريا ومصر ، واغراقهم فيها فى أيام بنى العباس.

فقد كان طعام أهل اليسار منهم ، قبل الاسلام ، قاصرا على الألبان وما يستخرج منها ، وعلى التمر والحبوب ، ولحوم الابل والضأن ، يأكلونها سلقا أوشيا .

وأما طعام أهل الفاقة ، فالضب والجراد والخنافس والعقارب والعلهز ، وهو وبر الابل يمهّونه بالحجارة فى الدم ويطبخونه [1] ؛ وربما أكلوا القرافة ونحاتة القرون والأظلاف والمناسب من برادتها ، أو القرة - وهى الدقيق المختلط بالشعر ؛ وكانوا اذا عطشوا ولم يجدوا ماء شربوا القظ (وهو عصارة الفرث) أو المجدوح (وهو دم الابل) وليس بعد هذا شظف فى العيش . ويجانب مثل هذه القناعة بل هذه الفاقة فى الأكل والشرب يعد تقشف السبرتيين المشهور ترفا وافراطا فى التنعم .

---

(١) ابن خلدون ج ١ ص ١٧٠ — كتاب البخلاء ص ١٨٣

فوقعوا ، ابان الفتوح على ألوان من الأطعمة لم يعرفوها . فظنوا الكافور ملحا ، وخبز الرقاق رقاعا يكتب عليها ، والأرز طعاما مسموما . ولكنهم ما لبثوا أن تعرفوا جميع أطعمة الفرس والروم ، وأخذوها عنهم . فأكلوا « السكباج » وهو نوع من المرق كانوا يصنعونه من مرق اللحم والخل ، ويضعون فيه اللحوم المطبوخة ، ويسمونه سيد المرق ، « والفالوزج » و « اللوزينج » وهو نوع من الحلوى يحشى باللوز والسكر والجوزاب والخشاف والجلاب . وتفننوا بمعالجة اللحوم بالألبان والخضر ، والتوابل ، على أساليب شتى . وأقام ملوكهم الأطباء أمامهم ، وهم يأكلون ، وفى أيديهم من المشروب الموافق للفصل ما يساعد على الهضم .

ولا يخفى أن التأنق فى الأكل والشرب يورث أمراضا عدة أهمها القولنج والنقرس ، وهما مرضا الأغنياء المترفين .

* * *

وكان لباس العرب ، قبل الاسلام بسيطا كسائر طرق معاشهم ، وكما هو الآن فى عرب البادية ؛ وهو القميص ، والحلة والازار والشملة والعباءة والعمامة ، وكلها من القطن أو الصوف . وكانت ثيابهم على الاجمال ، قصيرة الى أسفل الركب . ولم يكونوا يعرفون السراويل ولا الأقبية .

أما النعال والخفاف فلم يكن يلبسها الا أخص الخاصة . وكانوا يعلقون سيوفهم على عواتقهم . فلما ارتقوا فى عصر عثمان والأمويين

بعده ، لبسوا الحرير على أنواعه ؛ وتفننوا بأنواع الأنسجة ، وأحبوا الوشى ، وأكثروا من لبسه ، واتخذوا كثيرا من ألبسة الروم والفرس. فلبسوا الدراريع السود والطيالس ، والأقبية الديباجية ، والخفاف الساذجة . ولكنهم ، لرغبتهم في المحافظة على البداوة ، ظلوا يلبسون العمائم ، ويعلقون السيوف على العواتق .

فلما أفضت الخلافة الى العباسيين ، واستسلموا للفرس ، قلدوهم بالألبسة ، وجعلوا ذلك بأمر رسمى من أوائل دولتهم . فأمر المنصور رجاله سنة ١٥٣ أن يلبسوا القلانس الفارسية الطويلة تدعم بعيدان من داخلها ، بدل العمائم ؛ أو يعتموا فوقها بعمامة صغيرة [١] وأن يعلقوا السيوف فى أوساطهم ، وأن يكون اللباس الأسود عاما فيهم (لأنه شعار العباسيين ، كما كان البياض شعار الأمويين ، والأخضر شعار العلويين) . فأصبح لا بد للداخل على الخليفة العباسى من لبس جبة سوداء يسمونها « السواد » تغطى سائر الثياب . وألبسهم المنصور دراريع كتب على ظهورها « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ! » وبعث الى عماله فى سائر الأقطار أن يأمروا رجالهم بمثل ذلك : ولعله كان من قبيل التفاؤل .

فاقبلت الخاصة ، منذ ذلك الحين ، على لبس الأقبية والسراويل والطيالسة والخفاف والجوارب من خز وابريسم ،وديباج ، أو بز وكتان واودارى وغيره وأما ألبسة العامة من العرب ، وألبسة عامة القبط

(١) ولست أدرى هل أثار أمره هذا عاصفة اجتماعية كالتى أثارها عندنا النزاع بين العمامة والطربوش والنزاع بينهما وبين القبعة فى تركيا فى أيامنا هذه ، أو لم يثر

بمصر ، فبقيت على ما كانت عليه .

ثم اختصت كل طائفة أو طبقة بلبس خاص يميزها عن سواها فالفقهاء والعلماء كانوا يلبسون عمامة سوداء ، ومبطنة ، لها شكل خاص وطيلسان أسود ؛ والقضاة يلبسون القلانس الطوال والطيالسة الرقاق.

وأما عامة الناس ، فان أشكال ألبستهم كانت مختلفة باختلاف صنائعهم وأحوالهم وطبقاتهم ، واختلاف الأصقاع . ولكنها بالاجمال كانت العمامة والدراعة والسراويل والقميص والقباء والجبة والنعال ، على نحو لباس المشايخ الآن .

على أن الخاصة كان لها — غير الملابس الرسمية أو العادية التى ذكرناها — ألبسة أخرى لمجالس الأنس والشراب يسمونها « ثياب المنادمة » — كما أن لخاصتنا اليوم ألبسة للسهرات والمراقص والحفلات الرسمية وليالى التمثيل — « وأثواب المنادمة » أثواب مصبغة بالألوان الزاهية كالأحمر أو الأصفر أوالأخضر ، يصقلونها حتى تلمع وتشرق ويضمخونها بالخلوق والطيب . وكان لهم ، فضلا عنها ، البسة يتخففون بها فى منازلهم — كجلابيبنا وبيجاماتنا الآن — وأخرى يلبسونها فى الأسفار ، كواقيات ثيابنا من العثير ، اليوم .

وكانوا يستحسنون الخضاب بالحناء للحمرة ، وبالزعفران للصفرة ، فضلا عن الخضاب الأسود ؛ ويبيضون شعرهم بالكبريت ، كما يبضها بالبدرة أهل القرن الثامن عشر .

***

وكان العرب ، قبل الاسلام ، أهل خيام ، يحملون منازلهم على

ظهورهم ، الا من أقام منهم فى المدن .

فلما فتحوا الأمصار ، تحاشوا سكنى المدن ، ونصبوا مضاربهم فى ضواحيها ، كجيش احتلال ؛ أو بنوا بيوتا من البوص والقصب معسكرا لهم . فاذا احترقت استأذنوا الخليفة ببنائها بالحجارة .

ولكنهم ما لبثوا أن تحضروا ، فحولوا معسكراتهم الى مدن عامرة ونزلوا المدن القديمة التى فتحوها ، وبنوا المنازل والقصور ، على ما سبق لنا بيانه فى الكلام عن آثارهم بمصر . واستمر بناؤهم بيزنطيا عربيا طول مدة حكمهم .

وبعد أن كانوا ، فى بادىء أمرهم ، يجلسون على الأرض كالنبى (صلعم) وأبى بكر ، وعمر [1] فى حجر لا فرش فيها ، أصبحوا ، لما تحضروا ، يجلسون على أسرة من الذهب والعاج ، ويتخذون المقاعد والنمارق والكراسى ، وينصبون منائر الذهب ، فيوقدون فيها الشموع من العنبر ، ويكثرون من اقتناء الفرش الوثير والرياش الفاخر ، والستائر المطرزة الموشاة المصنوعة فى مصر ، ويفرشون البسط والطنافس المزركشة برسومات مما فى البر والبحر ، والمطرزة الحواشى بأبيات من الشعر ، وأحيانا بقصيدة برمتها ؛ ويفرشون الحصر المنسوجة بالذهب المكللة بالدر والياقوت ؛ ويقتنون أوانى الذهب والفضة والزجاج الرقيق الصافى ، وينقشون عليها الأشعار والحكم ؛ ويتغالون في الاستحواز على المجوهرات والحجارة الكريمة ، كالدر والياقوت

(١) كان عمرو بن العاص يستقبل ، وهو جالس على الارض ، المقوقس ، وهذا يأتيه محمولا على سرير من ذهب لجلوسه عليه .

على ألوانه المختلفة ، والزمرد والماس والفيروز والمرجان والعقيق . (فالوليد بن اليزيد) كان عنده من عقود الجوهر ما يغير تقلده كل يوم . كما يغير ثيابه . و (الرشيد) اشترى فص ياقوت أحمر بأربعين ألف دينار . — وكان قديما ، ويعرف بالجبل — ونقش عليه اسمه . واشترى فصا آخر بمائة وعشرين ألف درهم . وعرض أحد تجار المصوغات ببغداد على (يحي بن خالد) البرمكى سفط جوهر ، فساومه على ثمنه بسبعة ملايين درهم.

ولاعجب اذا رافق مثل هذا التأنق فى المأكل والملبس المسكن ومثل هذا الترف فى المعيشة ، تأنق مثله ، واغراق فى الشرب والسكر والتهتك .

فالمسكر كان شائعا ، قبل الاسلام ، فى الشام والعراق وفارس ومصر وجزيرة العرب . فلما حرمه الاسلام اضطروا ، لتنفيذ الأمر بمنعه ، الى جلد من شربه أو حبسه ، أو حلق رأسه ولحيته وشواربه ، أوقطع العطاء عنه . . . . الخ .

ولكن اختلاط المسلمين بأهل البلاد المفتوحة ، عودهم المسكرات حتى شربها جماعة من الصحابة وابنائهم ، كخالد بن الوليد وضرار ، وكالوليد بن عقبة ، ويزيد بن معاوية ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأخويه عبد الرحمن وعاصم ، والعباس بن عبد الله بن عباس ، وقدامة بن مظعون ، وعبد العزيز بن مروان وغيرهم

وساعد على نشر الخمر بينهم اقدام بعض الخلفاء الأمويين على شربها ؛ وأولهم (يزيد بن معاوية) ، (فعبد الملك بن مروان) ، (فيزيد بن عبد الملك) ، (والوليد بن يزيد) ؛ وهذا أول من وصف الخمر وتغزل بها .

وبلغ من تهتكه بها أن نفسه حدثته بأن يسكر فوق الكعبة

على أن رجال الحكومة كانوا يشددون فى منعها ، ويحدون شاربيها . ولكن ذلك لم يمنع من رواج سوقها ، لاشتغال الناس بالغناء والجوارى ، وما زال شعور استنكارها يضعف فى النفوس ، حتى أخذ الخلفاء والكبراء يشربونها جهارا . فتفتقت أذهان بعض المتملقين من الفقهاء ؛ فعمدوا الى انتحال المسوغات لشربها ، والبحث فى الفرق بين أنواعها ، ليميزوا بين المحلل والمحرم منها . فأحلوا النبيذ وحرموا الخمر . والنبيذ عصير العنب والتمر والزبيب والتفاح والمشمش والذرة ، أو منقوعها ؛ فاذا اختمر قيل له خمر .

وكانوا ، اذا أقبلوا على شربه ، صفوه وتناولوه بالأقداح الكبيرة . ويكثرون من تناوله ، حتى لقد يشربون منه أرطالا ، كما تشرب اليوم البيرة (الجعة) فيسكرون ويعربدون ؛ وربما أتوا فى سكرهم بما لا يأتيه غير المجانين ، كأن يصلوا عراة ، وهم يأتمون بامرأة ، وليس عليها من اللباس سوى قميصها ؛ فمتى سجدت بانت كل عورتها ؛ وكأن يصرخ سيد المجلس فى ندمائه (كالأمين) : « من منكم حمارى ؟ » فيقول كل واحد ، « أنا » فيركبهم الواحد بعد الآخر ، ويصلهم ونحو ذلك

ومن الناس من كان يتظاهر بنبذ النبيذ من بيته ، ويشربه عند اخوانه ؛ وآخرون كانوا يتناولونه فى الحانات ، وكانت كثيرة ؛ وأكثر أصحابها من اليهود والنصارى ، كما أن أكثر أصحاب الحانات عندنا ، اليوم ، من الأروام .

وأمة يكثر فيها السكر يكثر فيها التهتك . فلا غرو اذا تفشت الفحشاء فى الدولة الاسلامية ، فى عهد العباسيين ، بالرغم من كثرة السرارى وتعدد الزوجات ، وكثرة الطلاق ، بل ربما بسبب ذلك . وتفنن أمراء التهتك فى ترويج سوقه . فكانوا يصورون النساء على جدران الحمامات ، كما كان أهل القصف من الاغنياء يصورون حظاياهم على جدران منازلهم

وكان (الهادى) ، و (الرشيد) ، و (الأمين) ، و (المأمون) ، و (المعتصم) و (الواثق) ، و (المتوكل) ، من بنى العباس ، أكثر خلفاء دولتهم رغبة فى النبيذ وما تجره من خلاعة ؛ وكان (المنصور) ، و (المهتدى) ، أكثرهم نفورا منها .

ومجالس الشراب ، والخلاعة ، والغناء ، من عادتها أن تجعل فى النفوس ابتهاجا وحبورا ، وأن تلطف من الشعور ، الا اذا انقلبت الى مجالس سكر محض : فقد تؤدى الى الاقدام على أفظع الآثام : لأن السكر يظهر حقيقة الطوايا .

لذلك كان معظم الخلفاء الذين لا يكرهون شرب النبيذ واستماع الغناء أسخياء جوادين ، قليلى الأذى لرعاياهم الا فى ساعات غضبهم ، اذا كانوا من ذوى العقول الراجحة ، كالرشيد والمأمون ؛ أو لدى تسلط الغباوة عليهم اذا كانوا من الضيق الفكر ، المظلمى العقل كالمتوكل .

والسخاء المنقبة الوحيدة من مناقب العرب القدماء التى بقيت حتى بعد ضياع العصبية والقومية العربيتين .

فالخلفاء الراشدون كانوا يفرقون بين الناس كل المغانم والأموال

التى يصيبها العرب فى فتوحاتهم ، لا يختزنون منها شيئا لأنفسهم ، الا (عثمان) ولكن الأمويين لم يكن يهمهم شىء أكثر من اكتناز المال ، ليجودوا بما شاؤا منه على من شاؤا فى سبيل تأييد سلطانهم . فزادوا أعطيات الجند ، وضاعفوا رواتب أبناء الصحابة وغيرهم من القرشيين ، أصحاب النفوذ ورأوا أن لا يكونوا دون امراء العرب وملوكهم فى عصور الجاهلية ، سخاء على الشعراء ، وهم يفوقون أولئك الأمراء والملوك بقدر ما تفوق الشمس سائر الكواكب وأكثر فأخذوا يبذلون لهم المال اما اكتسابا لمودتهم ، واما اتقاء لهجائهم .

ولما كان السخاء من المناقب العربية البحتة ، فان كل من يصيبه شىء من جور الخليفة سواء أكان من كبار القوم كعبيد الله بن عباس أم من عقيلاتهم كعائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين ، أم من شعرائهم ، كالذى قال :

يجود علينا الخيرون بمالهم ونحن بمال الخيرين نجود

كانوا ، اذا خرجوا من حضرة الخليفة : يبذلون معظم جوائزهم فى من حولهم من اهل وأعوان وقاصدين .

ولما أفضي الأمر على العباسيين ، ساروا على السنه عينها فى الاعطيات والجوائز ، وزادوا مقاديرها لتوفر الثروة فى عصرهم . فان دخلهم فى أيامهم الزاهية ، كان نحو ٦٣٠ مليونا من الدراهم ، لا ينفقون منها على مصالح الدولة أكثر من خمسين مليونا ، ويبقى تحت تصرفهم المطلق نيف و ٣٠٠ مليون

وكان أصحاب تلك الأعطية يفرقونهـا فى الناس كالذين سبقوهم وربما أنفقها بعضهم فى حاشية الخليفة أو غلمانه ليسهلوا له الدخول عليه .

على أن الفقهاء وأهل التقوى كانوا فى صدر الاسلام وأوائل دولة بنى أمية يعدون الصلاة رشوة ، ويترددون فى قبولها . ولكنهم ما لبثوا أن ذاقوا حلاوتها ، حتى صاروا يتفاخرون بنيلهـا ، ويتزلفون الى أصحاب الأموال من الأمراء ويستجدونهم .

وأشهر من اشتهر بالسخاء من امراء دولة الأمويين (آل المهلب) و (الحجاج بن يوسف) و (خالد القسرى) ؛ ومن امراء دولة العباسيين (معن بن زائدة) و (آل برمك) — وقد فاقوا الجميع . وأنباء السخاء لا سيما الخاصة بما كان منه فى الشعراء ، قد ملأت كتب الأغانى والأدب ، وليس فيمن يعرف اللغة العربية من لا يدريها ويرويها .

ومن الخلفاء والأمراء من خرج السخاء عندهم عن دائرة الجود الى دائرة التبذير المحض . وأشهرهم فى ذلك (المهدى) و (الهادى) و (الرشيد) و (الأمين) و (المتوكل)

***

على أن أهل اليسار فى ذلك العصر — من الخليفة الى التاجر — لم يكونوا يلهون فقط بمجالس الشراب ، والمنادمة ، وسماع الشعراء وغيرهم من أرباب الكلام وذوى الحجة ؛ بل كانت لديهم ملاه اخرى أهمها : الصيد والقنص والحلبة أو السباق ، ولعب الكرة والصولجان والبندق .

أما الصيد والقنص فان العرب ، بعد ماخالطوا الفرس والروم لم يقتصروا على الصيد بالنبل والفخ فقط ؛ بل اتخذوا الجوارح كالباز والشاهين والعقاب يعلمونها الانقضاض على الطيور . وتغالوا فى اقتناء الكلاب والفهود ونحوها ، يستعينون بها على صيد الخنازير والغزلان وحمر الوحوش وكان (يزيد بن معاوية) — وهو أول من لها من الخلفاء بالصيد — يلبس كلابه الأساور من الذهب والجلال المنسوجة بالذهب أو يخصص لكل كلب عبد يخدمه .

أما العباسيون ، فانهم أقامو على الجوارح والكلاب والفهود اناسا ينظرون فى شئونها ، وأطلقوا لهم الأرزاق الواسعة ، وأقطعوهم الاقطاعات السنية — شأن ملوك أوروبا قبل الحرب — وكانوا يصيدون السباع ، فضلا عن الحيوانات الاخرى ؛ والمهجم بذلك (المعتصم) ، وهو أقوى بنى العباس عضلا .

وأما فى مصر فالصيد كان صيد البط والطير من البرك والبحيرات كما هو الآن وصيد الغزلان فى البراري والذئاب والجوارح والضوارى فى الصحراوات ؛ ولم يكن يباشر هذا النوع الأخير منه الا علية القوم وكبار رجال الديوان .

***

اما السباق ، فانه كان من خير ألعاب العرب فى الجاهلية — كما كان من خير العاب اليونان والرومان والفرس — ، وكانوا يرسلون خيولهم الى ميدان السباق عشرة عشرة . فلما تحضروا بالغوا فى اتخاذ الميادين

واستكثروا من الخيول ، وتفننوا فى تضميرها ، وأجازوا صاحب الفائز منها . والفائز هو من سبق الكل الى قصبة مغروسة فى آخر الحلبة ، واقتلعها ؛ من ذلك أخذت العباره أحرز قصب السبق المستعملة اليوم .

وأشهر من أغرى بخيل السباق من الخلفاء (هشام بن عبد الملك) فأنه جمع منها أربعة آلاف ، واشتهر منها « الزائد » شهرة « واحس » فى الجاهلية ، ما عدا الشؤم ؛ و (الوليد بن يزيد) ، جمع منها ألفاً وأشهرها « السندى » و (هرون الرشيد) وله فى الحلبة مواقف شهيرة نظم فيها الشعراء القصائد . ولكنهم لم يبلغوا فى واحدة منها شأو (محمد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان) فى قصيدته العامرة ، التى وصف بها خيل الحلبة العشرة بأسمائها وصفاتها . فأنها أحسن ما نظم فى هذا المضوع .

* * *

أما الكرة والصولجان، فلعبة لم يعرفها بنو أمية ؛ وكان الرشيد أول من لعبها من العباسيين . وهى عبارة عن كرة تصنع من مادة خفيفة مرنة كالفلين ،مثلا ، تلقى فى أرض الميدان ،فيتسابق الفرسان إلى التقافها بعصاً عقفاء يسمونها الصولجان أو « الجوكان » ، ويرسلون الكرة بها فى الهواء وهم على خيولهم .

وكان المعتصم شديد الرغبة فيها . ومن لطيف ما يحكى أنه قسم أصحابه ، يوما للعب بها .فجعل (الأفشين) فى جهة ، ونفسه فى جهة . فقال الأفشين « يعفنى أمير المؤمنين من هذا » . فقال: « ولم ؟ » قال:

« لأني ما أري أن أكون على أمير المؤمنين فى جد ولاهزل » فاستحسن ذلك منه ، وجعله فى حزبه

***

أما البندق فكرات تصنع من الطين ، أو الحجارة ، أو الرصاص وترمى عن الأقواس كرمى النبال . وهذه اللعبة فارسية : أو اقتبسها العرب عن الفرس فى أواخر أيام (عثمان بن عفان) ، وعد ظهورها فى (المدينة) منكرا ؛ ثم الفوها حتى شكلوا فرقا من الجند ترمى بها ؛ ويغلب عليها أن تشتغل بتطيير الحمام للتسابق فى رميه ، كما كان يفعل فى أيامنا هذه ، قبل أن تحظر الحكومة استعمال الحمام لهذا الغرض . وجعل لهذه الفرق زى خاص يمتاز بسراويل كانو يلبسونها ويسمونها « سراويل الفتوة » .

ومن قبيل رمى البندق رمى النشاب فى البرجاس ، وهو غرض فى الهواء أو على رأس رمح أو نحوه ، يطلبون اصابته بالنشاب . وهذه أيضا لعبة فارسية كان (الرشيد) أول من لعبها من الخلفاء ويقابلها فى أيامنا هذه رمى أى غرض بالرصاص وقوفا أو ركوبا .

وشاع فى تلك الأيام، أيضا ، لعب الشطرنج ، وهى لعبة أخذها المسلمون عن الفرس ، وهؤلاء عن الهنود ؛ وأول من لعبها من الخلفاء (الرشيد) أيضا وهو كذلك ، أول من لعب النرد . ولا تزال هاتان اللعبتان شائعتين الى اليوم . وقد أرسل(الرشيد) شطرنجا فيما أرسل من الهدايا الى شرلمان امبراطور الغرب .

***

وكل هذه الملاهى التى ذكرناها لم تكن قاصرة على الخلفاء والأمراء ، بل كان العموم يشاركونهم فيها فى جميع بلاد الاسلام الخاضعة للدولة العربية . وأما الذى كان قاصرا على الخلفاء والامراء فارتباط الاسود والفيلة والنمور لاثبات هيبتهم فى قلوب رعيتهم . وكانوا ، أحيانا ، يجارون رعاياهم باقتناء القرود . (فيزيد بن معاوية) كان له قرد يكنى « أبا قيس » فى منتهى الخبث والنباهة ، كان يحمل على أتان وحشية ، فيسابق بها الخيل يوم الحلبة .

وكان عند (أم جعفر) زوج الرشيد قرد يخدمه ثلاثون رجلا يلبسونه لباس الناس ، ويقلدونه السيف ؛ واذا دخلوا عليه ، قبلوا يده فاتفق أن (يزيد بن مرثد) جاء يوما . الى (أم جعفر) ليودعها قبل سفره . فأتوا اليه بالقرد ، وأمروه أن يقبل يده . فشق عليه ذلك ، وجرد السيف وقطعه نصفين ، وانصرف. فبعث اليه (الرشيد) وعاتبه. فقال : «ياأمير المؤمنين أبعد أن أخدم الخلفاء أخدم القرود ؟ لا والله ، أبدا ! » فعفا عنه .

وقد اقتنى (الأمين) سمكة صيدت له وهى صغيرة . فقرطها بحلقتين من ذهب فيهما حبتا در ، كما كان يفعل بعض أهل بعلبك قبل الحرب بالحمام . فانهم كانوا يقرطونه ويخلخلونه — ولست أدرى اذا كانوا لا يزالون يفعلون ذلك — فيبدو جميل المنظر للغاية .

وانا نفهم ، الى حد ما ، أن يعتنى مثل هذه العناية بالحمام — وهو طائر أنيس جميل . ولكن لا نفهم أن يعتنى كذلك بالسمك ، الا اذا كان من الجنس الزاهى الألوان ؛ وأيضا !

* * *

ولقد تبسطنا فى شرح الحياة الاجتماعية ، فى عهد الدولة العربية ، على علمنا بأن معظم مظهرها الذى وصفناه كان فى أقسامها الشرقية على العموم ، وفى دمشق وبغداد ، على الأخص وذلك لأنها كانت فى الحقيقة الحياة الاجتماعية فى جميع ممالك تلك الدولة ؛ ولو أنها كانت فى كل مملكة تصطبغ بصبغة خاصة ، تأتيها من الميزات الخاصة بتلك المملكة — هكذا الحياة الاجتماعية الآن واحدة فى الولايات المتحدة الامريكية ، ولو أنها فى كل ولاية منها تتشكل بشكل خاص فى جزء أو أجزاء من عامتها . فلم يكن يمكننا اذا أن نجعل القارىء واقفا على مظهر تلك الحياة الاجتماعية الا باظهارها أمام عينيه ، فى صفاتها العامة .

الفصل الرابع عشر

عمال الدولة العربية فى مصر

(١) أول من ولى أمر مصر ، بعد الفتح ؛ عمرو بن العاص ؛ وليها أربع سنين وأشهر ؛ وقدم ، فى خلالها على عمر بن الخطاب مرتين ، استخلف فى أحداهما ذكريا بن جهم العبدرى وفى الثانية عبد الله بن عمر وابنه . وكان على شرطه فى ولايته هذه كلها خارجة بن حذافة بن غانم ؛ وقيل ذكريا بن جهم العبدرى ؛ وقيل أيضا أنه عزل ذكريا هذا ، وجعل مكانه خارجة بن حذافة .

(٢) ثم ولى أمر مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، من قبل عثمان حين تكلم الناس بالطعن عليه ، واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى وقيل السائب بن هشام ، وجعل على خراجها سليمان بن عمر التجيبى .

ثم انثرى محمد بن أبى حذيفة على ما سبق لنا القول فى غير هذا المكان على عقبة بن عامر ؛ فأخرجه من الفسطاط ودعا الى خلع عثمان وحرض عليه بأن أخذ يكتب الكتب على السنة أزواج النبى (صلعم) ثم يأخذ الرواحل فيضمرها ثم يأخذ الرجال الذين يريد أن يبعث لذلك معهم ، فيجعلهم على ظهور البيوت ؛ فيستقبلون بوجوههم الشمس لتلوحهم تلويح المسافر ، ثم يأمرهم أن يخرجوا الى طريق المدينه بمصر

ويرسلوا رسلا يخبرون بهم الناس ليلقوهم ؛ وقد أمرهم ، اذا لقيهم الناس أن يقولوا : « ليس عندنا خبر . الخبر فى الكتب . ثم يخرج محمد بن أبى حذيفة ، والناس ، كأنه يتلقى رسل أزواج النبى . فاذا لقوهم ، قالوا : « لا خبر عندنا . عليكم بالمسجد ! » فيقرأ عليهم كتب أزواج النبى . فيجتمع الناس فى المسجد اجتماعا ليس فيه تقصير ؛ ثم يقوم القارىء بالكتاب ، فيقول : « انا لنشكو الى الله واليكم ماعمل فى الاسلام وما صنع فى الاسلام ! » فيقوم أولئك الشيوخ من نواحى المسجد بالبكاء وينفر محمد بن أبى حذيفة الناس بما قرىء عليهم . فكان عمله هذا ثانى تزوير رسمى ارتكب فى الاسلام . والأول ارتكبه عبد الله بن سعد ابن أبى سرح عينه لما كان كاتب يد النبى ، فبدل وغير فى الآيات الموحى بها .

(٣) ثم وليها قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى من قبل على بن أبى طالب وكان من ذوى الرأى والبأس ، ذهب جهد معاوية وعمرو بن العاص فى اخراجه من مصر أدراج الرياح ، حتى كاده معاوية من قبل على وذلك بأن قال لأهل الشام : « لاتسبوا قيسا ولا تدعوا الى غزوه فانه لنا شيعة ، تأتينا كتبه ونصيحته . الا ترون ما ذا يفعل باخوانكم النازلين عنده بخربتا ؟ (وكان قيس قد استمالهم ، وبعث اليهم أعطياتهم) يجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ويؤمن سربهم ، ويحسن الى كل راكب يأتيه منهم ! » وطفق يكتب بذلك الى شيعته من أهل العراق فسمع بذلك جواسيس على بالعراق . فانهاه اليه محمد بن أبى بكر وعبد الله بن أبى جعفر . فأتهم على قيسا وكتب إلى على : « أنهم وجوه

أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ ، وقد رضوا منى ، بأن اؤمن سربهم ، واجرى عليهم اعطياتهم وأرزاقهم ؛ وقد علمت أن هواهم مع معاوية . فلست مكابدهم بامر أهو من الذى أفعل بهم ، وهم أسود العرب ، منهم بسر بن أبى أرطاة ومسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج . فأبى عليه على الا قتالهم . فرفض قيس أن يقاتلهم ، وكتب الى على : « ان كنت تتهمنى فاعزلنى وابعث غيرى ! » فبعث الأشتر وكان معاوية يقول بعد ذلك : ما ابتدعت من مكايدة قط أعجب الى من مكايدة كدت بها قيس بن سعد .

— وكانت ولاية قيس على مصر أربعة أشهر وخمسة أيام — سنة ٣٧ هـ .

(٤) ثم وليها الأشتر مالك بن الحارث النخعي من قبل على بن أبى طالب اجابة لما طلبه منه عبدالله بن جعفر اذ قال له : « الا بعثت الاشتر الى مصر . فان ظفرت ، فهو الذى تحب ، والا استرحت منه ! » — وكان الأشتر قد ثقل على على وأبغضه ، وقلاه ! — فسار الأشتر حتى نزل جسر القلزم . فدس له المقدم على أهل الخراج هناك سما فى شربة عسل بايعاز من معاوية . فشربها الأشتر . فمات سنة ٣٧ هـ . وروى بعض شيعة معاوية ، ليزيل عن صاحبه الشبهة ، ويعلق موت الأشتر بقضاء الله ، على ما يكاد يكون آية من آياته . « ان الأشتر حين نزل عن راحلته دعا الله : ان كان فى دخوله مصر خيرا ، أن يدخله اياها ؛ والا لم يقض له بدخولها . فشرب شربة من عسل . فمات

فبلغ عمرو بن العاص موته ؛ فقال : « ان لله جنودا من العسل ! »

وبلغ الخبر عليا ، فقال . « لليدين وللفم »

(٥) ثم وليها محمد بن أبي بكر من قبل علي أيضا . فجعل على شرطته عبد الله بن أبي حرملة البلوي . ولقد نصح قيس بن سعد بن عبادة لمحمد الا يتعرض لشيعة معاوية النازلين في خربتا . فعمل محمد بخلاف ما أوصاه . فأدى ذلك الى الفتنة الهائلة التي ذكرناها في محلها ، وانتهت ، بعد قدوم عمرو بن العاص في جيوش معاوية الى مصر ، واقتتال العرب معا ، في يوم المسناة في صفر سنة ٣٨ هـ قتالا شديدا ، قال عمر فيه : «شهدت أربعة وعشرين زحفا ، فلم أر يوما كيوم المسناة ، ولم أر الأبطال الا يومئذ » بقتل محمد بن أبي بكر على الكيفية التي سبق بيانها . ١٤ صفر سنة ٣٨ . فكانت ولايته خمسة أشهر .

(٦) ثم وليها عمرو بن العاص ولايته الثانية عليها من قبل معاوية ؛ وكانت مصر قد جعلت له طعمة بعد عطاء جندها ، والنفقة على مصلحتها ، لما أبداه عمرو في مؤازرة معاوية من ضروب الدهاء والبسالة . فجعل على شرطته خارجة بن حذافة العدوي . وأدى كره الناس للحرب الأهلية القائمة بين علي ومعاوية ونفورهم من استمرارها على تمزيق شمل المسلمين والفت في سواعدهم ، الى قيام طائفة منهم أخذت تتلمس مخرجا من الأزمة بالتخلص من زعماء تلك الحرب ورؤوسها ؛ فتقاعد بنو ملجم عبد الرحمن وقيس ويزيد على قتل علي ومعاوية وعمرو وتواعدوا لليلة من شهر رمضان سنة ٤٠ فمضى كل واحد منهم الى صاحبه ؛ وكان يزيد هو صاحب عمرو . ولكنه عرضت لعمرو ، في الليلة المتواعد عليها ، علة منعته من حضور المسجد . فصلى خارجة بالناس . فشد عليه يزيد

وهو يظنه عمرا وضربه حتى قتله . فدخل به على عمرو ، فقال له : «انا والله ، ماأردت غيرك ، ياعمرو ! » قال عمرو : « ولكن الله أراد خارجه » ! وولى علي شرطته ، بعد مقتل خارجه صاحبه القديم زكريا ابن جهم العبد زلى .

ولما حضرت عمرو الوفاة ، بكى. فقال له ابنه عبدالله : « لم تبكي ؟ أجزعا من الموت » قال : « لا ، والله ! ولكن مما بعده ! » . فقال له : « قد كنت على خير ! » وجعل يذكره صحبه النبى (صلعم) وفتوحه الشام . فقال عمرو : « أى بنى ! اذا مت ، فكفنى فى ثلاثة أثواب ؛ ثم شقوا لى الأرض شقاً وسنوا على التراب سناً . فأنى مخاصم ! » ثم شرع يقول : « اللهم انك أمرت بأمور ، ونهيت عن أمور . فتركنا كثيراً مما أمرت به ، ووقعنا فى كثير مما نهيت عنه . اللهم لا إله الا أنت ! » ولم يزل يرددها حتى قضى ؛ مستخلفا ابنه عبد الله على صلاتها وخراجها وكان ذلك ليلة الفطر سنة ٤٣ هـ .

(٧) ثم وليها عتبة بن أبى سفيان من قبل أخيه معاوية . فأبقى على الشرطة زكريا بن جهم ؛ وأقام بها أشهرا ، ثم وفد على أخيه بوفد من أشراف مصر ، مستخلفا على البلاد عبد الله بن قيس . فبدت منه شدة على بعض أهل مصر فكرهوا ولايته ، وامتنعوا منها ، فبلغ ذلك عتبة ، فرجع الى مصر ؟ وابتنى بالاسكندرية دار الأمارة التى فى الحصن القديم ، وتوفى بها ، ودفن بمنية الزجاج ، واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني . فكانت ولايته عليها سنة وشهرا .

(٨) ثم وليها عقبة بن عامر من قبل معاويه ، وكان على ما يقال ،

صاحب « الشهباء » بغلة رسول الله ، التى يقودها فى الاسفار ؛ ثم وفد (مسلمة بن مخلد الانصارى) على (معاوية) فولاه مصر وقال له : « لا تعلم بهذا أحداً ! » وأرسل الى عقبة ، ، فجعله على البحر ، وأمره أن يسير الى (رودس) فقدم (مسلمة) ، ولم يعلم بامرته ، وخرج معه الى الاسكندرية . فلما توجه سائراً استوى (مسلمة) على سرير امرته . فبلغ ذلك (عقبة) : فقال : « أخلعانا » وغربة ؟ » وكانت ولايته على مصر سنتين وثلاثة أشهر . سنة ٤٧ هـ .

(٩) ثم وليها (مسلمة بن مخلد الانصارى) من قبل (معاية) ، فجعل على شرطته (السائب بن هشام بن كنانة) الى سنة ٤٩ ؛ ثم صرفه وجعل مكانه (عابس بن سعيد) . وأمر بالزيادة ، فى المسجد الجامع ، وبابتنـاء منار المسـاجد كلها ، وأمر المؤذنين أن يكون آذانهم ، أذن كل مؤذن فى الفسطاط فى وقت واحد ـ فكان الامر على ذلك الى دخول (المسودة) أى الى انقراض دولة بنى امية . وتوفى (معاوية) فى رجب سنة ٦٠ هـ و (مسلمة) يومئذ بالاسكندرية فكتب الى (عابس) رئيس شرطه بأخذ البيعة (ليزيد) فبـايعه الجند الا (عبد الله بن عمرو بن العاص) ؛ فدعا (عابس) بالنـار ، ليحرق عليه . فلما رأى ذلك (عبد الله) بايع (ليزيد) . وتوفى (مسلمة بن مخلد) فى رجب سنة ٦٠ ؛ وكانت ولايته خمس عشر سنة وأربعة أشهر . وهى أطول مدة وليها عامل على مصر فى دولة العرب ، بعد ولاية (عبد العزيز بن مروان)

(١٠) ثم وليها (سعيد بن يزيد الازدى) . فأقر (عابسا) على الشرط . وتلق (سعيداً) ، لمـا قدم (عمرو بن قحزم الخولانى) ، وقال : « يغفر

الله لأمير المؤمنين ! أما كان فينا مائة شاب كلهم مثلك ، يولى علينا احدهم ؟ » ولم تزل أهل مصر على الشنآن له ، والاعراض عنه والتكبر عليه ، حتى توفى (يزيد بن معاوية) سنة ٦٤ ودعا (ابن الزبير) الى نفسه . فقامت الخوارج الذين بمصر فى أمره ، وأظهروا دعوته ، وهم يحسبونه على مذهبهم . وسألوه أن يبعث اليهم أميراً يقومون معه . فبعث (عبد الرحمن بن جحدم الفهرى) . فقدمها فى طائفة من الخوارج فوثبوا على (سعيد بن يزيد) . فاعتزلهم . وكانت ولايته سنتين الا اشهراً .

(١١) ثم وليها (عبد الرحمن بن عتبه بن جحدم) فى شعبان سنة ٦٤ هـ قدم اليها بجمع كثير من الخوارج الذين كانوا مع ابن الذبير بمكة من أهل مصر وغيرهم . فاقر (عابس بن سعيد) على الشرط والقضاء ، وبايعه الناس على غل فى قلوب شيعة بنى امية . ثم بويع (مروان بن الحكم) بالشام فى ذى القعدة سنة ٦٤ ؛ وكانت شيعته من أهل مصر دعوه اليها ، وهم فى العلانية مع (ابن جحدم) . فسار (مروان) الى مصر بجمع من أمراء بيت امية ومن الاشراف . فبعث (بن جحدم) بمراكب فى البحر ليخالف الى عيال اهل الشام ، عليها (الاكدر بن حمام اللخمى) ، وقطع بعثا فى البر استعمل عليهم (السائب بن هشام) . فاخبر (روح بن زنباع) (مروان) . فلما التقوا ابرز اليه الصبى ، وقال : « أتعرف هذا ، ياسائب؟ » قال : « هذا ابنى ! » قال : « نعم . فوالله لئن لم ترجع عودك على بدئك لأرمينك برأسه ! » فرجع (السائب) بجيشه ، ولم يقاتل . فسمى جيشه « جيش الكرارين » .

وأما المراكب فنزل عليها عاصف ، ففرقها ونجا (الاكدر) ؛ وسار

(مروان) حتى نزل عين شمس ، فدارت بينه وبين (ابن جحدم) على الفسطاط ، قتل فيها خلق كثير . ثم قام بعضهم فى الصلح بين اهل مصر وبين (مروان) على أن لا يكشف (ابن جحدم) على أمر جرى على يديه ويدفع اليه (مروان) مالا وكسوة . فأجاب مروان الى ذلك ، وكتب لهم بيده ، كتابا يؤمنهم على جميع ما أحدثوه . فكانت مدة مقام (ابن جحدم) واليـاً على مصر تسعه اشهر . ونزل (مروان) دار الفلفل ، فى قبلة المسجد الجامع ، وقال . أنه لاينبغى لخليفة أن يكون ببلد ليس له فيها داراً . فأمر بالدار البيضـاء ، فبنيت له ؛ ووضع العطاء . فبايعه الناس الا نفراً كانوا قـد بايعوا (ابن الزبير) فأبوا أن يخلعوا بيعته .

فدعا (مروان) اليه ثمانين رجلا منهم وأمرهم أن يبايعوه . فأبوا فقدمهم رجلا رجلا فضرب أعناقهم ، وضرب عنق (الاكدر بن حمام) وكان سيد لخم وشيخها ؛ وحضر فتح مصر هو وابوه ، فتنادى الجند : «قتل الاكدر» ، فلم يبق أحـد حتى لبس سلاحه . فحضر باب (مروان) منهم زيادة على ثلاثين الفا . وخشى (مروان) ، وأغلق بابه . ومضت طائفة منهم الى (كريب بن ابرهة) ـ وهو من كبار شيعة بنى امية ـ ، فلقوه وقد توفيت امرأته (بسيسة بنت حمزه) وهو مشغول بجنازتها فقالوا : يابارشدين ، أيقتل الاكدر ؟ اركب معنا الى (مروان) قال: « انتظرونى حتي اغيب هذه الجنازة» فغيبها ؛ ثم اقبل معهم ، فدخل على (مروان) ، فقال : «الى يابارشدين !» فقال : «بل الى، ياأمير المؤمنين» فاتاه (مروان) ؛ فألقى عليه (كريب) رداءه ،وقال للجند : « انصرفوا أنا له جار ! » فما عطف احد منهم وانصرفوا الى منازلهم . ويومئذ توفى

(عبدالله بن عمرو بن العاص) ؛ فلم يستطيع ان يخرج بجنازته الى المقبرة لتشغب الجنـد على (مروان) ، فدفن فى داره . واقام (مروان) بمصر شهرين ، ثم جعل ولاية مصر الى ابنه (عبد العزيز) وارتحل عنها بعد ان اقام فيها شهرين ؛ وكان على شرطه فى مقامه بها (عمرو بن سعيد بن العاص)

(١٢) ثم وليها (عبـد العزيز بن مروان) سنة ٦٥ فجعل على شرطته (عابس بن سعيد) ؛ وبعد موت (مروان) ابيـه ، وفـد علي أخيـه (عبد الملك) فى سـنة ٦٧ وحضر مقتل (عمرو بن سعيد) . ففرض (عابس) فروضا ، وزاد فى أعطيات الناس من الجند . فالتي (عبد العزيز) بعد قدومه ؛ فقال له : « ماحملك على ذلك ؟ » قال : « أردت أن اثبت وطأتك ووطأة أخيـك . فان أردت أن تنقضه فأنقضـه ! » فقال عبد العزيز : «ما كنا لنرد عليك شيئا فعلته! » ثم توفى (عابس)، فجعل مكانه على الشرطة (زياد بن حناطة) ، وجعل على الحرس والأعوان والخيـل (جناب بن مرثد) ، وضم اليـه ثلثمائة من الأمداد . فكان الرجل ، اذا أغلظ (لعبد العزيز) وخرج ، تناوله (جناب) ومن معـه فضربوه وحبسوه . ولما وقع الطـاعون بمصر فى سـنة ٧٠ خرج (عبد العزيز) منها الى الشرقيـة مبتدئا ، فنزل (حلوان) ، كما قدمنا ؛ فأعجبته ؛ فاتخذها وسكنها ، وجعل بها الحرس والأعوان والشرطه . فكان عليهم (جناب بن مرثد) . وبنى (عبد العزيز) بحلوان الدور والمساجد وغيرها أحسن عمارة ، وأحكمهـا ، وغرس كرمها ونخلها . وكان أول من أحدث القعود يوم عرفة فى المسجد بعد العصر ؛ وأول

من عرّف بمصر . وكان له الف جفنة كل يوم ، تنصب حول داره . وكانت له مائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل الى قبائل مصر . وخرج الى الاسكندرية أربع خرجات فى سفن محملة بالجوهر والديباج ؛ وفى خرجته الرابعة سنة ٨٣ هـ توفى (جناب بن مرثد) ؛ فجعل مكانه على الحرس والأعوان والخيل (عمرو بن كريب) . فتوفى (عمرو) بعد أربعين ليلة ؛ فجعل مكانه (سعيد بن يعقوب) وسمع بعضهم (عبد العزيز بن مروان) تقول :

« قدمت مصر فى إمرة (مسلمة) بن مخلد . فتمنيت بها أمانى ، فأدركتها تمنيت ولاية مصر وان أجمع بين امرأتى (مسلمة) ويحجبنى (قيس بن كليب) حاجبه . فتوفى (مسلمة) ، فقدمت مصر ، ووليتها وحجبنى (قيس) وتزوجت امرأتى (مسلمة) وهما (أم كلثوم) الساعدية و (اروى بنت راشد) الخولانى وتوفى (عبد العزيز) سنة ٨٦ هـ ، ومع أن خراج مصر وجبايتها كانت اليه ، فانه لم يوجد له مال نص الا سبعة آلاف دينار . ولكنه ترك خيلا ورقيقا . وكانت ولايته على مصر عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوما ؛ ولم يلها فى الدولة العربية من كان أطول منه مدة .

(١٣) ثم وليها (عبدالله بن عبد الملك بن مروان) من قبل أبيه ، وهو ابن سبع وعشرين سنة أى سن (الخديو محمد توفيق) لما أخلف (اسماعيل) أباه على الأريكة الخديوية . وقد تقدم اليه أبوه أن يعفى آثار عمه (عبد العزيز) فاستبدل بالعمال عمالا ، وبالأصحاب أصحابا ، وأراد عزل (عبد الرحمن بن معاوية بن خديج) عن الشرط ، فلم يجد عليه

مقالا ؛ فولاه مرابطة الأسكندرية ، وجعل على الشرط (عمران بن عبد الرحمن بن شرحبيل) . وتوفى (عبد الملك بن مروان) سنة ٨٦ . فخرج (عبد الرحمن بن معاوية بن خديج) وأخذ (للوليد بن عبد الملك) بيعة أهل مصر . فأقر (الوليد) أخاه (عبد الله) على الولاية . وأمر (عبد الله) بالدواوين فنسخت بالعربية ، وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية ؛ ومنع من لباس البرانس . وفى ولايته غلت الأسعار وترعت . فتشاءم به المصريون وهى أول شدة رأوها (؟) وزعموا أنه ارتشى وكثروا عليه وسموه « مكيسا » ثم قدم (عبد الله) الى أخيه (الوليد) سنة ٨٨ واستخلف على مصر (عبد الرحمن الخولانى) فقال زرعة بن سعد الله الحشنى :

اذا سار عبدالله من مصر خارجا فلا رجعت تلك البغال الخوارج
أتى مصر والمكيال واف مغربل فما سار حتى سار والمد فالج

فاهدر (عبد الله) دمه . فهرب الى المغرب . وسخط عبد الله على رئيس شرطه وقضائه فصرفه عنها وسجنه . وبينا يوما ، عبد الله يتنزه فى منية ليحيى بن حنظلة ، اذ أقبل (قرة بن شريك) على أربعة من دواب البريد — وكان (الوليد بن عبد الملك) قد ولاه مكان أخيه دون أن يعلمه — فنزل بباب المسجد ، ودخل فصلى عند القبلة ، وتحول فجلس صاحباه عن يمينه ويساره . فأتاهم حرس المسجد وكان له شرط يذبون عنه ، فقالوا ان هذا مجلس الوالى ، ولكم فى المسجد سعة . قال : « وأين الوالى؟ » قالوا : « فى منتزه » ! قال: فادع خليفته: « فانطلق شرطى منهم الى (عبدالأعلى) رئيس الشرطة ، فاعلمه . فقال أصحابه : « ارسل

اليه ، يأتك صاغرا » قال : « مابعث الى الا وله على سلطان ؟ اسرجوا ؟» فركب حتى أتاه . فسلم . فقال له (قرة) : « أنت خليفة الوالى ؟ » قال « نعم » . قال: «انطلق فاطبع الدواوين وبيت المال» فكتب (عبدالاعلى) الى (عبد الله بن عبد الملك) يعلمه . فأتاه الخبر وقد أهديت له جارية فبكى ولبس خفه قبل سراويله دهشا . فكانت ولايته على مصر عشرة أشهر .

(١٤) ثم وليها (قرة بن شريك العبسى) للوليد . فأقر (عبدالأعلى) على الشرط ، وأخذ عبد الله بن عبد الملك بالخروج عن مصر بكل مايملك . فلما بلغ الأردن ، تلقاه رسل (الوليد) فأخذوا كل ماكان معه . وخرج قرة الى الاسكندريه ، واستخلف على الشرط (عبد الرحمن ابن معاوية بن خديج) . وكان (عبد الأعلى) قد توفى . فتعاقد قوم بالاسكندرية على الفتك بقرة لزعمهم أنه خليع ، وأنه من أظلم خلق الله فبلغ قرة ماعزموا عليه . فحبسهم قبل أن يتفرقوا وسألهم . فأقروا . فقتلهم عن آخرهم .

وورد كتاب (الوليد) بالزيارة فى المسجد الجامع . فابتدأ (قرة) فى بنيانه فى شعبان سنة ٩٢ فكانوا يجمعون الجمع فى قيسارية العسل ضمن فرغ من البناء . قال (ابن يونس) أن (قرة بن شريك) كان اذا انصرف الصناع من المسجد ، دخله ، ودعا بالخمر والطبل والزمار فيشرب ويقول : لنا الليل ولهم النهار ! . ودون (قرة) الديوان فى سنة ٩٥ وهو المدون الثالث ، وتوفى فى سنة ٩٦ ودفن بمصر واستخلف على الجند والخراج (عبد الملك بن رفاعة) فكانت ولايته ست سنين الا أياما .

(١٥) ثم وليها عبد الملك بن رفاعة وجعل على شرطه أخاه الوليد وخرج ببيعة أهل مصر الى سليمان بن عبد الملك بعد وفاة الوليد أخيه عبد الرحمن بن حجيرة الخولانى . ولما توفى (سليمان) وبويع بعده (عمر بن عبد العزيز)، عزل (عبد الملك بن رفاعة) عن الولاية وولى مكانه (أيوب بن شرحبيل) - وكانت ولاية (عبد الملك) ثلاث سنين وعزل عنها وهو لايدرى .

(١٦) ثم وليها (أيوب بن شرحبيل) من قبل عمر بن عبد العزيز فى سنة ٩٩ وورد اليه كتاب أمير المؤمنين بالزيادة فى أعطيات الناس عامة وحرمت الخمر، وكسرت ابنيتها، وعطلت حاناتها ونزعت مواريث القبط عن الكور، واستعمل المسلمون عليهم ومنع النساء الحمامات .

وتوفى (أيوب بن شرحبيل) فى رمضان سنة ١٠١ . وكانت ولايته سنتين ونصفا

(١٧) ثم وليها (بشر بن صفوان) من قبل (يزيد بن عبد الملك) فجعل على شرطه (شعيب بن حميد) من الوالى ولكنه نزعه بعد أيام وجعل (حنظلة بن صفوان) أخاه مكانه . وكتب (يزيد بن عبد الملك) يمنع الزيادة التى كان عمر بن عبد العزيز أمر لأهل الديوان بها . فمنعوها . ثم دون بشر التدوين الرابع . وبعد فراغه منه أتاه كتاب (يزيد بن عبد الملك) بتأميره على أفريقيه . فخرج اليها . واستخلف أخاه (حنظلة بن صفوان) على مصر سنة ١٠٢

(١٨) ثم وليها (حنظلة بن صفوان) أقره (يزيد بن عبد الملك) . فجعل على شرطه (محمد بن مطير) — وهو أيضا من الموالى - ثم عزله

فى سنة ١٠٣ واستبدله بغيره من العرب وفى هذه السنه عينها خرج الى الاسكندرية مستخلفا على الفسطاط (عقبة بن مسلم) . وفى سنة ١٠٤ جاءه أمر (يزيد) بكسر الاصنام بما فيها التماثيل التى فى كنائس المسيحيين من أقباط وغيرهم فكسرت كلها ومحيت ، وكسر فيها صنم حمام (زبان بن عبد العزيز) المعروف بحمام ابى مرة ؛ وقد قال فى ذلك الصنم هذين البيتين:

من كان فى نفسه للبيض منزلة — فليأت أبيض فى حمام زبان

عبل لطيف هضيم الكشح معتدل — على ترائبه فى الصدر ثديان

ولسنا ندرى « هل نأخذ من ذلك أن بعض العرب كان يهيم بالتماثيل هياما حيوانيا - وذلك بعد شيوع الحجاب وقطع المرأة من الهيئة الاجتماعية - أم أن بعض اعتقادات المصريين القدماء بقيت فى البلاد حتى بعد تغلب المسيحية والاسلام عليها واندست فى العقليات فى شكل الارتياح الى اسرار (الطلاسم)

ولما توفى (يزيد بن عبد الملك) وبويع هشام اخوه صرف (هشام) (حنظلة بن صفوان) عن ولايته فى سنة ١٠٥ . فكانت مدتها ثلاث سنين:

(١٩) ثم وليها (محمد بن عبد الملك) من قبل أخيه (هشام) فجعل على شرطه (حفص بن الوليد) ووقع بمصر وباء شديد . فترفع (محمد) الى الصعيد هاربا منه اياما ؛ ثم قدم من الصعيد وخرج عن مصر ولم يلها الا نحوا من شهر . ويقال ان السبب فى ذلك هو « انه قال لهشام أخيه حين ولاه » «اجل إنى أليها ؛ على انك ان امرتنى بخلاف الحق تركتها !» فقال هشام ؛ «ذلك لك » فاتى (محمداً) بعد شهر كتاب لم يعجبه ؛ فرفض العمل وانصرف الى الاردن ؛ فهل معنى هذا ان (محمداً) كان على عقلية (عمر بن عبد العزيز) قريبه زاهدا فى الدنيا ، راغبا فى الحق ؟ »

(٢٠) ثم وليها (الحر بن يوسف) الاموى من قبل (هشام) سنة ١٠٥ فأقر (حفص بن الوليد) على شرطه؛ وفى امرته كتب عبيد الله بن الحبحاب - وكان على الخراج - الى (هشام) بان ارض مصر تحتمل الزيادة؛ فزاد على كل دينار قيراطا. فأدى ذلك الى الثورة والفتنة اللتين ذكرناهما فى غير هذا المحل. وفى شوال سنة ١٠٧ وفد (الحر) الى (هشام) مستخلفا على الفسطاط (حفص بن الوليد). ولما عاد اليها كتب الى الخليفة يعلمه ان النيل قد انكشف عن ارض ليست لمسلم ولا لمعاهد ويستأذنه بالبناء فيها، فأذن. فبني فيها قيسارية عند الجسر. وفى سنة ١٠٨ تباعد ما بين (الحر) و (عبيد الله بن الحبحاب) صاحب الخراج. وكتب (عبيد الله) الى هشام، يشتكى (الحر)؛ وكتب (الحر) يستعفى من ولايته فصرفه (هشام) فى سنة ١٠٨ الى امارة الاندلس. فكانت مدته فى مصر ثلاث سنين سواء.

(٢١) ثم وليها (حفص بن الوليد) صاحب شرط سلفه، من قبل (هشام) فكتب (عبد الله بن الحبحاب) الى (هشام)؛ إنك لم تعزل (الحرن) اذ وليت (حفصا). فجعل (هشام) الاختيار الى (عبد الله)؛ فاختار (عبد الملك بن رفاعة). فصرف (حفص) يوم الاضحى ولم يمكث الا جمعتين سنة ١٠٨

(٢٢) (عبد الملك بن رفاعة)، وهذه ولايته الثانية. وكان عليلا لما قدم مصر. فقام بشؤون الولاية أخوه (الوليد). وما لبث (عبد الملك) ان مات بعد بضعة ايام. فاخلفه اخوه.

(٢٣) (الوليد بن رفاعة). ولى من قبل (هشام)؛ وفى ولايته نقلت

(قيس) الى مصر بطلب من (ابن الحبحاب) وانزلت (بلبيس) فى الحوف الشرقى. وأمرت بالزرع و نظر (ابن الحبحاب) الى الصدقة من العشور فصرفها اليهم فاشتروا ابلا وأخذوا يحملون عليها الطعام الى القلزم . فكان الرجل يصيب فى الشهر احيانا العشرة دنانير واكثر ثم امرهم (ابن الحبحاب) باشتراء الخيول ، فجعل الرجل يشترى المهر فلا يمكث الا شهرا حتى يركب . وليس عليهم مؤونة فى اعلاف ابلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم . فلما بلغ ذلك عامة قومهم ، فى البادية السورية، تحمّل اليهم خمسمائة اهل بيت منها . فكانوا على مثل ذلك . فأقاموا سنة . فأتاهم نحو من خمسمائة اهل بيت . فمات (هشام) و (ببلبيس) الف وخمسمائة اهل بيت من (قيس) حتى اذا كان فى زمن (مروان بن محمد) وولى (الحوثرة بن سهيل الباهلى) مصر ، مالت اليه (قيس). فمات مروان وبها ثلاثة آلاف اهل بيت . ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من قدم .

واذن (الوليد بن رفاعة) للنصارى فى ابتناء كنيسة بالحمراء عرفت بكنيسة (انبامينا) . فغضب بذلك رجل يقال له (وهيب اليحصبي) وكان مدريا من اليمن فثار على (الوليد) وذهب اليه ليفتك به . فأخذ وقتل . فخرج القراء ـ وهم الذين نسميهم اليوم بالفقهاء ـ على (الوليد) غضبا لوهيب بتحريض (معونة) امرأته : فانها شرعت تطوف بالليل على منازلهم ، تحضهم على الطلب بدم وهيب . وكانت امرأة جزلة محلوقة الرأس فقاتل القراء (الوليد) بجزيرة الفسطاط التى بين الجسرين ولعلها الروضة ـ ولكنهم فشلوا .

وبعث (هشام) الى مصر بالمُدْى - وهو من نوع المكاييل - وأمرهم أن يتعاملوا به فطيف به على القبائل، فسلمت به الا (عبدالرحمن بن ناشرة المعافرى) فانه اخذه فضرب به الحجر ، فكسره ، ثم قال : « ان لنا ويبة واردبا قد عرفناهما » ولسنا نحتاج الى هذا . فقيل له « كاسر المدى » ولسنا ندرى اكان في محافظته على القديم ضد الجديد محافظا على حسن يراد استبدال به ماهو أقل منه حسنا ؛ ام كان من المتمسكين بالقديم لمجرد كونه قديما ، لضيق فى نواقذ عقله عن ان تتسع للنور .

وتوفى (الوليد بن رفاعة) وهو وال على مصر فى سنة ١١٧ وكانت مدته سبع سنين وخمسة اشهر وكان رئيس شرطه (عبد الرحمن بن خالد بن مسافر)

(٢٤) فاخلفه (عبد الرحمن بن خالد) هذا المكنى (بابى الوليد) من قبل (هشام) ولكن (هشاما) . مالبث ان غضب عليه بسبب نزول الروم واسرهم (نميم بن العجلان) و (عبد العزيز بن مروان) واذ كان لايعرفه شخصيا سأل عنه (حنظلة بن صفوان) . فلم يعرفه فقال هشام : « ان ان امرءاً لايعرفه ، وهو والى مصر لجدير ان لايستأهلها ولايتها » ! — ولم يكن فى قوله هذا حكيما - فعزل (عبد الرحمن) وولى مكانه (حنظلة) . فقدم (حنظله) مصر يوم الرهان - اى سباق الخيل - وقد فرش لابن مسافر فى منبر الخيل . فجلس (حنظلة) فى مجلسه . وقدم (عبد الرحمن) حتى بلغ جبل يشكر . فاخبر ان اميرا قد قدم وجلس فى منبر الخيل . فقال : « لا اله الا الله : هكذا تقوم الساعة ! » ومضى

كما هو ،الي منبر الخيل . فلما رآه (حنظلة) اذا به يعرفه . فقال : « لو علمت انك هو » ماوليت عليك ! » فكانت ولاية (عبدالرحمن) سبعه اشهر وخمسة ايام .

(٢٥) (حنظلة بن صفوان) . وكانت هذه ولايته الثانية سنة ١١٩ ه . وفيها انتقض عليه أهل الصعيد وحاربه القبط . وقدم الي مصر فى سنة ١٢٢ (أبو الحكم بن أبى الأبيض) برأس (زيد بن على) من آل (على بن أبى طالب) واجتمع الناس اليه فى المسجد الجامع . وبعد مضى خمس سنين وثلاثة أشهر على تولية (حنظلة) ورد اليه كتاب من (هشام) يوليه به أفريقية ويأمره بالمسير اليها .

(٢٦) فولى مصر بعده (حفص بن الوليد) باستخلاف (حنظلة) . فجمع (هشام) الصلاة والخراج جميعا . وكانت أرزاق كل رجل من المسلمين فى الأول اثنى عشر أردبا فى كل سنة . فنقص بعضهم أردبين أردبين فصار كل رجل الى عشرة . فأعادها (حفص) الى اثنى عشر اثنى عشر . ومات (هشام) و (حفص) على الولاية ففرح الناس بنبأ موته — لعل ذلك لما اشتهر عنه من البخل ، مع أنه لم يكن الا مقتصداً ولكن اقتصاد الملوك بخل فى عرف الشعوب — وأما (حفص) فوضع يده على خده حزينا . لعلمه بحقيقة الرجل . وأخلف (هشاماً) (الوليد بن اليزيد بن عبد الملك) . فأقر (حفصا) وأمره بأخراج أهل الشام الذين بمصر الى أجنادهم . ولكنهم امتنعوا على (حفص) ، وحاصروه فى داره . فقاتلهم وظفر بصاحبهم (ربيعة) من موالى أهل (حمص) فقتله وأخرج أصحابه الى إخبارهم . ثم صرف (حفص) عن الخراج

وانفرد بالصلاة . وقتل (الوليد بن اليزيد) و (حفص) بالشام ذهب اليها قادما على (الخليفة) . فأقره (اليزيد بن الوليد) على ولايته وأمره باللحاق بجنده . ففعل . وتوفى (اليزيد) وأخلفه (ابراهيم بن الوليد) سنة ١٢٧ ، ولكن (محمد بن مروان بن الحكم) مالبث أن خلفه . فكتب (حفص) اليه يستعفيه من ولاية مصر . فأعفاه (مروان) فكانت مدة ولايته هذه الثالثة ثلاث سنين إلا شهراً .

(٢٧) ثم وليها (حسان بن عتاهية) من قبل (مروان بن محمد) وكان أول مافعل أنه أسقط كل الفروض التى كان (حفص) قد فرضها قبله فى مصلحة الجند فوثب به قواد تلك الفروض وقالوا : « لانرضى إلا بحفص » ! وخطبوا فى مسجد مصر ودعوا الناس الى خلع (مروان) وحاصروا (حسان) وقالوا « أخرج عنا حيث شئت فأنك لاتقيم معنا ببلدنا ! » وكان (حفص بن الوليد) قد هرب الى خراب (حمير) . فانطلقوا واستخرجوه وأعادوه الى الولاية . فكانت مدة (حسان) ستة عشر يوما .

(٢٨) ثم وليها (حفص بن الوليد) كرها ولاية ثالثة . وكان (حنظلة بن صفوان) قد قدم من أفريقية -- أخرجه أهلها منها — ونزل الجيزة فكتب (مروان) الى أهل مصر : ؛ أما اذا أبيتم ولاية (حسان) ، فقد أمرت عليكم (حنظلة بن صفوان) . فامتنع المصريون وأظهروا الخلع . ومضوا الى (حنظلة) فأخرجوه الى الحوف الشرقى ، ومنعوه من المقام فى الفسطاط . فسكت عنهم (مروان) بقية سنة ١٢٧ : ثم عزل (حفصا) فى مستهل سنة ١٢٨ .

(٢٩) فوليها (حوثرة بن سهيل الباهلى) من قبل (مروان) . وسار الى مصر بجيش من أهل الشام . فاجتمع جند مصر الى (حفص) وسألوه أن يمنع (الحوثرة) . فامتنع فخاف الجند وأرسلوا الى العامل الجديد من سأله أن يؤمنهم على ماأحدثوا . فأجابه (الحوثرة) الى ماسأل و كتب بالعهد كتابا . ولكنه مادخل (حفص) عليه فسطاطه الا وأمر بتقييده رغم ما كان منه من الامتناع عن مقاتلته : ثم ضرب أعناق رؤوس الفتنة ووجوههم . وعهد بالشرطة الى (حسان بن عتاهية) وما لبث أن قتل أيضا (حفص بن الوليد) سنة ١٢٨

وقدم الى مصر داعية (عبد الله بن يحيى) طالب حق (العلويين) فدعا الناس فبايعه قوم من (تجيب) وغيرهم فاستخرجهم (حسان بن عتاهية) وقتلهم (الحوثرة) .

وفى سنة ١٣١ أمر (مروان) (الحوثرة) بالسير مدداً الى (يزيد بن عمرو بن هبيرة) بالعراق . فسار . وحضر حصار (واسط) ثم قتل مع (يزيد بن هبيرة) وكانت مدة ولايته بمصر ثلاث سنين وستة أشهر .

(٣٠) ثم وليها (المغيرة بن عبد الله الفزارى) من قبل (مروان) ؛ وجعل على شرطته ابنه (أبا مسعدة عبدالله) — وكان لينا محببا الى الناس وخرج (المغيرة) الى الاسكندرية وفى غيبته هلك ابنه . فجزع عليه جزعا شديداً ما لبث أن أودى بحياته . فأجمع الجند على أن يولوا مكانه (عبد الله بن عبدالرحمن بن حديج) الى أن يأتى رأى (مروان) سنة ١٣٢

(٣١) فولى (مروان) (عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير)

وكان واليا على الخراج فى القطر فأمر (عبدالملك) باتخاذ المنابر فى الكور؛ ولم تكن قبله . وكان ولاة الكور يخطبون على العصى الى جانب القبلة .
وفى عهده شبت ثورة (يوحنس) بسمنود . و (خالف عمرو بن سهيل) المروانى الأموى على (مروان) فى جمع من (قيس) ثم أجمع جند مصر ، لما علموا بفوز القضية العباسية فى الشرق على منع (مروان) ان هو سار اليهم ، وجعلوا على أمرهم ذلك (عبيد الله بن عبد الرحمن الحضرمي) . ولكنهم خذلوه ، ساعة الحاجة ، وقدم (مروان) مصر سنة ١٣٢ . وكان قد سود فيها أهل الحوف الشرقى ، فأهل الاسكندرية ، فأهل الصعيد . وعزم (مروان) على تعدية النيل فامر بدار آل مروان المذهبة ، فأحرقت . فقال له (زبان بن عبدالعزيز) أنها دار بنى عبد العزيز ، وقد أعظمت فيها النفقة » فقال مروان : « ان ابق ابنها لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة ؛ والاّ فما تصاب به من نفسك اعظم ! » ثم دخل (مروان) الى الجيزة ، وحرق الجسرين وبعث من قتل (المسودة) فى الاسكندرية .

وقدم (صالح بن على بن عبد الله بن عباس) و (أبو عون عبدالملك بن يزيد) الى مصر بجيش عباسي . فسار (مروان) الى (بوصير) من كورة الأشمونين ؛ وما لبث أن قتل فيها لسبع بقين من ذى الحجة سنة ١٣٢ وقتل بعده جمع من كبار بنى أمية وأشرافهم . ودخل (صالح بن على) الفسطاط يوم الاحد لثمان خلون من المحرم سنة ١٣٣ وبعث برأس (مروان بن محمد) الى العراق

فزالت بذلك الدولة الأموية .

(٣٢) وولى أمر مصر (صالح بن على) هذا من قبل (أبى العباس السفاح)

فبعث بوفد أهلها الى هذا الخليفة وعليهم (الوليد بن عبد العزيز) وغيرهم . وأسر (عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير) مع غيره من كبار رجال الدولة المقهورة : فسجنوا . وجيء (بحسان بن عتاهية) الى الفسطاط فضربه (صالح بن علي) بالسياط . ثم قال له : «أأستبقيك؟» فأجاب « مافي البقاء خير بعد هذا ! » فضرب عنقه .

ونجا (عاصم بن ابي بكر بن عبد العزيز بن مروان) الى قفط بالصعيد. ومعه أخوه (عمر) وبنوه (عبد الملك وابان ومسلمة) فكتب اليهم (صالح) يؤمنهم . فقدموا الفسطاط . وكان (عاصم) مواصل بني العباس. فكتب (صالح) فيهم الى الخليفة . فأمره (ابو العباس) ان يشخصهم. فحملوا في محامل ، اعراء . فمروا (بصالح بن علي) وهو جالس على ظهر بيت الصدقة . فناداه (عاصم) « ياصالح — لم يكنه — ما بالنا ننقل من بلد الى بلد ؟ والله ما نحن بارقاء فنملك ولا نساء فستمتع بنا ! » فما اجابه (صالح) . فمضي بهم الى (قلنسوة) من ارض فلسطين فقتلوا بها ، وقتل معهم قريبهم (عيسى بن الوليد بن عمر بن عبد العزيز) ثم قتل فيها ايضا جميع اولاد (سهيل بن عبد العزيز) وكان (عمرو) احدهم قد سود واتى (شعبة بن عثمان التميمي) وكان على (المضرية) ـ وهو لايعرفه . فقال: « انا عمرو بن سهيل جئت لآخذ لي امانا من الامير وأدخل في دولته !» فقال : « النجاة ! النجاة ! ان ظفر بك قتلك ! » فخرج الى جبل (الاق) بالتيه . ثم حدث ان (شعبه) ضرب خصيا له كان قد اطلع على كتاب بعث به اليه (عمرو بن سهيل) . فدخل الخصيُّ على (صالح بن على) واخبره بما كان فارسل (صالح) الى سرادق (شعبة) يفتشه . فوجد فيه الكتاب ؛

فضرب عنق (شعبة) وارسل الى جبل (الاق) من احاط بعمرو وهو يحقب جمالا فأخذه مع باقى اولاد ابيه .

وزاد (صالح) فى مؤخر المسجد الجامع بالفسطاط اربعة اساطين؛ ثم ورد له كتاب من (ابى العباس) بامارته على فلسطين . فاستخلف على مصر (اباعون عبد الملك بن يزيد) فى مستهل شعبان سنة ١٣٣ واقطع الذين سودوا ضياع ومنازل المقتولين من بنى اميه وكبار رجال دولتهم ثم سار بوجوه من اهل مصر صحابة الى امير المؤمنين الجديد .

(٣٣) فولى الامارة بعده (ابو عون عبد الملك بن يزيد). فوقع الوباء بمصر لكثرة ماسفك فيها من دماء فى الفتن والحروب الاخيرة التى ذهبت بالدولة الاموية . فهرب (ابو عون) منها الى الصعيد . ولما زال الوباء عاد اليها . وقمع ثورة (ابى مينا) القبطى الذى كان قد خرج بسمنود وقتله . وفى سنة ١٣٦ ورد كتاب من الخليفة بولاية (صالح بن على) على مصر وفلسطين وافريقية ، وجاءت جيوش لغزو (المغرب) واستخلاصه من بنى أميه ، عليهم (عامر بن اسماعيل)

(٣٤) فولى الامارة (صالح بن على) ولايته الثانيه . فولى (اباعون عبد الملك بن يزيد) الجيوش السائرة الى المغرب ، وقدم امامه رجالا من اشراف اهل مصر دعاه لاهل افريقية . وجعل (عامر بن اسماعيل) على مقدمته . ولكن (ابا العباس) توفى فى شهر ذى الحجة من سنة ١٣٦ عينها واستخلف (ابا جعفر المنصور) اخاه . فاقر (المنصور) (صالح بن على) على امارته . فكتب (صالح) الى (ابى عون) يأمره بالرجوع وبرد الدعاة من أهل مصر . وكان (أبوعون) قد بلغ (برقه)

وأقام بها. فرجع أدراجه ؛ والحق (صالح) فى أهل مصر ألفى مقاتل وزادهم عشرة عشرة فى أعطياتهم . واذا بالحكم بن ضبعان الجزامي قد خلع بيعة العباسيين فى فلسطين . فبعث (صالح) (أباعون) اليه. فهزم (أبوعون) (الحكم) وبعث الى مصر بثلاثة آلاف رأس من أصحابه . ثم سار (صالح) الى فلسطين بنفر من وجوه أهل مصر، وكتب الى (أبى عون) بالمسير اليه . فلقيه (أبو عون) بالفرما فأمره على مصر .

(٣٥) فوليها (أبوعون) ولايته الثانية فى رمضان سنة ١٣٧ . ولكن (المنصور) لم يكن موافقا على ذلك . (فقدم بيت المقدس) وكتب الى (أبى عون) بأن يستخلف على مصر ويخرج اليه . فاستخلف وخرج . فلما استقر بفلسطين ، عزله (المنصور) عن مصر . وولاه الأردن ، وأمره أن يسير اليها . فلما استقر بها عزله عنها وولاه دمشق ثم لم يزل ينقله حتى صار الى الجزيرة .

(٣٦) وأخلفه على مصر (موسى بن كعب) من قبل (المنصور) — وكان من نقباء بنى العباس — فلما نزل العسكر جعل وجوه الجند يغدون عليه ويروحون . فقال : « ألكم حاجة ؟ أتشكون ظلامة ؟ » قالوا : « لا » قال: « فما هذا الاختلاف؟ » قالوا : « كنا نفعل ذلك بامرائنا قبلك ! » فقال : « قد وضعه الله عنكم . فأقيموا فى منازلكم ! » فانتهوا. ومما يؤثر عن (موسى) قوله : « كانت لنا أسنان ، وليس عندنا خبز فلما ذهبت الأسنان جاء الخبز ! » وذلك أن والى خراسان فى أواخر عهد بنى أمية اتهم (موسى) بأمر المسودة — وكان، هو ، فى الحقيقة من نقبائهم — فأمر به : فألجم بلجام كأنه دابة ؛ ثم كسرت أسنانه . فلما صار

الأمر الى بنى هاشم أمالوا عليه الدنيا ! ولعل قوله هذا الأصل فى قول عوام أهل زماننا « يعطى الفول لمن لا أسنان له ، والحلق لمن لا أذان له! »

وكان المنصور على ما نعلم مولعا بعلم النجوم . مصداقا لما يقول (نوبخت) كبير منجميه . فكتب الى (موسى بن كعب) يقول له : « إنى عزلتك من غير سخط . ولكن بلغنى أن عاملا يقتل بمصر يقال له موسى وكرهت أن تكون هو ! » فكانت ولاية (ابن كعب) سبعة أشهر وصرف فى سنة ١٤١ هـ .

(٣٧) فولى بعده (محمد بن الأشعث) الخزاعى سنة وشهرا ثم عزل

(٣٨) ووليها (حُميد بن قَحْطَبة) بعده . فدخل مصر فى عشرين ألف من الجند . وقدمها فى أيامه (على بن محمد) العلوى داعية لأبيه وعمه . فذكر ذلك صاحب السكة (الحميد) ، وقال : «ابعث اليه فخذه » فقال (حميد) : « هذا كذب ! » ودس عليه فتغيب . فكتب بذلك صاحب السكة الى (المنصور) . فعزله وسخط عليه . ثم صرف حميداً عن ولايته فى سنة ١٤٤

(٣٩) فوليها (يزيد بن حاتم المهلبى) . وفى أيامه ظهرت دعوة (بنى حسن بن على) بمصر — وفى حى السيدة زينب شارع باسمهم — فتكلم بها الناس ، وبايع كثير منهم (لعلى بن محمد) وعلى رأسهم (خالد بن سعيد) فاحدثوا فتنة انتهبوا فيها بيت المال ، وتضاربوا على النقود بسيوفهم . ولكن (يزيد) أخمدها بسهولة ،وأدب بالضرب الذين قاموا بها ووقعوا بين بين . ثم قدمت الخطباء الى مصر برأس (ابراهيم بن عبد الله بن حسن) العلوى ؛ فنصبوه فى المسجد الجامع واختفى (على بن محمد)

وما لبث أن مرض ومات .

وورد كتاب من (المنصور) يأمر (يزيد) بالتحول من «العسكر» الى «الفسطاط» وأن يجعل الدواوين فى كنائس القصر . ففعل ثم ضم (يزيد) برقة الى عمل مصر وحارب الحبشة لخارجة خرجت بها . وثار القبط عليه احدى ثوراتهم العنيفة . وقاتلوا رجاله وجرحوا منهم وجوها أهمهم (محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج) وكان قد تولي الشرطة دهراً لعدة ولاة بالتتابع .

ثم صرف (يزيد) عن الولاية فى سنة ١٥٢ وكانت مدته فيها سبع سنين وأربعة أشهر .

(٤٠) فاخلفه عليها (عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج) وتوفى وهو قائم بالأمر من سنتين وشهرين . فكان بعد (عمرو بن العاص) أول عامل مات وهو على رأس الأمارة .

(٤١) فوليها بعده أخوه (محمد بن عبد الرحمن) باستخلاف منه . فأقره عليها (المنصور) ولكنه لم تمض عليه ثمانية أشهر ونصف إلا ومات مستخلفا (موسى بن على بن رباح)

(٤٢) فأقره (المنصور) . فجعل على شرطه (أبا الصهباء محمد بن حسان) ؛ وكان يروح الى المسجد ماشيا و (أبو الصهباء) بين يديه يحمل حربته . وكان اذا اقام (أبو الصهباء) الحدود على من تجب عليه يطّلع عليه (موسى بن على) فيقول : «يا أبا الصهباء أرحم أهل البلاء !» فيقول : « أيها الأمير انه لا يُصلِحُ الناسُ الا بما يفعل بهم ! »

ولما مات (المنصور) أقر (المهدى) خليفته (موسى) على امارته

الى سنة ١٦١ . ثم صرفه عنها

(٤٣) فوليها بعده (عيسى بن لقمان) الجمحى الى سنة ١٦٢ . ثم صرف عنها .

(٤٤) فوليها (واضح) مولى (أبي جعفر المنصور) من ٢٤ جمادى الآخرة سنة ١٦٢ الى ٩ رمضان سنة ١٦٢

(٤٥) وأخلفه (منصور بن يزيد) الرعينى ووليها من رمضان الى ذى القعدة سنة ١٦٢ أى شهرين وثلاثة أيام .

(٤٦) وأخلفه (أبو صالح يحي بن داود) الخرسى . وكان أبوه تركيا وأمه خالة ملك طبرستان . فكان أول تركي وليها ؛ وكان من أشد الناس سلطانا ، وأعظمهم هيبة ، وأقدمهم على دم ، وأنهكهم عقوبة . فمنع من غلق الأبواب فى الليل ، ومنع أهل الحوانيت من غلقها حتى حطوا عليها شرائج القصب تمنع الكلاب منها : ومنع حراس الحمامات أن يجلسوا فيها . وقال : من ضاع له شىء فعلى أداؤه . فكان الرجل يدخل الحمام ، فيضع ثيابه ويقول : ياأبا صالح احفظها ! ؛ وكان (أبو جعفر المنصور) اذ ذكر (الخرسي) أمامه ، قال : « هو رجل يخافنى ولا يخاف الله ! » والزم (أبوصالح) الفقهاء والأشراف وأهل البيوتات بمصر لبس القلانس الطول فى الدخول على السلطان يومى الاثنين والخميس ! — فالتحكم فى الملابس عهده قديم ، وما هو من مبتكرات وزارة المعارف فى هذه الأيام — ثم صرف أبوصالح فى محرم سنة ١٦٤هـ .

(٤٧) وولى الولاية بعده (سالم بن سوادة) التميمى — وكان اجدع — واقام عليها حتى سلخ ذى الحجة سنة ١٦٤ .

(٤٨) واخلفه (ابراهيم بن صالح بن على) العباسى فابتنى دارا عظمى عرفت بعد (بدار عبد العزيز) ووهبها عند خروجه لآل (عبد الرحمن بن عبد الجبار) . وخرج فى ايامه (دحيه) المروانى الاموى بالصعيد . فتراخى (ابراهيم) عنه، ولم يحفل بامره حتى ملك عامة الصعيد فسخط (المهدى) على (ابراهيم) وعزله عزلا قبيحا فى اخر سنة ١٦٧ هـ .

(٤٩) فوليها بعده (موسى بن مصعب) الخثعمى : وكان (المهدى) قد أمره باصفاء اموال سلفه ، واخذ عمّاله . فاستخرج منهم ثلثمائة الف دينار ، ولم يزل (ابراهيم) مقيما بمصر ممن لم يبق له عامل الا صار فى يدى (موسى بن صعب) وحينذاك اذن له (المهدى) بالانصراف الى بغداد . وتشدد (موسى) فى استخراج الخراج ، وزاد على كل فدان ضعف ما تقبل به ؛ ثم عاد الى الرشوة فى الاحكام ، وجعل خراجا على اهل الاسواق وعلى الدواب فاظهر الجند له الكراهة والشنان . ونابذ اهل الحوف عماله وكلموا اهل الفسطاط فيه وخوفوهم الله . فاعطاهم الجند من اهل مصر العهود والمواثيق انهم ينهزمون عنه اذا خرج اليهم . وتحالفوا هم واهل الفسطاط على ذلك . وكان (موسى) قد بعث خمسة الاف من اهل الديوان الى الصعيد لمحاربة (دحية) : فخرج هو فيمن بقى من جند مصر ووجوه الناس الى اهل الحوف فانهزم رجاله عنه واسلموه الى اعدائه . فقتلوه . فلما بلغ خبر مقتله (المهدى) قال : "تفيت من (العباس) أو لافعلن" باهل الحوف كذا وكذا . ولكنه مات قبل ان يبلغ فيهم شيئا . وكانت ولاية (موسى بن مصعب) على مصر عشرة اشهر سنة ١٦٨ هـ .

(٥٠) فوليها بعده (عسامة بن عمرو) باستخلاف من سلفه . وفى ايامه حصلت المبارزة التى قلنا عنها فى غير هذا المكان بين قائد جيش (عسامة) — وكان (بكاراً) اخاه — وبين (يوسف بن نصير قائد جيش (دحية) . وفى الاثناء كانت ولاية (الفضل بن صالح بن على) وردت مصر ، فصرف (عسامة) عنها سنة ١٦٨ ه .

(٥١) وكان (الفضل بن صالح) عباسيا . فجاء بعسكر من الجند عظيم لمقاتلة اهل الحوف برا بقسم (المهدى)؛ غير ان (المهدى) مات وهو فى الزحف . فأقر (الهادى) خلفه (الفضل) فقدم (الفضل) ومصر مضطرمة ، والناس قد تسرعوا الى (دحية) وكاتبوه ، ودعوه الى دخول الفسطاط . واهل الحوف هائجون مائجون فارسل (الفضل) جنداً قاتلوا (دحية) وهزموه . فمضى (دحية) فى طائفة معه الى طريق الواحات . فبعث الى اهلها يدعوهم الى القيام معه ، وكانوا من المسالة والبربر — فقالوا : لا نقاتل لا مع اهل دعوتنا ! فبعث اليهم (دحيه) « انا على مذهبكم » فخرجوا اليه وقاتلوا معه .

واقبل جند (الفضل) فخرج اليهم (دحية) فى اهل الواحات وهزمهم . ولكن أهل الواحات مالبثوا أن وجدوا على (دحية) فى اثارته العرب على الموالى ، وتقديمهم على البربر . فقالوا له : « هذا ظلم والاسلام واحد ؛ ولسنا نقاتل معك حتى نمتحنك بالبراءة من عثمان ! » فامتنع (دحية) وقال لهم : « والله! ما ارجوا الجنة الابالرجم بينى و بين عثمان ! » فانصرفوا عنه وتركوه . فعاد اليه جند (الفضل) لما علموا انصراف اهل الواحات عنه . فحاربهم وكانت (نُعْمُ)، أمه تقاتل قتالا شديداً .

ولكن جند (الفضل) بالرغم من ذلك تغلبوا عليه وأسروه وعادوا به الى الفسطاط ، حيث ضربت عنقه . وصلب على ماسبق لنا القول . ثم صرف (الفضل بن صالح) .

(٥٢) وأخلفه (على بن سليمان) العباسى فى شوال سنة ١٦٩ من قبيل (الهادى) ؛ ولما مات (الهادى) وقام علي الامر بعده اخوه (هرون الرشيد) أقر (عليا) فى ولايته . فاظهر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وكان ذلك بان منع الملاهى والخمور وهدم الكنائس المحدثة بمصر ككنيسة مريم الملاصقة (لانبا شنودة) وكنائس أخرى، بذل له خمسون الف دينار فى تركها فامتنع ! ، وكان كثير الصدقة فى الليل وكان أهل مصر ، مع هذا ، يرمونه بالقذر ! وذلك لانه استخلص رجلين متهمين بالقذر ؛ وكان الاولى بهم رميه بالغباوة وضيق العقل

وفى ايامه قدم (ادريس بن عبد الله) الحسنى الى مصر . فعلم (على) بمكانه . ولقية سرا . فسأله (ادريس) بالله والرحم إلا ستر عليه . فانه خارج الى المغرب فستر عليه . ثم اظهر أنه تصلح له الخلافة وطمع فيها — وربما كان تكلفه الظاهرة الدينية والاغراق فى مايرضى الجهلة والاغبياء من العامة المتعصبة لامور دينها على قدر جهلها باصوله ، توطئة لحمل القوم على الرضا به خليفة ـ فسخط عليه (هرون الرشيد) وعزله عن مصر فى ربيع الاول سنة ١٧١ هـ .

(٥٣) فوليها (موسى بن عيسى) العباسى . فاذن للنصارى فى بنيان الكنائس التى هدمها (على بن سليمان) فبنيت كلها بمشورة رجلين من افاضل الائمة هما (الليث بن سعد) و (عبد الله بن لهيعة) ، قالا : « هو

من عمارة البلاد ! » واحتجا ان عامة الكنائس التى بمصر لم تبن الا فى الاسلام فى زمن الصحابة والتابعين . ثم صُرف موسى عن الولاية فى رمضان سنة ١٧٢ هـ .

(٥٤) واخلفه عليها (مسلمة بن يحي) البجلى ؛ واقام على سدتها احد عشر شهرا . ثم صرف

(٥٥) واخلفه (محمد بن زهير) الازدى : وفى عهده ثار الجند الذين يقال لهم القديريه بصاحب الخراج فى اعطياتهم . فصلبوه ، ودخنوا عليه ، حتى دفع اليهم اعطياتهم ولم يدافع عنه (ابن زهير) فصرف فى سلخ ذى الحجة سنة ١٧٣

(٥٦) فوليها بعده (داود بن يزيد) المهلبى . فقدمها ومعه (ابراهيم بن صالح) لاخراج (القديريه) عن مصر . فاخرجهم من الفسطاط الى المغرب والمشرق وجعل منهم عالماً فى البحر الى الشام . فظفرت بهم الروم فأسرتهم . وفى ولاية داوود توفى العالم الفاضل (عبدالله بن لهيعه) فصلى داوود عليه ؛ ثم صرف فى محرم سنة ١٧٥ ، وكانت ولايته سنة ونصف شهر .

(٥٧) فوليها (موسي بن عيسي) ولايته الثانية ؛ وفى ايامه توفى (الليث بن سعد) وصلى عليه (موسى) ثم صرف ولم يلها الا سنة واحدة

(٥٨) فوليها (ابراهيم بن صالح) ولايته الثانية ولم يقم على الأمر هذه المرة الا شهرين وثمانية عشر يوما وأدركته الوفاة ـ وكان قبره أول قبر يُبيَّض فى مقبرة مصر . واقام بالأمر بعده ابنه (صالح بن ابراهيم)

(٥٩) ثم وليها (عبد الله بن المسيب) الضبي في رمضان سنة ١٧٦ وصرف عنها في رجب سنة ١٧٧

(٦٠) ثم وليها (اسحق بن سليمان) فكشف امر الخراج وزاد على المزارعين زيادة أجحفت بهم . فخرج عليه اهل الحوف . فحاربهم فقتل جمع من اصحابه . فكتب (لهرون الرشيد) فعقد (هرون) (لهرثمه بن اعين) فى جيش عظيم وبعث به الى مصر . فنزل الحوف فلقيه اهله بالطاعة . واذعنوا باداء الخراج . فقبل (هرثمة) منهم واستخرج خراجه كله . وصرف (عبد الله) فى رجب سنة ١٧٨ هـ

(٦١) فوليها (هرثمة بن اعين) وبعد ان اقام شهرين ونصفا سار الى افريقية

(٦٢) فوليها (عبد الملك بن صالح) العباسى ولكنه لم يدخلها — فكان اول أمير تولاها من غير أن يدخلها — واستخلف عليها (عبد الله بن المسيب) ووليها الى سلخ سنة ١٧٨ هـ

(٦٣) ثم اخلفه (عبد الله بن المهدى) العباسى . فوليها سبعة اشهر ثم صرف

(٦٤) فاخلفه (موسى بن عيسي) فكانت هذه ولايته الثالثة . فأقام من آخر ذي القعده سنة ١٧٩ الى جمادى الآخرة سنة ١٨٠ . وصرف عنها

(٦٥) فوليها (عبيد الله بن المهدى) ولايته الثانية من شعبان سنة ١٨٠ الى رمضان سنة ١٨١ .

(٦٦) وأخلفه (اسماعيل بن صالح) العباسى ، وكان خطيبا مفوهاً فوليها من رمضان سنة ١٨١ الى جمادي الآخرة سنة ١٨٢ هـ

(٦٧) واخلفه (اسماعيل بن عيسى) العباسي من جمادى الآخرة

الى رمضان سنة ١٨٢ .

(٦٨) ثم وليها (الليث بن الفضل) وكان كلما اغلق خراج سنه وفرغ من حسابها ، خرج بالمال والحساب الى (هرون الرشيد) . وبعث (ليث) فى سنة ١٨٦ مُسّاحا يمسحون على اهل الحوف اراضي زرعهم فانتقصوا من القصبة اصابع . فتظلم الناس . فلم يسمع منهم . فعسكروا وساروا الى الفسطاط . فخرج (ليث) اليهم فى اربعة آلاف من الجند ؛ ولكن جنده انهزموا عنهم ولم يبق حوله الا مائتان . فحمل بهم على الثائرين حملة صادقة : فهزمهم ، وبعث الى الفسطاط بثمانين رأسا ، قبل عودته اليه . أما أهل الحوف فرجعوا الى منازلهم ومنعوا الخراج . فلماذهب (الليث) الى بغداد فى تلك السنة سأل الخليفة أن يبعث معه بالجيوش لاستخراجه . وكان بباب الخليفة (محفوظ بن سليمان) . فرفع اليه يضمن له جباية الخراج عن آخره بلاسوط ولا عصا . فولاه (الرشيد) الخراج وولى (احمد بن اسماعيل) العباسى الصلات . وصرف (الليث) عن الولاية .

(٦٩) فوليها (احمد بن اسماعيل) من جمادى الآخرة سنة ١٨٧ الى شعبان سنة ١٨٨ هـ .

(٧٠) ووليها بعده (عبد الله بن محمد) العباسى . ويقال له (ابن زينب) من شوال سنة ١٨٨ الى شعبان سنة ١٩٠ هـ .

(٧١) وأخلفه (الحسين بن جميل) ؛ وفى ولايته امتنع أهل الحوف عن أداء الخراج ، وكثر قطاع الطرق بآيلة وفى قرى الحدود ما بين مصر والشام . فبعث (الرشيد) (يحى بن معاذ) فى أمرهم . فقطع دابر

اللصوص أولا ؛ ثم ألزم أهل الحوف بالأذعان بالخراج . وصرف (الحسين بن جميل) فى ربيع آخر سنة ١٩٢

(٧٢) فولي الامر بعده (مالك بن دلهم) . فكتب (يحيى بن معاذ) الي اهل الاحواف ان « اقدموا حتى اوصيكم (مالك بن دلهم) وأدخل فيما بينكم وبينه فى أمر خراجكم ! » فذهب اليه الرؤوس وقد اعدلهم القيود فأمر بالابواب : فأخذت عليهم . ثم دعا بالحديد : فقيدهم وتوجه بهم الي (الرشيد) . وصرف (مالك بن دلهم) فى صفر سنة ١٩٣ هـ .

(٧٣) فأخلفه (الحسن بن التختاخ) فأعطي شرطه عطاءهم ثلثا عينـاً وثلثاً بزاً ، وثلثا قمحاً . فوقعت فى ذلك فتنة عظيمة ، قتل فيها ناس من الجنـد وناس من اهـل مصر فى المسجد الجامع . ولما حملت الاموال الي (الامين) ـ وكان قد اخلف (الرشيد) اباه ـ وصارت بفلسطين وثب أهل الرملة عليها فأخذوا منها عطاءهم كاملا وادخلوا الباقى فى بيت المال فعزل (ابن التختاخ) عن مصر . فعاد الي العراق عن طريق الحجاز لفساد طريق الشام سنة ١٩٤ هـ .

(٧٤) ووليها (حاتم بن هرثمة بن اعين) قدمها بألف من الابناء . فلما نزل ببلبيس صالحه أهل الحوف على خراجهم . ولكنه مااستقر بالفسطاط الا وثار عليه اهل بعض الجهات فى الوجه البحرى . فأدبهم . ثم ابتنى قبة الهوى المشهورة ، وصرف عن الولاية فى جمادى الآخرة سنة ١٩٥

(٧٥) فوليها (جابر بن الاشعث) الطائى . وكان لينا محببا الي الناس حتي تباعد مابين (الامين) و (المأمون) وخلع الاول الثانى من ولاية العهد ، وترك الدعاء له على المنابر . فتكلم الجند بينهم فى خلع (الامين)

واقبل (السرى بن الحكم) يدعوا الناس الي خلعه . وكتب (المأمون) الي اشراف اهل مصر يدعوهم الي القيام بدعوته . فكلهم أجابوه سراً . وأتى كتاب من (هرثمة بن اعين) لوكيله على ضياعه بمصر يشير عليه بالعمل على خلع (الأمين) . فأحضر الوكيل الجند الي المسجد الجامع ؛ وقرأ الكتاب عليهم ودعاهم الي خلع (الأمين) فبويع (للمأمون) بيعة عامة ولما كان (جابر بن الاشعث) على ولاء (الامين) وثب الجند به فاخرجوه في سنة ١٩٦

(٧٦) فوليها (عباد بن محمد) وكيل (هرثمة) من قبل (المأمون) . فكتب (الأمين) الي (محمد بن ربيعة) رئيس (قيس) بالحوف بالولاية على مصر فانقاد أهل الحوف كلهم اليه وأظهروا دعوة (الأمين)، وساروا الي الفسطاط لمحاربة أهلها . فخندق (عباد) على الفسطاط وتناوش الفريقان حتى كان بينهما قتلى . ثم رأى (عباد) أن يحاربهم في ديارهم . فعقد (لعبد العزيز الجروى) . ولكن (الجروى) هذا انهزم ؛ ولما مضى الي قومه بفاقوس قالوا له: « لم لاتدعو لنفسك؟ فما أنت بدون هؤلاء الذين غلبوا على الارض » فبعث عماله يجبون الخراج من اسفل الارض

وعاد اهل الحوف الي الخندق فعقد (عباد) (للسرى بن الحكم) على حربهم . فاقتتلوا . فانكشف اهل الحوف ،و بلغهم مقتل (الامين)، وبيعة (المأمون) ، فتفرقوا. وصرف (عباد) عن الولاية في صفر سنة ١٩٨ أى بعد أن قام عليها سنة وسبعة أشهر .

(٧٧) فوليها (المطلب بن عبد الله) الخزاعى من قبل (المأمون) ؛ وما لبث أن بلغه أن أهل الحوف اجتمعوا على حربه ، بأسفل الارض .

فعقد (لعبد العزيز الجروى) وبعثه اليهم . فالتقوا بشطنوف ، وكانت بينهم قتلى . وخرج (بنومدلج) بالاسكندرية . فبعث اليهم (المطلب) باخيه (هرون) . فانهزم (هرون) ؛ ثم صرف المطلب فى شوال سنة ١٩٨

(٧٨) فوليها (العباس بن موسى بن عيسى) العباسى . فقدمها ابنه (عبد الله) ومعه (محمد بن ادريس الشافعى) الامام المشهور . و (ابو بشر) الانصارى . فسجن (المطلب) وثاور (الانصارى) الجند مرة بعد مرة ومنعهم أعطياتهم وتهددهم ، وتحامل على الرعية وعسفها . فأوحش الجميع ذلك من فعله . وخدع (عبد العزيز الجروى) ـ وكان (عبد الله) قدجعله على شرطه ـ وجوها من قيس ، فأسرهم وقدم بهم الي (عبد الله) فقتلهم يوم النحر . وعاد (الانصارى) الي التحامل على الجند والرعية . فثاوروه ودعوا الي ولاية المطلب ، والمطلب يومئذ فى سجن ابن العباس . فكانت مدة خلافة هذا لأبيه شهرين ونصفا

(٧٩) ثم وليها (المطلب بن عبد الله) ولايته الثانية . باجماع الجند عليه ومبايعتهم له . فهرب (الجروى) الي تنيس وانضم (عبد الله بن العباس) الي (عباد بن محمد) وانضم (الانصارى) الي (المطلب) ؛ وأقبل (العباس بن موسى بن عيسي) من (مكة) الي الحوف ؛ فنزل بلبيس ودعا (قيساً) الي نصرته . ثم مضى الي (الجروى) بتنيس ؛ فأشار عليه أن ينزل دار (قيس) فرجع (العباس) الي بلبيس ويقال أن (المطلب) دس الي قيس : فسموا (العباس) فى طعامه ؛ فمات فى سنة ١٩٩ ، وظهر (المطلب) على كتب منه الي (الانصارى) : فسلط الجند على هذا الرجل ؛ فقتلوه . وكاتب (المطلب) اهل الاحراف بعد

موت (العباس) فانطاعوا له و بايعوه الا (الجروى) كانت له مع الرجل وقواده وبالأخص (السرى بن الحكم) مواقع ومواقف ذكرناها فى غير هذا المكان (انظر فصل الثورات والفتن الداخلية) .

وأقبل (عبد الله بن موسى) الي مصر طالبا لدم أخيه (العباس) فى محرم سنة ٢٠٠ . فنزل على (الجروى) وسار معه فى جيوش له كثيرة العدد فى البر والبحر حتى جاء الجيزة. فخرج اليهما (المطلب) وحاربهما فرجع (الجروى) الي معاقله ومضى (عبدالله بن موسى) الى الحجاز .وجد (المطلب) فى أمر (الجروى) . فأخرج (السرى بن الحكم) من سجنه وعاهده على أن يثور (بالمطلب) ويخلعه فألقى (السرى) الى أهل مصر أن كتابا ورد بولايته . فاستقبلة الجند من اهل خراسان وعقدوا له عليهم ، ولكن المصريين امتنعوا من ولايته ، وبعث اليه (المطلب) يحاربه . فالحاه الجند فى منزله بالحمراء بالفسطاط وأحاطوا به .غير أن (السرى) وأهل (خراسان) تغلبوا فى نهاية الأمر وعلوا المصريين. فطلب (المطلب) الأمان من (السرى) على أن يتسلم اليه الأمر ، ويخرج عن مصر . ففعل وسلم اليه (المطلب) وخرج فى بحر القلزم الي مكة . فكانت ولايته هذه سنة وثمانية أشهر .

(٨٠) ثم وليها (السرى بن الحكم) باجماع الجند عليه . وفى أيامه كانت ثورة أهل الأندلس وغيرهم بالاسكندرية ومحاربة (الجروى) لهم . وفساد ماينه وبين (السرى) بسبب ذلك ، ماسبق لنا الكلام عنه وأعقب تلك الامور نفور وجوه أهل خراسان بمصر من (السرى) ووثوبهم عليه وعزله ولما تمض على ولايته ستة أشهر .

(٨١) فوليها (سليمان بن غالب بن جبريل) بمبايعة الجند فى ربيع أول

سنة ٢٠١ فسير (السرى) الي اخميم فى الصعيد مع (ميمون) ابنه وقيدهما وسجنهما فيها . ثم استفسد أهل خراسان وقدم عليهم أتباعه وبطانته وهمّ بالفتك فيهم . فألب (عباد بن محمد) عليه الجند . فخلعوه وبايعوا (على بن حمزة) العباسى . ولكن (عباد) امتنع من مبايعته ولحق بالجروى كما لحق به (سليمان بن غالب) أيضا .

(٨٢) فوليها (السرى بن الحكم) مرة ثانية من قبل (المأمون) وبأمره . فجاء الجند به من سجنه بأخميم وسلموه الولاية فتتبع كل من كان حاربه أو انتهبه ، وجعل يقتلهم ويصلبهم . فعز وانتظم سلطانه وقوى أمره ؛ ثم ورد عليه كتاب من (المأمون) يأمره بالبيعة لولي عهده (على بن موسى) المسمى (بالرضى) . فبويع له بمصر . ولكن (ابراهيم بن المهدى) وأخا (الرشيد) قام فى فساد ذلك ببغداد، وكتب الي وجوه الجند بمصر يأمرهم بخلع (المأمون) وولي عهده ، وبالوثوب بالسرى. فأطاعه (الجروى) وغيره وعقدوا لعبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدى وأجمعوا على ولايته . فحاربه (السري) وظفر به وبجمع من أهل بيته فقتلهم . ولكن (الجروى) مافتىء قائما بالمناوأة على ماسبق لنا ذكره، وأقبل فى مراكبه بعد قتل (ميمون بن السرى) الي الفسطاط ليحرقها فخرج اليه اهل المسجد ، وسألوه الكف . فانصرف عنها .

ثم ظهر للجند موت (على بن موسى) العلوى ، وانخذال (ابراهيم بن المهدى) فأظهروا بيعة (المأمون) ودعوا اليه وورد كتاب منه الى (السرى) بغسل المنابر التى دعى عليها (لعلى بن موسى) . فغسلت . وما فتئت ثورة (الجروى) وغيره ، لاسيما (سلامة بن عبد الملك

الطحاوى) وثورة الاقباط قائمة تدمى البلاد وتخربها . فأسر (سلامه) وابنه (ابراهيم) وبعث بهما الي الفسطاط . فقتلا . وتنكر وجوه الجند للسرى . فاجمع على الغدر بهم ، فجمعهم اليه وأخبرهم أن رسولا قد قدم من قبل (طاهر بن الحسين) ـ احد كبار قواد (المأمون) وأشارعليهم أن يتلقوه . فخرجوا فى النيل وخرج معهم فى مركب غير مركبهم وأهمهم (عباد بن محمد)، وحمل معهم اخاه اسماعيل بن الحكم ليزيد فى طمأنينتهم ؛ وجعل فى باطن المركب غلاما له أمره أن يحرقها ، ففعل. فغرق جميع اولئك الوجوه ومعهم اخو (السرى) وأخرجوا امواتا. وهكذا سبقت هذه الفاجعة فاجعة جزر المماليك فى القلعة وكارثة كفر الزيات فى ايام (سعيد باشا) ـ ومات (السرى بن الحكم) بعد قتل (الجروى) تحت أسوار الاسكندرية بثلاثة اشهر . فكانت مدة ولايته هذه ثلاث سنين وتسعة أشهر وبضعة أيام

(٨٣) ثم وليها (ابو نصر) ابنه . على أن ما كان بيده من أرض مصر فسطاطها وصعيدها وعربيتها ، وأما أسفل الارض كله فكان بيد (على بن عبد العزيز الجروى) مع الحوف الشرق .

فسار احدهما الي صاحبه فى النيل . فالتقيا بشطنوف . واقتتلا . فانهزم جيش (ابى نصر) ؛ ثم عادا فالتقيا بدمنهور وقتل من الفريقين سبعة آلاف . وانهزم جيش (ابى نصر) مرة أخرى ، فتبعه عدوه الى جسر الفسطاط وعزم على حرق هذه المدينة ولولا تدخل اهل مصر لفعل. ثم اصطلح الخصمان على ان يكف احدهما عن الآخر و توفى (ابو نصر) فى سنة ٢٠٦ بعد أن ولى الامر ١٤ شهراً.

(٨٤) فوليه بعده (عبيد الله بن السرى) بمبايعة الجند. ولكن (المأمون) عقد (لخالد بن يزيد) وبعثه فى جيش من ربيعه وافناء الناس حتى دخل ارض مصر وراسل (عبيدا) فامتنع (عبيد) من التسليم له وقاومه وانضم (ابن الجروى) الى (خالد) واقام له الانزال ودلّه على الطريق. فشبت الحرب بين الرجلين واسر (خالد) ابن عم (عبيد الله) وقتله صبرا. ولكنه انهزم عن الفسطاط وتقهقر الى دمنهور. وما زال امره ينحط حتى اسره (عبيد الله)، وسيره مكرما من القلزم الى مكة. فقدم على (عبيد الله) رسول من (المأمون) بولايته على ما فى يديه. وبولاية (على بن الجروى) على ما فى يديه. فأثار ذلك بين الرجلين حربا عوانا (بالبشانون) و (دفرا) فانتهب (ابن الجروى) محلة شرقيون انتهابا فظيعا. ولكنه انهزم. وما زال (عبيد الله) يطارده عما فى يديه حتى اجلاه الى ما بين (العريش) و (غزة). غير انه عاد النفوق وكر راجعا فهزمه (عبد الله) مرة اخرى بشطنوف، وما زالت الحرب بينهما سجالا حتى قدم (عبد الله بن طاهر) الى مصر.

فامتنع منه (عبيد الله) فى بادىء امره وحاربه؛ واما (الجروى) فانضم اليه. فجعله (ابن طاهر) على سفنه التى اقبلت من الشام لمعرفته بالحرب فى البحر. فانهزم اصحاب (عبيد الله). ثم ما لبث أن قام بينه وبين (ابن طاهر) من مشى بالصلح واشترط لعبيد شروطا ـ فكتب (عبد الله بن طاهر) لعبيد الله كتاب امان واشهد فيه شهودا من الجند والفقهاء واشراف اهل مصر وجمعا ممن ينسب الى العدالة. فتوجه (عبيد الله) فى اهل بيته اليه. فخلع (ابن طاهر) عليه واجازه بعشرة آلاف دينار وامره بالخروج الى (المأمون)

(٨٥) فاستتب الامر (لعبد الله بن طاهر) . فاجمع على المسير الي الاسكندرية بقواد العجم من اهل خراسان ؛ ونزل على حصنها . وكان له مع الاندلسيين ما رويناه في غير هذا المكان . ولما استولى على الثغر ولى عليه (الياس بن أسدبن سامان) ورجع الى الفسطاط وزادفى المسجد الجامع ؛ ثم استخلف(عيسي بن يزيد) على الامارة . وتوجه الى العراق سنة ٢١٢ فكانت مدة ولايته سبعة عشر شهرا وعشرة ايام

(٨٦) فوليها (عيسى بن يزيد) الى ذى القعدة سنة ٢١٣ اذ قدم مصر رسول من لدن الخليفة بولاية الامير (ابى اسحق المعتصم) عليها ، وقيام (ابى اسحق الجلودى) على الصلاة ، و (صالح بن شيرزاد) على الخراج من قبله . فظلم (ابن شيرزاد) الناس وزاد عليهم فى خراجهم . فانتقض اسفل الارض. فحاربهم (عيسى بن يزيد) فهزموه ولم ينج من رجاله احد سواه

(٨٧) ثم وليها (عمير بن الوليد) باستخلاف (ابى اسحق) . ففرض الفروض واستعد لحرب اهل الحوف بعد أن بذل (المأمون) المساعى سُدىً فى ارجاعهم الى الصواب . فحاربهم وهزمهم وتبعهم فى نفرمن اصحابه . فعطف عليه كمين لهم ؛ فقتلوه باليهودية فى ١٠ ربيع الآخر سنة ٢١٣ ولما تكمل له على الامارة ستون يوما .

(٨٨) فوليها (عيسى بن يزيد) ولايته الثانية ، وذلك بعد أن اقام (محمد بن عمير) خليفة لابيه عليها شهرا فسار الى اهل الحوف وقاتلهم (بمنية مطر) فانصرفوا . فنزل (النويرة) وخندق على نفسه وجيشه . فاتاه اهل الحوف وصبّحوا به . فهاله امرهم . ولما امسى تحمل منهزما

الى الفسطاط واحرق ماثقل عليه من رحله . وبينما اهل الحوف يشددون عليه، اذا بابى اسحق بن هرون، وقدسار الى مصر فى الاثناء فى اربعة آلاف، قد نزل بين اظهرهم ودعاهم الي الطاعة . فامتنعوا عليه فقاتلهم وهزمهم، وقتل وجيهين من جوهم وصلبهما . وبعد أن ولي على مصر (عبد ويه بن جبله) من الانباء، خرج متوجها الى الشام لغرة المحرم سنة ٢١٥ فى اتراكه، ويجمع من الاسارى فى ضر وجهد شديدين .

(٨٩) فقام (عبد ويه بن جبلة) بالامر - ولكن اناسا من (لخم) بالحوف خرجوا عليه وحاربوه فقاتلهم والي الحوف - وكان اسمه (عيسى بن منصور) الرافقى - فظفر بهم ؛ ثم قدم (الافشين حيدر بن كاووس الصندى) الى مصر ومعه (على بن عبدالعزيز الجروى) فى شهر ذى القعدة سنة ٢٠٥ ؛ وقد امر أن يطالبه بالاموال التى عنده . والتى جمعها ايام أن كان أسفل الارض كله بيده . فان هو دفعها اليه، والا قتله . فطالبه (الافشين) فلم يدفع اليه شيئا . فقدمه بعد الاضحي بثلاث؛ فقتله ؛ وصرف (الافشين) عن مصر (عبد ويه بن جبلة) وولى مكانه (عيسى بن منصور) ثم خرج الى (برقه) ومعه (عبد ويه) .

(٩٠) فقام (عيسى بن منصور) بالامر والنفوس فى هياج لسوء سيرة العمال فى الناس . فما لبثت أن انتقضت اسفل الارض كلها، عربها وقبطها فى جمادى الاول سنة ٢١٦ وثارت ثورة عظمى . وعقد الثائرون (لابن عبدوس) الفهرى من ولد (عقبة بن نافع) واخرجوا العمال، وخالفوا الطاعة؛ واذا بالافشين قد عاد من (برقة) فسار ومعه (عيسى بن منصور) وقاتلا الثوار معا، وبعد أن هزماهم (باشليم) وأسرا منهم

كثيرين قتلاهم صبرا ، اجمعا على أن يختص (عيسى بن منصور) بالضرب على يد القبط ؛ و (الافشين) باخماد ثورة العرب أما (عيسى بن منصور) فرجع الى الفسطاط وعبأ تعبئته ثم عاد فقاتل أهل (تمىّ) وهزمهم . واما (الافشين) فمضى الى الحوف ، وفلّ جماعة الثوار فيه ؛ ثم مضى الى (شرقيون) فظفر بمن كانوا هناك ؛ ثم اقبل بجنوده الي الاسكندرية . فتعرض له (بنو مدلج) (بخربتا) . فبمحلة الخلفاء .فهزمهم ، واسر اكثرهم ، فضرب اعناقهم وأتى الاسكندرية ؛ فدخلها ، وهرب منه رؤساء الثوار فيها ؛ وبعد أن فتحها مضى الي اهل (البشرود) من القبط مُؤازرا لعيسى بن منصور . وبينماهما يوافقانهم اذ قدم مصر فى عاشر المحرم سنة ٢١٧ (الخليفة عبدالله المأمون) . فحل لواء (عيسى بن موسي) وأمره بلبس البياض ناسبا الحدث العظيم الي فعله وفعل عماله . وبعد أن ارسل جيشا الى الصعيد فى طلب ابن عبدوس الفهرى ــ وظفر ذلك الجيش به ــ سار الى (البشرود) و (الافشين) قد اوقع القبط بها . فنزلوا على حكم (امير المؤمنين) فحكم بقتل الرجال وبيع النساء والاطفال، فبيعوا ، وسُبي اكثرهم واتى بالفهرى الى (سخا) فقتله . وتتبع كل يوي اليه بخلاف فقتله ، حتى بلغ عدد القتلى عدة الوف ؛ وبعد أن أقام ما بين الفسطاط وسخا وحلوان تسعة واربعين يوما ، ارتحل الى العراق فى صفر سنة ٢١٧ مستخلفا (كيدر) ــ نصر بن عبد الله .

(٩١) فوليها (كيدر) هذا واتاه رجل من العجم من قبل (المأمون) ليوليه الشرط يقال له (بسطام) ــ فظهر عليه انه رجل مرتش . فعزله

(كيدر) وامر بضربه بالسوط فى صحن المسجد الجامع ؛ ثم ورد عليه كتاب (المعتصم) فى سنة ٢١٨ بان يأخذ الناس بالمحنة . فأخذهم بها . فاجابوا ومن وقف منهم سقطت شهادته ؛ ثم ورد عليه كتاب آخر يأمره (المعتصم) فيه باسقاط من فى الديوان من العرب وقطع اعطياتهم ففعل . ومات كيدر فى ربيع الآخر سنة ٢١٩ هـ .

(٩٢) فوليها (مظفّر) ابنه باستخلاف منه ، وفى عهده صرفت مصر الى (ابى جعفر اشناس) ودعى له بها . وأمر (مظفر) بالتكبير بعد صلاة الجمعة . وكان أول من فعل ذلك .

(٩٣) ثم وليها فى رمضان سنة ٢١٩ (موسى بن ابى العباس) من قبل (ابى جعفر اشناس) . وكان المؤذنون الى عهده يؤذنون بين يدى الامام يوم الجمعة من داخل المقصورة . فاخرجهم (موسى) منها . وكانت مدة ولايته اربع سنين وتسعه اشهر .

(٩٤) ثم وليها (مالك بن كيدر) من قبل اشناس ، سنتين وأحد عشر يوما ، وتوفى بالاسكندرية

(٩٥) فوليها (على بن يحيى الارمنى) من قبل (اشناس) الي وفاة (ابى اسحق المعتصم) فى نصف ربيع الاول سنة ٢٢٧ هـ فاقره عليها (هرون الواثق بالله) الى ذى الحجة سنة ٢٢٨

(٩٦) ثم وليها (عيسى بن منصور) ولايته الثانية من قبل (اشناس) ؛ وتوفى (اشناس) هذا سنة ٢٣٠ . وجُعل مكانه (ايتاخ) ؛ فاقره عليها . وسجن (عيسى بن منصور) (على بن يحيى الارمنى) وضيق عليه؛ ثم اطلقه، ووليها الى وفاة (الواثق) ؛ وقدمت بيعة (المتوكل) سنة ٢٣٣هـ

فاقام (عيسى) عليها الى نصف ربيع الاول سنة ٢٣٣ ؛ ثم صرف عنها ومات فى قبة الهواء بعد عزله .

(٩٧) فوليها (هرثمة بن النضر الجبلى) من قبل (ايتاخ) . وورد عليه كتاب (المتوكل) يأمره بترك الجدال فى القرآن سنة ٢٣٤ . ومات (هرثمة) واستخلف ابنه (حاتما)

(٩٨) فوليها (حاتم بن هرثمة) شهرا واحدا

(٩٩) ثم وليها (على بن يحيي الارمنى) مرة ثانية من قبل (ايتاخ) الى أن حلت بايتاخ هذا الكارثة . فصرف عن مصر واستصفيت امواله بها . وترك الدعاء له ودعى (للمنتصر) مكانه .

(١٠٠) فوليها (اسحق بن يحيي بن معاذ) من قبل (المنتصر) ولى عهد (المتوكل) ابيه . فورد اليه كتابهما باخراج الطالبين من مصر الى العراق، وفرض فيهم ليتحملوا بها . فاعطى كل واحد منهم ثلاثين دينارا والمرأة خمسة عشر ديناراً ، وفرقت فيهم الثياب واخرجوا الي العراق، ومنها سيروا الى (المدينة) . وتحدث الناس أن اسحق بن يحيي عزم أن يثور بمصر فدخل عليه رجل يقال له (هرون بن سعيد) فقال اسحق له : «أبلغك أنه من اراد مصر بسوء اكبه الله لمنخريه ؟» قال : «قد روى» ـ كأن كل ماوقع من سوء فيما مضى على يد من سبق من الحكام ، لم يكن شيئا ! ـ فلم يلبث اسحق، بعد ذلك ، الا يسيراً حتى عزل ومات بعد عزله.

(١٠١) فوليها (خوط عبد الواحد بن يحيي) من قبل (المنتصر) وبناء على أمر ورد منه ومن (المتوكل) ابيه ، اخذ (خوط) قوما من بنى عبد الحكم فى اموال الجدوى فحبسوا مع اللصوص وتتبعت اموالهم

ونهبت منازلهم . وعذب بعضهم حتى مات فى عذابه ؛ وفى سلخ صفر سنة ٢٣٨ صرف (خوط) عن الولاية .

(١٠٢) فوليها (عنبسه بن اسحق) من قبل (المنتصر) . فاخذ العمال برد المظالم واقامهم للناس وانصف منهم؛ واظهر من العدل - على مايقال - مالم يسمع بمثله في زمانه. وكان يروح الى المسجد ماشيا، وينادى فى شهر رمضان بالسحور. وكان مشهورا بمذهب الخوارج وفى ايامه نزلت الروم دمياط ، وقتلوا بها جمعا كثيرا وسبوا النساء والاطفال واهل الذمة . فنفر اليهم (عنبسه) فى جيشه . ولكنه لم يدركهم . وابتنى بأمر (المتوكل) حصنا بدمياط . ثم ابتنى مصلّى جديدا وصلى فيه يوم النحر سنة . ٢٤ . وفى ربيع الاول سنة ٢٤٢ ، ورد كتاب بالدعاء (للفتح بن خاقان) . فدعى له . وكان (عنبسه) آخر من ولى مصر من العرب ، وآخر امير صلى بالناس فى المسجد الجامع . وفى سنة ٢٤٤ صرف عنها ، فخرج منها الى الى العراق .

(١٠٣) فوليها (يزيد بن عبد الله التركى) من قبل (المنتصر) . فأمر باخراج المؤنثين من مصر ، وضربهم ونفيهم ، بعد أن يطاف بهم . ومنع من النداء على الجنائز ، وضرب من خالف . وأمر بالمختارين فجعلوا فى الكور؛ وهو اول من فعل ذلك. وأمر يوما، بضرب رجل من الجند فى شيء وجب عليه . فضرب عشرة . فاستحلف الجندى (يزيد) بحق (الحسن) و (الحسين) الا عفا عنه فزاده (يزيد) ثلاثين دره . ورفع صاحب البريد الأمر الى (المتوكل) فورد كتاب منه يأمر (يزيد) بضرب ذلك الجندى مائة سوط وحمله على العراق . ثم أمر يزيد ببيع

الخيل التى تتخذ للسلطان وعطل الرهان ؛ وتتبع الروافض ، واخرجهم الى العراق ؛ وفى شعبان سنة ٢٤٨ ظهر على (علوى) يقال له (محمد بن على) بويع له. فاخذه هو ومن معه وضربهم بالسياط؛ ثم أخرج العلوى بجمع وجمعاً من آل ابى طالب الى العراق ؛ ثم ورد كتاب من (المنتصر) - وكان قد اخلف (المتوكل) اباه منذ سنة ٢٤٧ - بان لا يُقبَلَ علوى ضيعة ، ولا يركب فرسا ، ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من اطرافها ، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد مايزيد على واحد؛ وان كانت بين طالبىّ و بين احد الناس خصومة يقبل قول خصمه فيه، دون أن يطالب ببينة . و كتب (المنتصر) الى سائر العمال بذلك ؛ وتوفى فى السنة التالية . فبويع (للمستعين) ، فورد كتاب منه الى (يزيد) يأمره أن يستسقى الناس لقحط كان بالعراق. فاستسقاهم واستسقى اهل الافاق - فى يوم واحد - ولله ، فى عقول خلائقه شئون !

وفى ايام (يزيد) خرج (جابر بن الوليد) المدلجى بارض الاسكندرية وقاتل عمال الحكم وتغلب عليهم فى (الكريون) وفى (صا) ؛ فضوى اليه كل من عرف بشدة ونجدة من العرب والنصارى والنوبيين والطالبيين. فتفاقم امره واشتد خطبه. فبعث من العراق (مزاحم بن خاقان) معينا (ليزيد) فقدم فى جيش عظيم ضرب به على يد كل ثائر ومخالف فاخمد الفتنة وقتل رؤوسها .

ثم صرف (يزيد بن عبد الله) عن الولاية بعد أن اقام عليها عشر سنين وسبعة اشهر وعشرة ايام .

(١٠٤) فوليها بعده (مزاحم بن خاقان) فحمل على شرطه (ازجور)

التركى . فاصدر (ازجور) هذا من الاوامر السخيفه ما قد تكلمنا عنه فى غير هذا المكان .

(١٠٥) ووليها ، بعد موت (مزاحم) فى سنة ٢٥٤ (احمد) ابنه باستخلاف ابيه الى أن توفى بها فى السنة عينها ، واستخلف عليها (ازجور)

(١٠٦) فوليها (ازجور) هذا . فخرج فى عهده رجل من العلويين يقال له (بُغا الاكبر). فبعث (ازجور) اليه اربعمائة رجل لمحاربته فى الصعيد . فهرب (بغا) منهم ومات . وخرج (ازجور) بعد مرور خمسة اشهر من توليته الى الحاج . فولى مكانه (احمد بن طولون) من قبل (المعتز) فاسس فيها دولته (الطولونية) الشهيرة سنة ٢٥٤ هـ .

فهرست اجمالى

وقعت أغلاط مطبعية نرجو من حضرات القراء تصحيحها فى الكتاب على ضوء الجدول الآتى ليستقيم المعنى

أولا :—

كتبت رؤوس الصفحات من ٣٠١ الى ٣٢٠ الحياة الاجتماعية مدة الحكم العربى وصحتها عمال الدولة العربية على مصر

ثانيا :—

صحيفة	سطر	الكلمة	وقعت	وصحتها
٣	١٢	٦	يقلبوا	يقبلوا
٢٨	١٩	٤	واستمين	واستعن
٤٤	١٠	٤	هو	وهو
٧٩	١٤	٨	بعهوهم	بعهودهم
٨٧	١	٢	الثانى	الثالث
٩٤	١١	٣	اخراج	خراج
٩٧	٣	١	ابن	بن
١٤٧	٢	٦	خرجها	خراجها
١٦٦	١٧	٦	زولا	نزلا
١٦٦	١٦	٦	الفلة	الغلة
١٦٧	٦	٧	العامة	عامة
١٦٧	١٩	٣	الملك	الله
١٧٠	٢	١٠	واذا	اذا
١٧٠	١٣	٣	العملية	العلمية
١٧١	١٧	١٢	او	ولا
١٧٢	٢	٨	جميع مكتبة	جميع كتب مكتبة
١٧٢	٥	٦	ازديادا	ازديانا
١٧٢	٨	٨	منها	منهما
١٧٢	٢٠	٥	شديد المسيحية	شديد التحمس للمسيحيين
١٧٣	١٦	٧	المدينه الوثنيه	المدينة من مؤلفات الوثنية

صحيفه	سطر	الكلمة	وقعت	وصحتها
١٧٥	٤	١١	الكتب التى	الكتب العلمية التى
١٧٥	٩	٣	على شكل	على اى شكل
١٧٦	١٩	١	أو	الى
١٧٨	١٧	٩	الحكمة	الحكمة
١٨١	٢	٧	البحث	البحت
١٨١	١٠	٧	الكتاب مواليهم	الكتاب من مواليهم
١٨٣	٥	١	لها أيامنا	لها فى أيامنا
١٨٣	٢٠	١	الموظأ	الموطأ
١٨٣	٢٠	٢	النجارى	البخارى
١٨٥	٢	٣	خبل	حنبل
١٨٥	٤	٤	ابو سيف	ابو يوسف
١٨٥	٤	٧	محد بن الحسين	محمد بن الحسن
١٨٥	٥	٦	عقول لهم	عقولهم
١٨٩	٤	٢	الانتقاء	الانتقاد
١٨٩	٤	١٠	ولعا	ولوعا
١٩٢	٣	٩	يخلق	بخلق
١٩٣	٤	٢	الاعم	الاعسم
١٩٣	٥	٣	حرف	صرف
١٩٥	١٠	١٠	سنة ٣٩٩	سنة ٣٣٩
١٩٧	٨	٧	ووفقوا	ووفقوها
١٩٧	٢١	٧	يعرفه .	يعرفه . فماب المغنيين
١٩٨	١٨	٢	فى حكم	حكيم
٢٠٢	٤	٣	القرب حلوا	العرب الجميع حلوا
٢٠٣	١٩	٩	قال : « يكسحون »	قال: «نعم يكحسون»
٢٠٣	٢٠	٢	ويحرزون	ويخرزون
٢٠٤	٨	٣	طعموا	أطعمو

صحيفه	سطر	الكلمة	وقعت	وصحتها
٢٠٥	الهامش نمرة ٢		تاريخ التمدن الحديث	تاريخ التمدن الاسلامى
٢٠٦	١٠	٣	وانتفى	وانقضى
٢٠٧	١٤	٤	البعود	البعد
٢٠٨	١	٤	بعزات	بعميزات
٢٠٨	١٥	١١	ذكرها .	ذكرها عليها
٢٠٩	٣	١٠	كنظام يغنى	كنظام حربى يغنى
٢٠٩	١٣	٦	وعمر	وعمر وعليا
٢٠٩	١٨	٢	هو	هو هو
٢١٠	١٠	٧	اتباعا	اشباعا
٢١٢	١٧	٢	حسرا	صبرا
٢١٣	٥	٥	الله	الملك
٢١٧	٢٠	٦	والي	موالى
٢١٨	٥	٧	لا يرث ،	لا يرث ولا يورث ،
٢١٨	١٤	١	والفراقين	والعراقين
٢٢٠	الهامش		ح .	ح ١ .
٢٢١	١٦	١	العشرى	القسرى
٢٢٢	الهامش	٥	احد من	احدا حتى
٢٢٥	١	٦	ومباؤهم	وحباؤهم
٢٢٦	١٢	٥	ابو سفيان	ابو سفيان اورمتهم
٢٢٧	١٣	١١	طالب ، لأن	طالب على الاطلاق ، لأن
٢٢٩	١٨	٢	وهى شيعه	وهى اقاليم شيعة
٢٣٢	١٠	١	فى	منه
٢٣٢	٢٠	٥	أشياء	اشبار
٢٣٣	١٦	١	صيدا	صبرا
٢٣٤	٢	١١	أصبح وزير أبي مسلم	أصبح وزير أبي العباس السفاح ودعى وزير آل محمد ولم يحمله فى بادىء الامر على تعضيه مساعي أبي مسلم

صحيفة	سطر	الكلمة	وقعت	وصحتها
٢٣٧	٩	٤	كما	عما
٢٣٨	٥	٥	بعصبية	بهيبة
٢٣٨	١٨	١٠	يكون مدسوسا	يكون القول مدسوسا
٢٤١	١٠	٥	فوقعه	فدفعه
٢٥٣	٢	١	بالتزام	بالزام
٢٥٤	١٨	٢	العشرى	القسرى
٢٧٧	٣	٢	ذكر	ذهن
٢٨١	١٢	١	مر	أمر
٢٩٩	٢١	٨	قيسا وكتب	قيسا وبعث اليه يأمره بقتال أهل خربتاوبها يومئذ عشرة الاف فأبى قيس وكتب
٣٠٢	٤	٤	العبد زلى	العبد ربى
٣٠٤	٦	٦	الغهرى	الفهرى
٣٠٤	١٧	١	مروان . فلما	مروان ان السائب له ابن مسترضع بفلسطين . فأخذه مروان . فلما
٣٠٦	١	٨	يستطيع	يستطع